



Bibliotheca Alexandrina



00117782



درٲنی خشبہ

الأوذیه

لساعر الخالود « هو مبردس »

ملزم الطبع والنشر
مكتبه نهضة مصر بالبنجاله
١٨ شارع كاسر مدق

إلى اليونان الخالدة
أهدى هذه النسخة من هوميروس

مقدمة

وهذه هي قصة الأوديسة ، وبطلها أوديسيوس ، أو أوليسيس ، أو عولس كما يسميه الشرقيون .

وقصة الأوديسة ملحمة متفرعة من قصة حروب طروادة ، تلك الحروب الطويلة القديمة التي نشبت بين جيوش دول المدن اليونانية وبين جيوش طروادة (١) وحلفائها من دول آسيا الصغرى في ذلك الوقت ، وسببها هو ما ذكرناه في قصة الإلياذة ، إذ نزل باريس بن الملك بريام ملك طروادة ضيفاً على الملك منلوس ملك أسبارطة فلم يلبث أن سرق زوجته وكنوزه وفر إلى طروادة فنشبت الحرب التي دامت عشر سنوات حتى استطاعت الجيوش اليونانية اقتحام المدينة بفضل الحيلة التي أشار بها أوديسيوس بطل قصة الأوديسة وهي حيلة الحصان الخشبي الضخم الذي اختبأت فيه نخبة من أشجع فرسان الجيش اليوناني . . مما هو مذكور في قصة حروب طروادة .

وقصة الأوديسة هي إحدى الملاحم التي نظمها الشاعر الأعشى هوميروس في تاريخ تلك الحروب الطويلة المريعة . . ولم يبق من تلك الملاحم إلا قصة الإلياذة ، وهي تاريخ السنة العاشرة من تلك الحروب أما قصة الأوديسة فتروى ما حدث لبطلها أوديسيوس بعد انتهاء

(١) طروادة مدينة قديمة على بؤغاز الدردنيل في الشاطئ الآسيوي .

حرب طروادة وذلك في طريق عودته بجرأ من طروادة إلى مملكته
إيثاكا... لقد لقي أوديسيوس من المتاعب، وخاصة من المغامرات،
شيئاً كثيراً وقاسى من الأهوال ما نقرأ تفصيلاته في تلك الملحمة...
أى القصة التى يتحدث فيها الشاعر عن ألوان البطولة والقوة
والحب والحرب ومواجهة الظروف القاسية التى لا يصبر عليها
إلا أشجع الشجعان.

والقصة تروى أن بنلوب ملكة إيثاكا وزوجة البطل
أوديسيوس كانت امرأة عظيمة نبيلة وعلى قسط كبير من الجمال،
وكان لها ابن واحد اسمه تليماك - أو تلياخوس - كان لا يزال صبياً
صغيراً فى أول تلك القصة. وأن ملوك اليونان الأقوياء الظالمين لما
رأوا أن أوديسيوس قد تأخر عن العودة إلى بلاده، وطالت السنوات
والأيام ولم يعد إليها ظنوا أنه قد مات أو غرق، فطمع كل منهم
فى الزواج من بنلوب الجميلة، وأقدموا يخطبونها، لكن بنلوب الوفية
الطاهرة كانت تردهم رداً جميلاً، وتعدهم أنها حينما تفرغ من نسج
ثوب تظاهرت بالعمل فيه على منسجها فسوف تنظر فى خطبتهم لتختار
من بينهم زوجاً لها بدلاً من أوديسيوس، وهى إنما كانت تحتال بتلك
الحيلة عسى أن يكون زوجها لا يزال حياً وعسى أن يعود ليحارب
هؤلاء الملوك السمجاء الذين أقبلوا من بلادهم وحاصروا قصر بنلوب
ولم يشاؤوا الانصراف عنه حتى تختار لها زوجاً منهم.

ويحسن هنا أن نتذكر أن معظم الأمم القديمة كانت أمماً وثنية،

ولم يكونوا يعبدون إلهاً واحداً ، بل كانوا يعبدون آلهة متعددة ، وكان اليونانيون بالمثل يعبدون مئات من تلك الآلهة التي كان كبيرها زيوس ، رب السماء والأرض والصواعق في نظر اليونانيين ، ثم أخوه نبتيون ، أوبوسيدون ، رب البحار ، ثم أخوه بلوتو أو هيدز أو حادس رب الموتى والدار الآخرة ؛ وكان لزيوس زوجات كثيرات أنجب منهن ابنه أبوللو رب الشمس وديانا ربة القمر ومينرفا ربة الريح والحكمة والعدالة وأرباباً كثيرين غير هؤلاء سوف نلقاهم في هذه القصة كما لقيناهم في قصة الإلياذة وسوف نضحك كثيراً على سخافتهم .

ومن العجيب أن هؤلاء الأرباب الأغنياء قد انقسموا على أنفسهم في تلك الحروب المهلكة ، فبعضهم كان يؤيد أهل طروادة ضد اليونانيين ، وبعضهم كان يؤيد اليونانيين ضد أهل طروادة .

وقد كانت مينرفا ربة الحكمة والعدالة تؤيد أوديسيوس وتعطف على ابنه تليماك ولذلك تنكرت في صورة بطل من الأبطال ثم زارته لتطلب إليه أن يذهب للبحث عن والده لأنه لم يمت ، بل لا يزال حياً يكافح في سبيل الوصول إلى دياره .

فلماذا إذن تأخر أوديسيوس عن الوصول إلى إيثاكا ؟ وماذا عانى من الأهوال في طريقه إليها ؟ وماذا صنع حينما عاد ؟ وماذا كان من أمر زوجته بنلوب وأمر ولده تليماك ، وأمر أعدائه الملوك اليونانيين ؟

هذا هو موضوع الأوديسة ، تلك القصة الرائعة التي لم نشأ أن نترجمها ترجمة تطابق أصلها اليوناني ، بل فضلنا روايتها رواية تيسر فهمها وتعطي خلاصتها لكثرة ما ورد فيها من أسماء الآلهة وأنصاف الآلهة وما أثقلها به هو ميروس من أسماء الأبطال الخرافيين والحوادث العارضة التي قد يثقل على ذهن القارئ الملول متابعتها .

وننصح للقارئ بالرجوع إلى قصة الإلياذة ليجمع بين الصورتين كما ننصح به بقراءة كتاب الأساطير اليونانية حتى يحصل على صورة متكاملة لهذا القصص اليوناني الرائع الذي يقرأه اليوم جميع الشباب في مكاتبهم المدرسية ومكتبات بيوتهم في جميع أرجاء العالم ، لما فيه من شحنة للفكر وتنبيه للخيال ، وما يشتمل عليه من صور البطولة والشجاعة وتعويد القراء على التفكير إزاء كل مشكلة أو صعوبة يواجهونها .

هذا ، وقد قننا بكثير من التعديلات في القصة وفي الأسماء .
تيسيراً على شباب القراء ، مما لا يخفى على إخوتنا القراء القدامى .

دريز خشيبة

(الروضة — القاهرة ١٩٦٠)

مقدمة الطبعة الاولى

... وها هي ذى قصة الأوديسة ... أو الحلقة الثالثة من روائع الأدب اليونانى التى أخذت على عاتق تقديمها بطريقي الخاصة لقرائى الأعزاء فى جميع الأقطار العربية ... أولئك القراء الذين أكرموني فتقبلوا كتابي السابقين : أساطير الحب والجمال عند الإغريق ، وقصة طروادة ، متضمنة إلياذة هوميروس الخالد ، الذى فُتنت به ، فلم أبال ان أقدم طريقيه المجيدنين لقراء الأدب الرفيع فى أقل من ستة أشهر ، ليشقا طريقهما وسط تلك الزحمة الصاخبة من مئات الكتب فى الأدب الرخيص .

ها هي ذى قصة الأوديسة إذن ... كما رويتها ، وهذبت حواشيها ، منذ عشر سنين ، جاريأ فيها على المنوال الذى اخترته فى تقديم كتابي السابقين ... ذلك المنوال الذى ما زلت أراه أسلم الطرق لتجيب روائع الأدب القديم إلى نفوس القراء فى هذا الزمن المترف العجول المسلول . وبعد ... فلقد قلت أكثر ما كنت أصعب إلى قوله عن هوميروس فى المقدمة الطويلة التى صدرت بها لقصة الإلياذة ، وذكرت فيها الشئ الكثير عن قصة الأوديسة ، والذى لا أزال أرجوه هو أن يوفئني الله إلى إصدار ما أعدته للطبع من روائع الأدب اليونانى الذى كان فى إحيائه إحياء أوروبا الحديثة ، والذى لا بد لمصر الحديثة ، بل للعالم العربي الحديث ، من الإمام به ، إن كان فى نيتنا خلق أدب عربى حديث .

دربنى هسيبة

(القاهرة : يناير سنة ١٩٤٥)

بين منيرفا وتليماك

أنشد يا هو ميروس !
 وظل في فم الأبد قيثارته المرثية ، ونأية المطرب ، وعوده الآن ،
 ونغمته الحلوة الحنون !
 أنشد يا شاعر العصر الخالي .
 ومحل في الأسماع موسيقى مدوية ، وفي العيون دموعاً جارية ، وفي
 القلوب رحمة ومحبة ، وانفج عرائس الشجر من لدنك سلطاناً ، وحكمة
 وبياناً ، وسريراً وصولجاًناً .
 كنن يا شاعر أولب !
 وترسل من جنتك نغمة تنظم الأفلاك ، ورثة تجلجل في الأفق ،
 وآهة تزلزل قلوب الجبارين !

• •

سقطت اليوم (١) ونزح المغيرة ، هانجمله ورجه . فتعالى يا عرائس القدم ن
 فافقدى أوديسيوس في ذلك البحر اللجج يذريه ، موجة تلبسه وموجة
 تخلعه ، لا يعرف لمملكته ساحلا فيرسو عليه ، ولا شاة ثأ فيقصد إليه . .
 يخبط في اليم على غير هدى ، ويرسل عينيه في السماء والسماء على
 بصيرة . . زرقاة متصلة في العلو والسفل ، وتيه لانهاض يحيط في أوشاته
 أسطول السادة المنتصرين . . .

(١) Hium هي طروادة

والأقدار وحدها تعلم لماذا ضل أوديسيوس بجنوده في ذلك العُباب ،
وقد عاد كل أقرانه إلى هيلاس بعد طول النأى وشَحَطَ المزار ، إلا هو
وإلا هم ، بمزقين في دار الغربة كل مُمزَّق ، يتجشمون المصائب والآهوال ،
ويتخبطون بين موج كالجبال ، ويخاضون من بحر إلى بحر ، ومن روعٍ
إلى روع . فإذا أرسوا على أرض وظنوا أنهم نجوا ، أفزعهم فيها غير
الذي رجوا ...

ولقد رقت قلوب الآلهة ، وودوا لو أدركوا برحمتهم أوديسيوس ...
إلا نبتيون الجبار ، رب البحار ، الذي يضمّر للبطل في أعماقه كل كراهيةٍ
وكل بغضاء ، والذي آلى أن يصب على رأسه كل تلك الأرزاء ...
وحدث أن كان نبتيون في حرب مع الآثيوبيين ، فانهزها الآلهة
فرصة سانحة ، وعقدوا مجلس الأولمب في ذروة جبل إيدا ، وتفضل الإله
الأكبر ، زيوس (١) ، فافتتح الجلسة بكلمة مخلصة توجع فيها لما يلقاه
بنو الإنسان من صروف الحداث ، واستطرد فذكر مأساة أجاممنون
المسكين وما لقيه على يدي زوجه وحشيقتها الأثيم إيجستوس من غدر
وغيلة ، ثم أنحى باللائمة على هؤلاء البشر البائسين الذين يقولون إن كل
ما يصيبهم من خير وضرير هو من عند الآلهة ، وما هو إلا من عند
أنفسهم ... ولكن لا يفهمون !

ثم نهضت مينرفا ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين ،
فايدت ما قال أبوها سيد الآلهة ، وأثنت عليه ، ثم ذكرت أوديسيوس ...
وذلك التعس المسكين الذي تحطّفه هو وصحبّه البحر ، وقضى عليه دون

(١) Zeus أو Jove أو Jupiter

أقرانه جميعاً أن يشقى هذا الشقاء الطويل ، عند عروس الماء الفاتنا
كلبسو في جزيرة أوجيجيا ، ثمانية أعوام أو يزيد . ما ذنبه ؟ ما جريرته ؟
لماذا يُنقى هذا العبد الصالح في أقصى الأرض يا أبى ؟ خير عبادك
أجمعين . أذكر كم ضحى الأضحيات باسمك ، وقدم القرابين من أجلك .
وحارب أعداءك وجاهد شائريك القدر نى إلى أن كلبسو تحاول
جاهدة أن تستميل قلب البطل ، وأن تنسيه وطنه إيثاكا . . . يا للهول !
كيف يا أبته ! وهذه الزوجة التحسة بُنلوب ؟ ! بنلوب المحزونة المرزأة !
بنلوب التي صبرت وصابرت طوال هذه السنين على ما كرسها الدهر به
من بُعد زوجها . بنلوب التي حافظت على طهرها وإخلاصها ؛ أظل
هكذا سجيئة في قصرها المنيف الباذخ ، ويظل هذا القصر محاصراً
بخطابها المجانين من أمراء الأقاليم ؟ ! أبى ! يا سيد الأولمب ! ألا تدرك
برحمتك أوديسيوس ، وترده إلى وطنه ليهود هذه الكلاب التي ولغت
في حوضه ، وكادت تخوض في عرضه ؟ تداركه يا أبى ، تداركه بعطفة
واحدة منك ، وإنك على إنقاذه لقوى ممكن .

واستجاب لها سيد الأولمب ، وقضى أن يعود أوديسيوس إلى إيثاكا .
لكنه ذكرها برب البحار نبتيون ، وذكرها بما بينه وبين البطل من
ترات وثرات ، « سببها هذه الفعلة الجنونية التي فعلها أوديسيوس بواحد
من السيكلوبس (١) ، أبناء نبتيون إذ اقتلع عينه الواحدة التي كان ينعم
بسبيلها بزيئة الحياة . . . إطمئنى يا بنية وقرى عيناً . . . إننا نحن الأعوان ،
وسيرى نبتيون أنه لن يغلب الآلة مجتعة أبداً . . . »

(١) سيأتى ذكر ذلك في الكتاب العاشر من الأوديسة .

وشاعت الغبطة في أعطاف مينرفا ، وتضرعت إلى مولاها أن يُنفذ ولده هرمنز إلى جزيرة أوجيجيا ، فيأمر عروس الماء كابسو أن تُعدَّ مركباً عظيماً لأوديسيوس ورفاقه ، ليعودوا عليه إلى أوطانهم ؛ ثم ذكرت أنها ستمضي من فورها إلى إيثاكا حيث الخطّاب المآفين يحاصرون قصر بنلوب ، وحيث ابن أوديسيوس المنكود ، تلياك ، يشهد خراب مملكة أبيه ولا يستطيع أن يحرك ساكناً ، لصغر سنه ... « إنى سأحب إحساسه ، وأفتح عينيه على ما ينبغي ... سأجعله يخرج من هذه العزلة المعيبة ليبحث عن والده ، فإنه لم يعد طفلاً بعد ... » .

وانطلقت مينرفا فربطت نعلها السحريتين ، على قدميها الجميلتين ، وحملت رحلها العظيم الذي تقطر المنيا من سنانها ، ووضعت تاجها المرصع على رأسها الكبير ، وأطلقت ساقها للريح حتى كانت بعد لحظة على مقربة من قصر أوديسيوس ، فهبطت من السماء إلى الأرض ؛ وفي لحظة انقلبت فاتخذت شكل الأدميين ، وتخايلت في جثمان الأمير منتس (١) وطيلسانه ، ثم تقدمت فدخلت ردهة القصر الواسعة ، حيث اجتمع الخطّاب المجانين من أجل وليمة ، وتلففت يمينه ويسرة ، ورأت الفقى السادر الساهم الحزين تلياك ، وقد تعقدت فوق جبينه هموم ... وهموم ، وتغنصنت ملء أساريره آلام ... وآلام .

وما هو إلا أن لمحها تلياك حتى أخذه من هيبتها شيء عظيم ... فهب للقاءها مسرعاً ، ثم مد إليها يده مصافحاً وهو لا يعرف من هي ، وقال :

(١) يروى أن منتس كان بحاراً غنياً وكان يحمل هوميروس في رحلانه الواسعة من غير أجر ، ولذلك كافأه هوميروس بخلد اسمه بذكره في الأوديسة .

«مرحباً مرحباً بالغريب المسكرم! هلم فشارك في ذلك القري، ولنتحدث بعدها فيما أقدمك إلينا. مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً...»، ودأب نحو الصالة المزخرفة، وتبعته مينرفا، وفي يمينها ربحها الجبار الذي يقده من سنانة الشرر؛ حتى إذا بلغا العمود الأكبر الذي أسندت إليه مئات الرماح، والذي كان أوديسيوس يسند إليه رماحه وعدة حربه، تناول تليماك الرمح وأسندته بعد جهد، حيث برز بكل عظمته وكل جلاله بين رماح الخطاب الفاسقين. وتقدم نحو أريكة وثيرة منعزلة، وسأل مينرفا فاستوت عليها، وكاناً ثمة بمأمن من أن يستمع إليهما أحد... وأقبلت جارية فينانة رائعة تحمل طستاً وإبريقاً من الذهب، فصببت الماء على يدي الضيف ويدي تليماك؛ ثم مضت فأحضرت مائدة نسقت عليها الورود والرياحين، ونشط النادل (١) يحمل أطباق الطعام والفاكهة والحلوى، يأتي بها ملأى ويمضي بها فارغة... والندمان (٢) فيما بين ذلك يجذب الزق (٣) إليه ويسقي... ثم يسقي... وشرع الخطاب المجرمون بدورهم يلتهمون ما لذ وطاب من أكل وشراب... حتى إذا انتهوا شرع فيميوس نايه وانطلق يغنى.

وانتهز تليماك فرصة انصراف القوم إلى لهوهم وشرابهم فسأل الضيف قائلاً:

«يا أعز الأصدقاء! أرايت إلى أولئك الفساق؟ لو أن رب البيت

(١) النادل خادم المائدة.

(٢) الندمان ساقى الشراب.

(٣) الزق قربة الخمر.

هنا ، أكانوا يلهون لهوهم هذا أو يفسقون فسوقهم هذا ؟ كلا ! لقد كانوا إذن أسرع إلى الحرب ، منهم إلى ذلك الطرب ؛ ولكن ...
أواه ! ... أين هو ! أين أوديسيوس العظيم الذى انقطعت عنا أخباره ويثست من أوبته دياره . ولكن حدثني بربك من أنت ؟ ومن أى الأقاليم قدهت ؟ ومن هم رجال البحر الذين ألقوا مراسيمهم عند إيثاكا ؟ أغريب أنت أيها السيد ؟ أم كنت فيما خلا من الزمان من أصدقاء أبى وأحباؤه ؟

وقالت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين :

« ليهداً بالك يا بنى ، فإنى مجيبك على كل ما سألت . إنك ترى الآن منتس أمير (جزيرة الطافيان) البحارين ، وسليل انخيايوس الكبير . ولقد أبحرنا من جزيرتنا مُيممين شطر جزيرة النحاس من أجل ذلك المعدن الثمين ، وسفننا ملقمة مراسيها بالقرب من غابات (نيوس) . ولقد كنا ولا نزال من أحب ضيفان أبىك وأودهم إلى فؤاده ، فلما سمعنا بما حل به من شدة ، وببيته من لأواء ، إستوحينا آلهتنا نخبرتنا أنه لابد عائد إلى وطنه سالماً غانماً ، وأنه لابد منتقم من هؤلاء الفجار الأشرار . . . ولكن خبرنى بأربابك ، أفى الحق إنك لأنت ابن أوديسيوس العظيم ؟ إن ملاحك تشبه ملاحه ، وإنك لقريب الشبه منه جداً ، وإن هذا البريق الذى يشع من عينيك هو نفسه الذى كان يشع من عيني أوديسيوس ، يا للآلهة ! كم سمرتُ إلى أبىك قبل أن يشد رحاله إلى طروادة ! فهل يُقدر لى أن أُسمرَ إليه مرة أخرى ؟ إننى من

وقتها إلى اليوم لم أره ، وهو كذلك لم يرى ... ألا ما أشد شوقى إليه !
ما أشد شوقى إليه ! ... »

وشاع بارق من الأمل في نفس تليماك فقال : « ويحك أيها الصديق !
إننى أنا ابن أوديسيوس ما فى ذلك ريب ، والعالم كله شهيد على ذلك » .
ثم اختلطت الزرقة بالخضرة فى عيني ربة الحكمة وقالت : « على
رسلك يا تليماخوس ! إذن فما هذه الولا ثم وتلك السمبسط ؟ وهذا الزحام
من أين أقبل ؟ إنى لأُقلب ناظرى فى القوم فلا أرى شريفاً ذا حسب
يستأهل أن يُحتفى به أو يقام له وزن ! »

ويبتس تليماك ويحجب : « أيها العزيز . . . لقد هاجرت الفضيلة
من هناك فى إثر المهاجر العظيم ، وكأنها آلت ألا تعود إلا معه ! لو كان هو ،
تداركته السماء ! يُلقنها هؤلاء بنظرة واحدة تكفى لتزول منها الجبال ...
وأبناه القدا طمع العاديات فينا بطول نأيه . فيا للذوى (١) ! إننا لا ندرى
اليوم أين مقره ولا أيان مستودعه . ولو قد سقط تحت أسوار اليوم
لاجتمع الإغريق من كل حدب هنا . . . هنا . . . فى حاضرة إيثاكا
ليذرفوا دموعهم من أجله ، وليقيموا له نصباً عالياً رفيع الذرى شاهق
الأرواق (٢) ، وليسكتوا اسمه الكريم فى صحائف صدورهم بمداد أبدى من
التبجيل ... ولكن ! .. وا أسفاه ! ... لقد انتصر انتصار الأبطال ،
ثم مضى على وجهه فى فجاج البحار ، وغدونا لا تحمل العين بنظرة مفردة
منه ، ولا الأذن بلفظة عذبة من لسانه المبين ! ... تباركت يا آلهة
الأولب ! ماذا عندك من الأفضية المخبوءة لى ؟ الذئاب ! إى يا آلهة ،

(١) السفر والبعد عن الديار (٢) روق الجبل فته .

هذه الذئاب ! وحوش البرية التي اجتمعت من كل فج . . من الجزائر
المتناثرة في البحر ، ومن المدائن المترامية في البر... من ساموس ودلشيوم
وزاكنشوس ، ومن كل إقليم وكل مصر... كلهم يرابطون حول هذا
القصر ولا يستحيون... الفساق ! الأوشاب العرايب ! يطلبون يد
الزوجة الوفية... الأم المسكومة... بنلوب ! بنلوب الباكية المحزونة
المصدعة الكنز أوديسيوس الذي لا يقنى ! يطلبون يدها ولا يرحمون
وفاءها وبكاءها ولأواءها... فلا تستطيع أن تردهم لعجزها، ولا تستطيع
أن تجيهم وهي لا تدرى من أمر زوجها شيئاً... وهم طوال هذه السنين
يريقون نعاء أبى، فسكبين في أشربات وآكال ، حتى أفر الزرع
وجف الضرع ، وما أحسبهم مبقين على شيء... حتى على !

* * *

وانثال الحنان في فم مينرقا ، إذ هي تجيب الفتى المحزون بقولها :
« ويحك أيها الفتى ارحمناك يا بنى الصغير ! أواه ! لو أن أباك
هنا اليوم ليدؤد أولئك المناكيد ! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو
يلعب رعيه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له لسهاماً
مسمومة سقاها أبى بعد إذ رفض أن يُسممها بلوس بن مرمريس...
وهو لوصوها إلى أولئك المقاتليك لأبادهم... يارحمته ! إن أحدآ
غير الآلهة لا يعلم إن كان لا يزال حياً يرزق أو أنه قد ابتلعه اليم
أو عاجلته المنون... تلياك ! يا ابن أعز الناس على ! اصغ إلى ، واحفظ ما
أقول : إنك لست طفلاً بعد ! فلم لا تشمر عن ساعد الجرد وتبحث
بنفسك عن أبيك ! لم ترضى أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟

لم لا تكلمهم بنفسك في أمر أمك؟ ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن شاءوا؟ أليس أبوها أحق بهذا الشأن من كل رجل سواه ما دام أوديسيوس لم يؤب؟ لم يربضون هنا كسباع الفلاة يوهون ثروتك ويأكلون مالك ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك؟ استمع لما أقول يا تليماك! انسيء القوم فليجتمعوا لك، ولتسمعهم كلمتك، ولتصارح أمك إن هي أرادت منهم بعلا فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد. ثم انهض أنت يا ابن أوديسيوس! فابحث عن أوديسيوس. أعد ما استطعت من سفين وزاد، وميرة وعتاد، ولتبجر على بركة الآلهة، فلتذهب أولاً إلى (بيلوس) حيث الحكيم الباسل نسطور، ثم إلى أسبارطة حيث صاحب هذه الداهية منلوس (١)... أقنع بفلسكك إلى هذين فسائلهما أين مضى أبوك فقد تقع منهما له على خبر... ولتكن لك أسوة في الفتى الجريء المقدم أورست الذي قتل قاتلي أبيه (٢)، وفيهم أمه... بوركت يا أورست! بوركت يا أورست! هلم يا تليماك فقد تعود بأبيك حياً فيرد الشرف والمجد إلى هذا البيت؛ وقد تعود به ميتاً فترفع ذكره، وتقيم قبره، وتخلد في العالمين أثره! والآن، فلا نهض أنا إلى رجالى وسفنى. فلقد بعدت طويلاً عنهم... وكلى يقين يا بني أن تقدر نصيحتي وعلى الآلهة فلتتوكل! ، .

(١) زوج هيلين أخت بنوب والتي كانت سبب حرب طروادة .

(٢) أجاممنون .

وحين انتهت مئزقاهن هذا الحديث، حدجها نليماك بنظرة ثم قال: «أيها الصديق حياً، ويأبر الأوفياء سمعاً! لقد أيقظت في ضمير أ أنت أحييته. فألف شكر لك... أبدأ لن أنسى كلمتك: أنا ابن أوديسيوس! فلا تبحث عن أوديسيوس» وحاول الفتى أن يقدم لمحدثه هدية سنية تكون تذكاراً لهذا اللقاء. ولكن مئزقا شكرته وأبت أن تأخذ شيئاً، ثم قالت «إذا نجحت في مسعاك يابني فسوف أعود. وسوف أقبل أية هدية منك!»

ثم انطلقت ربة الحكمة، ذات العينين الزبرجديتين. ولشد ماذهل الفتى ووقف مسبوهاً مشدوهاً حين رأى هذا الأمير (منس) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نَسراً كبيراً يضرب الهواء بجناحيه، ثم يعلو ويعلو... فيكون في السماء ويغيب عن ناظره ا.

ولم يحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات المـلـحـة على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه؛ وجدد الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلهـاً يساعده، هو هذا الضيف الذي أرسل جناحيه وغاب في السماء.

وانطلق نليماك حيث جلس الخطابُ الفساق يستمعون إلى أغاني فيميوس، وحيث وجد أمه في الشرفة العليا تستمع هي الأخرى إلى تلك الأغايد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكي... وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء غناء لا يثير شجوها وشجنها... وتثور النخوة في قلب الفتى فيصيح بأمه: «علام العويل يا أماه؟ وما وقوفك هذا الموقف تسترقين الغناء؟ وما اعتراضك على المغنى؟ دعيه فليغنى ما يشاء،

فلقد غدونا سخرية القضاء وهزؤ المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس
وذهبت معه كرامة هذا البيت ، وإني اصحابها بعده . . . فادخلي ،
وليدخل معك قيانك ، ولتقمن جميعاً بشئون المنزل ولتلتصقن
إلى مغزلك ومنسجك ، ودعى كل ما عدا ذلك للرجال ... لي ... لي
أنا وحدي : سيد هذا القصر ! » .

وأثرت مقالة الابن في نفس أمه ، فاثنت مع قيانها إلى مخدعها
بالباطن العلوي ، حتى إذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس
ما شاء لها حزنها أن تذرف . أما تليماك فقد انطلق وسط القوم ونادى
بأعلى صوته : « أيها الفساق ! يا خطباء أمي اخذوا في لهُوكم ، وتمتعوا
قليلاً أو كثيراً ، فإذا كان الغد فاجتمعوا في الساحة الكبرى ، فإن لي
كلاماً معكم ... سأطلب إليكم أن تشدوا رحالكم من هنا ! أستمعون !
لقد طالما ألتفتنم لنا زاداً وعتاداً ... ألا فلتتمسوا الزاد والعتاد من عند
أنفسكم ؛ ولتقيموا أفراحكم وللائمكم في غير هذا المكان ؛ فإن أبيت
فإني مستعين بالآلهة عليكم ، ولتقتصر منكم السماء بما جرحتم (١) ... » .
وما كاد يفرغ من كلمته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجأتهم بهذا
الكلام الخشن الذي لم يعتادوه . ونهض أتينيوس من مجلسه وقال :
« تليماخوس ! لقد حق لك أن تحاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن ...
يا لشؤم اليوم الذي تتوجك السماء فيه ملكاً على إيثاكا ... عرش
آبائك وأجدادك ! » .

ويجب تليماك . « ليس أحب إلي من الملك حين تخلعه على السماء ...

غير أن أمره إليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس ... أما أنا ... فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر ... ولا غرو ... فإن هذا من حقى ! » .

وأجابه يورماخوس : « إن من حَقِّك أن تقول ما تشاء يا أخانا تليماخوس ... أما مُلك إيثاكا فالسماء وحدها تؤتيه من تشاء . ولكن قل لنا بربك من هذا الضيف الذى كان معك الساعة ؛ هل من قِبل أهلك أقبل ؟ أم إن له عليكم لَدَيْنَا ؟ إن أحداً منا لم يلقه ولم يره ، ولسكننا لحناءه من بعد ، عليه سيماء النجاة والجلال . من أين أقبل يا تليماخوس وفيم قدم ؟ ... » .

وأصلح تليماك من شأنه وقال : « أيها السيد يورماخوس ! إن يقينى أن أبى قد انتهى ... ولن تغريبنى هذه الكلمات المحسولة التى يتشدق بها المنجمون ... أما هذا الضيف ... ف... هو من أصدقاء أبى طبعاً ، وقد أقبل لمجرد الضيافة ، وهو الأمير منتس أمير أهل البحار وسيد تافوس ، وابن سيد هذا الزمان . الملك الشجاع أنخيالوس » .

قالها تليماخوس وهو أعرف الناس بضيفه ؛ ثم انثنى كل إلى مخيمه ، وراثنى تليماك إلى مخدعه بالطابق العلوى . حيث كانت مرييته يوريكليا تنتظره ، وتوقدله الشموع والسرُج . يالها من أنثى طيبة تخلص لمولاهما وتحنو عليه ... لسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها ... وللسرعان ما هيأت له فراشه الوثير ...

وقضى تليماك ليلة طويلة ساهرة ممتلئة بالهواجس والأفكار .

تليماك يجادل الخطاب

موهت أورورا (١)، ابنة الفجر الوردية مشرق الأفق، فهب ابن
أوديسيوس من مرقده، وأصلح من شأنه، وتقلد سيفه، ثم انفتل
مختلاً، كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه، وجعل يقلب عينيه في هدد
الخيام المضروبة التي تملأ حديقة القصر، والتي يشوى فيها أولئك الفجار
الأشرار خطاب بنلوب؛ وتلبث قليلاً في القلب لظي، وفي النفس كاوم:
ثم صاح بالملأ فهبوا مسرعين، وأخذوا ينسبون إلى الردهة الكبرى،
حتى إذا انتظم عقدهم والتأم شملهم تقدم هو متهدجاً نحو عرش أبيه، وفي
يمينه رمح ظامي إلى تلك الدماء النجسة التي تتدفق في أبراد تلك الذئاب،
وعن جانبيه كلباه الضاريان، وفي عيني كل منهما جمرتان. وكانت مبرقفاً
نفسها تصفي على الشاب سيماء النبل، وترقق فوق باصيته أمواهاً من
العظمة والمجد، لتقف منه الرعب في قلوب أعدائه. حتى لبهزم أن
يروا في تليماك ذاك الضرغامه المختال.

وما كاد الفتي يستوى على عرش آبائه الصيد، واجداداه الصناديد،
حتى نهض شيوخ يحمل فوق كاهله السنين الثقال، وتشتعل في رأسه
شبهة التجاريب وجلائل الفعالم. وكان هو يجبتوس بعينه... يجبتوس

(١) ربة النجر في الميثولوجية اليونانية وإحدى تابات أبولو وقائدة عربته
— الشمس — عند ما تبرز من أبواب المشرق.

المسكين الذى بعث بولده أنتيفوس فى أسطول عظيم وجند لجيب :
ليشارك فى حرب اليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ، وكروفر ،
وجال وصال ، وصمد وانتصر ... ولكنه ... وأسفاه ... لم يعد إلى
أوطانه فى العائدين ، بل صحب أوديسيوس فى رحلته المشئومة وراء
البحار ، حيث أكله السيكاوب الوحش فىمن أكل . وقف إيجيتوس
بين أبناء له ثلاثة ، أحدهم من خطاب بنلوب ، ثم قال :

« أيها الرفاق يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها أول مرة منذ أن بارح
أوديسيوس بفلاتات أكبادنا ندعى فنجتمع مثل هذا الاجتماع .
فمنذ الذى دعا إليه ، وماذا يبتغى ؟ أنفحة من نفحات الشباب ،
أم زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر من جيشنا الهالك يبشر
بعودته ؟ لينهض باركته السماء فليحدثنا عما دعانا إليه . »

وتناول تليماك صولجانه من قواسه ، وتقدم حتى كان فى وسط
القوم وجهر فقال .

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هذه الدعوة ! أنا تليماخوس بن
أوديسيوس ، صاحب هذه الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل ... لقد
دعوتكم لأشكو إليكم بؤسى وحزنى . لا لأزف إليكم بشرىات الجيش
المفقود الذى لا يعلم مصيره إلا زيوس ! لقد فقدت والدى ، والذ
الإيثاكيين جميعاً ، ثم أنا اليوم حبيس هذه الدار ، أسير هؤلأ الخطاب (١)

(١) يلاحظ القارئ أن الاجتماع كان عاماً ولم يكن قاصراً على الخطاب فقط ،
بل كان يضم جمهوراً من أهل إيثاكا كذلك .

الذين يطعمون في الزواج من والدتي، غير متقين في عرضي إلا،
ولاراعين لأبي ذمة، يذبحون السنعم^(١) ويُرِيغون^(٢) الزاد، ويعاقرون
ابنة العنب، ولا يبالون أن يهلك الزرع والضرع، ماداموا يبيتون
وبطونهم هلاى، ويبيت غيرهم على الطوى^(٣)...! لقد استباحوا
هناكل شيء، مادام لا أوديسيوس هنا فيردعهم، ولا حول لي.
فأغل أيديهم، ولا ضمائر فيصيخروا إلى قولي، ويرجموا ضعفي. ليذهبوا
من فورهم إلى جدي فيخطبوا إليه ابنته إن أرادت أحدهم بعلا، فهو
بها أولى وبشأنها أحق... إنكم ضعفاء أيها الإيثاكيون الأوفياء...
ولو استطعتم لرددتهم عنى غائلتهم.. فلقد طفح السكيل، وحزب الشر،
وعم الأذى... والآن، أوجه إليهم قولي..، ولن أستحي أن أصارحكم
مرة أخرى أيها الخطاب... اخجلوا إذن! ولتصبغ الفضيلة وجناتكم
بجمرة الحياء أذكروا ما عسى أن يعيركم به جيرانكم واخشوا قارعة تحل
عليكم من أربابكم.. واتقوا يوم تلقونهم تودون لو تلقفتكم الصواعق..
يا قوم! أستحلفكم بسيد الأولمب، بربة العدالة ثيميس، إلا ما تركتموني
أقضى البقية الباقية من أيامي في شقوتي وحدي! هل أجرم أبي مرة مع
أحد منكم فأتتم اليوم تأخذوني بحريته؟ فيم إذن مقامكم هنا؟ وفيم
إذن تستزفون آخر قطرة من خمرى دون مقابل؟ إذهبوا! إذهبوا،
ودعوا تليهاخوس البائس تحز في نفسه أشجانه، وتبرى اصطباره بلواه!..»

(١) الماشية .

(٢) يدسون .

(٣) الطوى الجوع .

ودق الأرض بصولجانه ، وانفجر يبكي ، وكأنها انهمرت دموعه في نفوس القوم ، فوجهوا وجوماً شديداً ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة ، حتى نهض أنتنيسوس آخر الأمر فقال .

« الله يياك يا تليماخوس ! لقد كنت بليغاً حقاً ! ولكنك لم تصب كبد الحقيقة حين فصرت علينا اللوم ، وحين لاملوم إلا أمك ! لقد خدعتنا جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تتم أربعاً ، إذ رسائلها تترى علينا ، تحي في نفوسنا الآمال ، وتذكي فينا الأمان ! لقد كانت وعودها تترادف كالبروق الخائب ، وتترأى كالسراب المضيّل اتخذت لها منسجاً وطفقت تعمل عليه وهي تغرر بنا ، وتقول : « أيها الإغريق : لقد قضى (١) أوديسيوس ما في ذلك ريب ، وكلكم تطمعون أن تفوزوا بزوجته ، ولكن أبي ليرتس رجل شيخ ، وهو يدب بخطى ويئدة إلى حافة القبر ، أفليس أحلق بي وبكم أن تنتظروا حتى أنسج له هذا الثوب لتكون منه أكفانه ، وحتى لا أكون مضغة في أفواه الإغريقيات إن تركته برغم ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاته ؟ . ولقد أجبنا سؤالها وتلبثنا طويلاً ، نرجو لو تفرغ من نسج هذا السكفن ، بيد أنها كانت تنقض بالليل ما تنسجه بالنهار ، وهكذا دواليك ، ظلت تخادعنا تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى وصيفاتها ، إذ حدثتنا به ، واستطعنا أن نضبطها وهي تنقض غزلها أنكاثا في ضوء المشاعل ، في جنح الليل ، فأجبرناها على إتمامه بالرغم منها ... هذه هي الحقيقة يا قوم ! والآن ! فإرسل أمك أيها الفتى إلى أبيها ، وليختر لها من بيننا بعلا ،

أو فلتختر هي لها بعلا... أما إذا عكفت على مكرها بنا ، فلتفق أن شيئاً منه لم يعد يجوز علينا ، مهما ظنت أنها أحق من تيرو ، أو أكرس من ألكميناء ، أو أبرع من ميسينيه (١) ... حسبها ما خدعتنا ! وإنا نقاسمك يا تليماك أننا لن نبرح عاكفين على ما شكوت ، من ذبح لنعمك ، وإراغة لزادك ، ومعاقرة لخيرك ، حتى تختار لنفسها ؛ أو ... فلتخرب هذه الدار ، ولينضب معين خيرها .

وشاعت الكبرياء في كل جارحة من جوارح تليماخوس فقال « أنتينوس ! ماذا أصابك ؟ كيف تسألني أن أقهر أمي التي غذتني ونشأتني على غير ما ترضاه ؟ كيف أطردها من قصر بعلمها الذي لا يعلم غير الله إن كان حياً أو ميتاً ؟ لبس ما أجزىها به ، ولشد ما أغضب أبي وأثير غضب الآلهة عليّ ! إن فعلته ! ! إنها ستدعو إيرينيس كي تنتقم لها مني ، وستنصب على لعنات الناس جميعاً ! ؟ ويحك أيها الرجل ! لن أقولها أبداً ... بل اذهبوا أتم فسلوها ما شئتم ؛ فإما أجابت طلبتكم ، وإلا فانصرفوا غير مأجورين ... اذهبوا ... فأولموا ولا تمك في غير هذا القصر ، وأريغوا من زادكم ، وأنفقوا بما تحبون ! ! أما إن رأيتم أنه أحل لكم أن تأكلوا مال غيركم ، فإني سأهتف أبداً بالآلهة أن تقتص لي منكم . فهي محيطلة بكم ! ... »

* * *

وما كاد تليماك يفرغ من مقالته حتى أرسل سيد الأولمب نسرين

(١) من ربّات الفنون عند اليونان .

عظيمين طفقاً يضربان الهواء بخوافيهما ، ثم جعلاً يُدَوِّمان فوق الملاء
ويقدحان الشرر من أعينهما ... نذيركى ردى ، وصيحة منون . ثم
انطلقا نحو المدينة وغابا فى ظلام البعد .

وشده القوم ، ورِيعت أفئدة الخطاب . وأخذوا يتخافتون .. ثم
نهض فيهم القديس هاليتير بن نسطور المعروف بورعه وصدق
نبوءته ، فقال :

«أيها الناس ! يا أبناء إيثاكا ! اسمعوا وعوا ! ليحذر الخطاب الغافلون
ما يخبئ لهم الغيب من شرأ وشك أن ينقذف على رؤوسهم ! إن أوديسيوس
حى يرزق ، وإنه عائد إلى وطنه ، بل إنه لم يغيث السير إلى هنا ! وإنه ليحمل
الموت الأحمر إلى خصومه ، والخير الأخضر إلى مواطنيه ! أنا هاليتير ،
قد يسكم الذى لا يكذب قد أنبأته قبل أن يبحر إلى طروادة بذلك النبأ
وأنه عائد إلى وطنه بعد أن ينتصر على أعدائه ، ويذيقهم ضعف ما صنعوا
ولن يجديهم أن يتوبوا أو يندموا ... وليأتينكم نبؤه بعد حين ! » .

وسخر القوم منه واستهزأوا به ، وقام يوريماك يرجمه بهذه الكلمات :
« انقلب إلى دارك أيها العجوز الخرف ! هلم إلى أحفادك الكسالى
فتنبأ لهم بما ينبغى أن يأخذوا حذرهم منه ! لقد قصف المنون
عود أوديسيوس الفينان . فليتة قصف عودك كذلك ! طير ؟ ! ها !
إن الطير طالما يستنسر فى سماء إيثاكا ؟ إن أكبر الظن أنك تطمع فى
منحة من ابن مولاك تليماك ... ولسكن اصغ إلى ؟ ! تسكن لك منحة منا
إن تنبأت له عما يكاد يذهب بك وبه من بطشتنا إن لم يختر لنفسه !

أسمعت ؟ لقد نصحننا له أن يرسل أمه إلى بيت أبيها ليختار لها السكفء الذى ترضى ، فلم ينتصح . وأنا أرسلها كلمة صريحة فى غير مين ، إننا لن نبرح عاكفين على ما نحن فيه من هذا الخير ، حتى تخضع بنلوب ، فتمضى مأجورين .. وثق ، أيها الشيخ المهيب الخرف أن نبوء أنك لن تفزعنا ، بل هى تضاعف سخطنا عليك ، وبغضاءنا لك ... ألا ما أطيب الإقامة هنا ؟ ! لتزدد بنلوب عناداً ، فإننا لا نزداد إلا جلاداً ... » .

ونفض تليماك فقال :

« على رسلك يا يوريماخوس ! وعلى رسلكم أيها الخطاب جميعاً ... لقد أرسلتها كلمة حق فلم تستمعوا لها ! أبدأ لن أضرع إليكم مرة أخرى ... الآلهة بنى وبينكم ، ، والإغريق أجمع أعلم بأمرى وأمركم ؛ غير أن لى طلبه إليكم بوى لو أنلتمونى إياها ... فهل تسمعون بمركب وعشرين بجاراً فأقلع من فورى هذا إلى بيلوس ثم إلى أسبرطة ، عسى أن أسمع خبراً عن أبى ، أو أتلقف نبوءة من سيد الأولمب الذى بيده ملكوت كل شيء ... إنى إذا أيقنت أن أبى لا يزال حياً فقد أوفق إلى العثور به ولو بعد حين ، أما إذا استيقنت من هلاكه فإنى عائد إلى إيثاكا ، فقيم له نصباً يتفق وهذا المجد الباذخ والذكر التليد ، ثم يكون لى مطلق الحرية فى منح أحدكم يد أى فتكون زوجته المخلصة إلى الأبد ، بعد أن أتم لأبى كل المراسم الجنائزية ، لتقر روحه العظيمة ، وتسكن إلى ربها فى ظلال هيئذ (١) » .

(١) إسم الدار الآخرة فى الميثولوجيوهى حادس دارلوتو . ١

وكان في المجتمعين رجل تبدو عليه مخايل النبيل ، وفي رأسه جمرات المشيب ، تهالك على نفسه حين وقف ينافح عن تليماك ، فإذا هو الشيخ منطور ، الذي كان أوديسيوس قد استخلفه على أهله قبل إبحاره إلى طروادة ، لصداقة قوية كانت تجمع بينهما ... قال منطور :

« إسمعوا إليّ يا أهل إيثاكا ! ما لكم اليوم قد نسيتم آلاء ملككم أوديسيوس عليكم ، وهو الذي كان يرعاكم كأم ، ويغدق عليكم من فيضه العميم ؟ ما لكم قد تقاعستم دون هؤلاء الخطاب الذين يذهبون بخير مولاكم ويأكلون مال ابنه بغير الحق ، وهم قتل موأنتم كـ... آمين مطمئنين ، لا يرهبون أوبة مفاجئة من البطل الشريد ... ؟ » .
وهاجت كلمة الرجل كوامن الخطاب فهب أحدهم وهو ليوكريطوس .
يقول :

« رويدك يا منطور ! أيها الثرثار العجول ! كيف تجرؤ أيها الرجل فتثير الشعب على الخطاب وهم سادتك ؟ هل أعجبتك كثرتهم يا منطور ؟ إذن فأبشر بعجزهم دون ما ابتغيت ، وثق أن ملك إيثاكا نفسه لن يستطيع معهم شيئاً إذا حاول إخراجهم من بيته هذا ، إذا قدر له يوماً أن يعود ، إنه إذا فعل فسيندوق وبال أمره ، ولن تنال منا حماقاتك ولا نبوءات هاليتير ، ونبلوب نفسها لن تسر بأوبة أوديسيوس ؛ ولكن اسمع أيها الشيخ ، إنه لن يضيرنا أن يذهب تليماك خوس فيندرع البحر باحثاً عن والده ، وله أن يتخير من السفن ما يشاء ... » .

وتفرق القوم ، وأسرع الخطاب إلى خيامهم ، وانقلب تليماك إلى

شاطئ البحر ، حيث وقف فوق صخرة ناتئة يناجي مينرفا :
 « أيتها الربة المباركة ! يا إلهة الحكمة مينرفا ! يامن كنت أمس
 خفيفة مكرمة تحت سقف هذا البيت ؛ أصلي لك ، أنا تلياخوس النعس ،
 وأبتهل أن تباركينى وتسددى خطواتى ، وأن تكونى رائدى الأمين فى عباب
 هذا البحر ، وأن تشدى أزرى وتكونى معى إلهاً على هؤلاء الفساق
 العرايب ، وأن تشرقى فى ظلماتى البعيدة ، وأن تحلى أمنأ وسلاماً على ...
 يا مينرفا ، يا مينرفا ، إستجيبى يا ربة العدالة ... » .

واستجابت مينرفا ، وأقبلت فى صورة الأمين منظور حتى كانت قبالة
 تلياك ، ثم شرعت تكلمه كلمات هن أروح من أنفاس الفجر ، وأندى
 من نسيمات الورد ، وأعذب من قطرات الندى :

السلام عليك يا تلياخوس ! السلام عليك حين تثبت أنك ابن
 أوديسيوس الوفى وفرع دوحته الوارف ، وحين تبدو فيك بدوات من حوله
 وطوله وقوة بأسه ، وحين تقلع على بركة السماء وفى عناية الآلهة ورعاية
 سيد الأولمب ؛ فى رحلة لن تكون عبثاً ... أنت ابن أبيك يا تلياك ..
 أتى بك من بنلوب ... وآية ذلك هذه الروح القلقة التى تشيع فيك من
 أجله ، هذا الجبروت الذى هو نفحة منه ، وذلك الصوت الجبار الذى
 يتلجج فى فمك كأنه فيض من لسانه ، وذلك الذكاء الوقاد الذى هو
 قبس من ذهنه العظيم ... بشراك يا تلياك ! لا يحزنك خبال أعدائك
 فقد أوشك القضاء أن ينقض على رؤوسهم فيحطمهم ... أنا .. أنا هذا
 الشيخ المهدم ، صديق أبيك وأمينه منظور ، سأكون معك ، وسأخدمك ،

وأسهر عليك ، وأفديك ، .. لكن لتمض الآن فلتعد للرحلة ما هو
حسبها من زاد وعتاد ، ونخبة أولى بأس من رجالك الأقوياء ،
سأنتقي أنا نفسي اشد هم مراساً وأصدقهم عزيمة ... إمض على بركة
الآلهة ... إمض ... لا وقت لدينا فنضيعه ... هلم ... » .

وسكنت مينرفا ... ولكن حرارة كلماتها أشرقت بالآمال في نفس
تليماك ، فذهب وقلبه يخفق بألف أمنية ... إلى القصر ... حيث رأى
الخطاب يذبحون ويعدون نار الشواء ، وحيث قفز أتينيوس للقائه
ساخراً مستهزئاً :

« تليماك ! ناشدتك الآلهة إلا ما شاركتنا غداءنا واطرحت بغضائك
هنيئة ! هلم ! اخذ نصيبك من هذا الشراب أيها الصديق . لا يشغلك أمر
هذه الرحلة ... فقد أمرنا أن يعد لك الآخيون سفينة عظيمة وقدرأ
من الزاد كبيراً ، وعصبة من الرجال أولى قوة ... وسنبحر قريباً
فندرع البحار وراء أبيك . هلم ... هلم ... »

ولكن تليماك عبس عبوسة قائمة ثم قال :

« أتينيوس ! إليك عنى فما أستطيع مشاركة خصومي السفلة غداءهم .
ولا لي قلب فأشرب النخب من يدك ! لا بورك لكم هذا الذبح الذي
لا يحل لكم ، والذي استبحتموه من غير حق ، إذ أنا طفل أحبو ...
أجل ! لا أستعجلن لكم الخراب ولاسعين في حتفكم ، ولاذهبن إلى
بيولوس فأتنصر إذا عزى النصر في إيثاكا ! أيها الذئاب ! حتى سفائتي
وعتادى تنكرونها على ! » .

وكان اللثيم قد أمسك يمين تليماك كالمصافح المستهزئ ، ولكن تليماك جذبها ساخطاً ، وترك الكلاب تغمره وتلتهز ، وتستهنى بهذا العون الذى يرجوه من بيلوس ، وتلك الجحافل التى يأمل أن يجردها عليهم من أسبرطه ... « ومن يدري ؟ فقد يهتدى إلى إيثير المشمرة ، فيجد فى أعشابها بقلة يدس لنا منها فى كئوسنا فتريحه منا ... » ... بل من يدري ؟ فلقد يتلعه اليم كما ابتلع أوديسيوس من قبل ، وتكون هنالك الطامة ! إنا إذن نقسم هذا المتاع وتلك الضياع ، ثم نمهر أحداً الذى تختاره ببلوب بعلا لها . بهذا القصر المنيف ! ... » .

وتركهم تليماك ، ومضى قدماً إلى غرفة أبيه بالطابق العلوى ، حيث كنوزه التى لا تقدر ، من عدة للحرب وذهب مدخر ، وخمرة معتقة ، وروح اذفر ، وخزوديباج ، ودروجوهر ، ومغافر (١) أعدت لليوم المنتظر . يوم يعود أوديسيوس فيظفر ويقهر ، ويطهر بيته من ذاك النفر .. ووجد عندها حارسها يوريكلياً فصاح بها :

« ربيبة ! يوريكلياً ! هيا ! صبي من خمرى فى زقاقى ! من مدامتك التى ادخرتها لأبى ... لا ... لا ... ليس من صفوتها ياربيبة ، احتفظى بصفوتها له ، املئى اثني عشر دنا ، وهى عشرين جوالقاً من دقيق ، هيا .. أعديها كلها لتحمل إلى سفينتى بعد أن تنام الملسكة ... لا يعلن أحد بأمر رحلتى إلى بيلوس وأسبرطة . . حتى ولا أى أسارحل ثمة .. سأسمع أخبار .. »

وصمت تليماك هنيهة .. واستعبرت ربيبته يوريكلياً ، وأرسلت هذه

(١) المغفر والمغفرة زرد يلبه المحارب تحت القلنسوة .

الكلمات على أجنحة من الحنان ، وفي أنسام من الرحمة :

رويدك يا بنى ! أى سفر وأى نوى ! ؟ لقد انتهى أوديسيوس وانتهى معه كل شيء ! وهو اليوم رفات سحيق فى رمس عميق فى بلد لا نعرفه !
أتسافر يا تليماك ليأتمر هؤلاء الذئاب ، وقد يسلطون عليك من يغتالك ،
تم يستصفون كل مالك بعد ذلك ؟ حاشاك يا بنى ! لتبقى معنا نحن الذين
أحبناك واصطفيناك اقيم تذرع عباب هذا البحر ولا رجاء لك فى مطمح
ولا ثقة لك فى شيء ؟ » .

وأجاب تليماك فى رفق :

« رويدك أنت يا ريبيدة ! إني لم أعزم شيئاً من تلقاء نفسى ... إنها
السماء هى التى توحى إلى ! ولكننى أستحلفك بكل أربابك ألا تقضى
شيئاً مما اعتزمته على أمى إلا بعد أحد عشر يوماً أو اثني عشر يوماً من
رحيل ... فإنها لو علمت بسفري لأظلمت فى عينيها مباهج الحياة
وذهبت نفسها على حشرات » .
وأقسمت يوريكليا بكل أربابها ، وانثنت تهىء دنان الخمر وأحمال
الذقيق .

أما مينرقا ! أما ربة العدالة والحكمة الخالدة ، ذات العينين
الزبرجديتين ، فقد يمت شطر البحر وقصدت إلى المرفأ حيث لقيت
نويمون بن فرونيوس سيد الملاحين ، وسألته إحدى جواريه المذشعات ،
فأعد لها واحدة من خيارها . وما كادت ذكاء تلج فى خدر الأفق ،
وما كاد الشفق يبهى فيصبغ بدموعه جبين السماء ، حتى كان الملاحون قد

هياؤا القلوع ونشروا الشراع ، وخبروا مجاذيفهم وحمّلوا عددهم ،
وتزودوا من السلاح ؛ وكانت ميرفانفسها تستحشهم ، فسرعان أن تهادت
السفينة ، ورقصت نشوى فوق هامات الموج .

وذهبت ميرفا ، في صورة منظور وفي طيلسانه فأشرفت على عصابة
الخطاب ؛ وتمت بكلمات فانتشر الظلام فوق خيامهم ، ولعب النعاس
ملء جفونهم ، وكانت الكيؤوس لا تزال تقهقه في أيديهم ، فسقطت عن
غير عمد لتسقى الأرض من تحتهم شرا با !

وظفّقوا ، تحت طائف من الكرى ، ينسلون إلى خيامهم ...

وأدلفت ميرفانحو القصر لتلقى تليماك :

« تليماك ! هلم ! البدار ! استهنا وكل رفاقك في الفلك المشحوف
ينظر ونك ! هلم ! يجب ألا نضيع وقتنا سدى »

وهض تليماك ! وسارت ميرفا ، وسار هو في أثرها حتى كانا عند
سيف البحر ، وحتى أشرفا على السفينة .

« مرحباً يا رفاق ! هلموا فاحملوا هذه الدنان وتلك الاحمال إلى

السفينة ! لا أحد يعلم أمر رحلتنا حتى ولا أمي ! إلا ريديتي ! »

وامتثل الملاحون أمر سيدهم ، ثم تقدمت ميرفا فركبت السفينة
ومن ورائها ابن أوديسيوس ، وجلست هي عند الدفة ، ونشط البحارة
فيأوا المركب ، وحدثت المغرب ربة العدالة بعينها الزبرجديتين فهبت
النسمات رُخاء ، ورقصت تحتها الأمواج من طرب ، وانتصب تليماك واقفاً
يحث رجاله ؛ واضطرب الماء تحت السفينة واصطخب ، وصب القوم

دنانا من الحجر تقدمه للألهة وقربا بالمينرثا وتحيه لا تبعد !
واحلولك الليل وتدجى غيبه ، ثم انجاب ظلامه عن فجر مين !

بيلوس

تليماك بسائل نسطور عن أبيه

برزت ذكاء من لجة المشرق فصبغت آرادها (١) الذهبية جين
الأفق النحاسي ، وسكبت الأضواء الجميلة لتهدى إلى السبيل السوى ،
والقت السفينة مراسيها لتلقا بيلوس ، مدينة نليوس (٢) ؛ حيث وجدوا
القوم على الشاطئ ، يُقرَّبون القرايين باسم پوسيدون ، ذى الشعر
اللازوردى ، وقد جلسوا فى صفوف تسعة ، وفى كل صف خمسمائة
شيخ عتيد . وذبحت كل فئة قرايينها : تسعة عجول سمان ذوات خسوار ،
فأكلوا الخوايا (٣) ، وضخوا بالسواعد والأنفاز ؛ ثم أقبل تليماك وبين
يديه مينرثا تنهذى وتقول :

« تليماخوس اتشجع يا بنى ، ولا تجعل للحياء سبيلا إلى نفسك ،
وتقدم إلى أمير هذه البلدة الصنديد . نسطور ، فقد تكون لديه أخبار
عن أبيك ، وقد يحلو لك الشكوك التى تخامرك ، وثق أنه لن يخفى عليك
من أمره خافية ، فتمد تقدمت به السن ، وهو اليوم أحكم الناس . »

(١) أشعة الشمس وذكاء هى الشمس .

(٢) نليوس هو ابن پوسيدون (نبتيون) إله البحار وألد أعداء أوديسيوس

(٣) الأمعاء وما إليها وأحوار صوب العجول .

ويقول تليماك :

« أواد يا منطورا ! ما أحسبني أقوى على لقاء الرجل ، وأنا من تعرف من قلة الشأن ورقة الحال . . أنا الفتى الحَدَث . أنسى لي بقاء الشيخ ذى التجارب ؟ »

وتجيبه ذات العينين الزبرجديتين .

« لا عليك يا بني ! إن هـى إلا كلمات تقولها وعلى الله قصد السبيل ! العالم كله يعرف أنك نشأت في ظروف قاهرة ما كان لك بها يدان ؟ »
ودلفت مينرفا ، ودلف في إثرها تليماك ، حتى كانا في وسط القوم ، وحيث جلس نسطور العظيم بين أبنائه ، وحيث اشتغل أهله بالشواء ، وهب الجميع للقاءهما . وتقدم ابن نسطور الأكبر ، بين ستراتوس ، فصاحفهما هاشماً ، وتلقاهما باشماً ، وأجاسهما فوق القراء المباشوث إلى جنب أبيه . وأخيه الأصغر تراسميديس ، وقدم لـكل مُضغَة من حَوِيَّةٍ ، ثم كأساً ذهبية من شراب كريم ، تذوقه قبل أن يحيى به ، ثم قال مخاطباً مينرفا .

« مرحباً بك أيها الضيف المسكرم ! لقد شرفت في عيد نبتيون ، وبودنا لو أفرغت باسمه ما في هذه الكأس من شراب صلاة له وزكاة ! ونرجو لو أشركت في التقديم زميلك ، فما أحسبه إلا محبباً للآلهة ، خائباً لها »

وتبسمت مينرفا ، وتناولت الكأس في وقار ، وأرسلت هذه الصلاة باسم رب البحار :

، نبتيون العظميم تقدس اسمك ، وأحاط بالدينيا ملكوتك .. يامنقذ الضالين ومغيث المنصرعين ، أدرك بلطفك التائبين إليك . ونجهم من ضلالتك (١) ببركة أسمائك ، مولاي وتقبل من نستطور ومن ذريته ، وتقبل من جميع أهل بيلوس أضحياتهم ، ثم تفضل يامولاي فسد خطي تليماخوس وخطاي إلى ما أفلحنا فرق هذا المركب الشاحب من أجله ... آمين آمين ! .»

وتناول تليماخوس الكأس بدوره ، ثم أفرغ ما فيها ، وتمتم بصلاة قصيرة ؛ وما كاد يفرغ حتى تفرق المدعوون من أهل بيلوس طاعمين شاكرين ، إلا مينرفا وصاحبها ، وإلا نستور وولديه ... ثم قال نستور :

« أما وقد فرغنا من غداثنا فماذا أيها الوافدون ؟ من أنتم ؟ ومن أين حملكم هذا البحر ؟ أتجار أنتم ؟ أم قرصان تملأون الشطآن ذعراً وفرعاً ؟ »

واستجمع تليماك شجاعته ، ونفخت فيه مينرفا من روحها ، وتكلم فقال :

« على هينتك يا ابن نليوس العظميم ، يا غر هيلاس ؛ إني أنا ابن صديقك وصفيك أوديسيوس ، سمعت إليك من أقصى الأرض أسمائك عن أبي ! صفيك وخليماك الذي صال معك تحت أسوار إليوم ورجال ، ثم لا أحد يعرف من أمبائه اليوم شيئاً ! لقد انتهت إلينا أخبار الأبطال اليونانيين جميعاً وعرفنا مصارعهم ، إلا إياه ... أين رقد ؟ وأنسى

ثوى؟ وأيان قرت رفاتة إن كان قد شالت نعامته (١) ، أو مضى على وجهه في الأرض إن كان لا يزال حياً ... إن الآلهة نفسها لا تشاء أن تدلنا من أخباره على أثر . ولشد ما أخشى أن يكون قد ثوى هناك .. في أعماق مملكة نبتيون ، مع الجميلة امفتريت (١) . لذلك سميت إليك يا نخر هيلاس كيما تحدثني عن أبي ، وكيما تذكر لي بعض ما تعرف عما ألم به إن كنت قد شهدته ، أو تقص عليّ ما عسى أن تكون قد سمعته من بعض حاشيتك التي تجوب هذه البحار . قل . تحدث يانستور ، ولا تخف عني شيئاً ... قل ... إني أستحلفك بكل ما كان يفتديكم به في ساحة اليوم أن تقص على أنباءه . لقد كان يحبك ويمحلك ويوقرك ، فاجز ابنه بعض ذلك »

وكانما رأى نستور حلماً لذيذاً فقال :

« ويحك أيها الصديق الشاب ! ما أروع ما هجت ذكريات الماضي المفعم بالأشجان ! ذكريات السادة الذئادة والمغاوير الصناديد ، الذين سقطوا تحت أسوار اليوم العتيقة فأرووا ثرى الميدان بدمائهم ، وسطروا آية المجد بمهمجهم ! إيه اخيلوس ياسليل الآلهة ؛ وبتركوس يامعجز الأنداد والأقران ؛ وأجاكس ! أجاكس الذي كان أئمةً وحده القدر قدوا جميعاً تحت قلاع بريام الجبار الشيخ ! ورقد معهم ولدى آه ياولدى ! أوله ياقطمة قاي وفلذة كبى وثمره حياتي وسوددى ! يا أشجع الشجعان يا أنتيلوخوس ! أية قصة وأية مأساة ؟ ! يا رعاك الله أيها الشاب

(١) شالت نعاوته أى مات .

(٢) . ملكة الجار وزوجة نبتيون .

المحزون ! أنسى لى أن أقصر عليك أحداث سنين تسع كانت هموماً متصلة
واحزاناً فاجعة وآلاماً تتسعر فى جميع القلوب !؟ أى لسان ذرب يقص
غلا يملّ ، وأى فم رطب يحكى وما يعي ؟ ألا لو أنك أقتت تسمع
الأعوام الطوال فما أحسب القصة تنتهى ! القصة التى لم تُجْدِ فيها شجاعة
الألوف لولا خدعة أوديسيوس وحياته ، وطول أناته وهمته !
ولكن حدثنى بربك أيها الشاب : أنك حقاً لولد أوديسيوس ؟
أجل ! إنك بملاحك وقسماتك غصن دوحتك ، وإنك بكلماتك العذاب
عسلوج أرومته ! أوه ، أوديسيوس ! يارفيق الشباب وحبیب القلب !
لشد ما تغتالج فى النفس تلك الخاتمة الهائلة التى قضاهها على الأرجيف (١)
سيد الأولمب ، بعد انتصارهم ، وقبيل أوتهم ! لقد حنقت مينرفا على
ولدى أتريوس إذ تنازعا فقال قائل منهما نضحي لربة العدالة عند سيف
البحر تلقاء اليوم ، ولكن الآخر أكنى ، وأبجر على أن يقدم لها القرابين
فى أرجوس ! يا للنعسين ! أجامنون البائس ومنلوس المسكين ! إنهما لم
يصليا لمينرفا فخاق بها غضبها ، وعشاً حاولا بعد ذلك أن يترضياها !
اختلف الآخران ونام الجنود حتى مطلع الفجر ، ثم أقلع نصف الأسطول
فى مرج ثائر مصطنع من غضب الآلهة ، بقيادة أجاممنون ، وماهى
إلا سريعات حتى هدا أليم ونام الموج ، وبلغنا تدوس فذبحنا الأضحيات
باسم الآلهة ، وسبحنا رب البحار نبيون ، فنطامن العباب ، ولكننا ما كنا

ندرى ما تنسج، يدجوف (١) حولنا ، بل لم يكن يخامرنا أقل شك فى وصولنا إلى الوطن سالمين . ذلك أن أوجه النظر اختلفت ثمة ، ونشب بين القادة نزاع فى رأى : هل يقلعون من تندوس ، او يتلبثون بها حتى تنجلي العاصفة التى شرعت تهب فى عنفوان وشدة ؟ وهنا ، أثر ملاحم ايبك أن يعودوا أدراجهم بسفائهم إلى طرودة ، وذلك بحاملة للقائد العام . بيد أنى لم أر هذا الرأى . بل فررت من العاصفة بسفائى إلى جزيرة لسبوس ، ولحق بناديوميد ، ثم وصل منلوس فى أثره ؛ وأرسينا ثمة ؛ وانتظرنا إذناً من السماء ، أو قل بارقة من الآلهة ، نقلع بعدها . وكانت العاصفة تشتد وترقص فوقنا ومن تحت أساطيلنا ، فلم نرُ بداً من المجازفة وإلا تسكرت جوارينا على الصخور وفوق الأواذى (٢) ، ... باللمول ! لقد بلغت قلوبنا الحناجر قبل أن نصل إلى جير يستوس احمداً لك يانبتيون وثناء عليك ؛ وقلّ أن نذبح باسمك ألف قربان من كل عجل جسد وكبش حنيد ا ولقد فاز ديو ميد فوصل بجنوده سالماً إلى أرجوس ، وكذلك فاز الجبابرة الميرميدون ، جنود أخيل ، بقيادة شبلة العظيم نيو بتوليموس ، فوصلوا إلى أوطانهم غانمين ، ووصل من بعدهم فيلوكتيتيس ... كذلك وصل أجاممنون وليته لم يصل الاريب أنك سمعت بما حاق به ا لقد قتله المجرم إيجستوس (٣) ، ولكنه دفع روحه ثمناً لفعلته ؛ إن العيش لم يطب لابن أجاممنون حتى ثار لأبيه ، فانقض كالصاعقة على قاتله وغاله بيده !

(١) زيوس أوجوبيت كما يسميه الرومان وهو كبير الآلهة

(٢) الأواذى الأمواج مفردة أذى

(٣) يجد انقارىء شرح ذلك فى كتابنا التالى (أشهر المذاهب المسرحية) إن شاء الله

يا للفخار أيها الصديق الشاب حين تنتقم لأبيك فتسجل اسمك في سجل الخالدين ! » .

وشاع العجب في نفس تليماك ، فقال :

« ويك نسطور ! إنه سيكون انتقاماً عادلاً بحق السماء ، وستغني الأجيال القادمة بقصته ، وسيرويه الخلف عن السلف . كم ذا وددت لو مكنت لي الآلهة في أعناق هذه العصابة الفاجرة من الخطاب الآثمين الذين يُدِلُّون عليّ بعددهم وعددهم ، والذين يقذفون في وجهي بالإهانة تلي الإهانة ... وأأسفاه ! ليت شعري لم لا تؤيد الآلهة حقّي على باطلهم ؟ لقد نفذ اصطباري وكنت حيلتي ... فماذا أعمل ؟ ،

وقال نسطور : « أيها الصديق ، لقد أذكرت مني غافلاً ... ويحك تليماخوس ! لقد تناقل الناس ما كان من حماقة هذه الطغمة التي تستبيح عرض أوديسيوس ، وتستزف ثروته ... ولكن ، من يدرى ؟ هل آمنوا أن يعود يوماً فيسأصل شأقتهم ، ويُبدل منهم ، وتكون له الكرة عليهم ؟ لقد كان أبوك العظيم حبيب مينرفا وصفيفها ، وهي لا بد آخذة بناصرك كما أخذت بناصره من قبل ، وهي لا بد مدركتك وشيكا ، وحائلة بين أعدائك وأعداء أبيك ، وبين هذه الزبيجة المجرمة »

ويجب تليماك :

« ألا من يدرى ؟ إنه لا أمل لي في ذلك قط ! آه أيتها الأحاسيس الغربية التي تجيش في قلبي ! الآلهة فقط هي القادرة على تحقيق ذلك بمعجزة ! »

وهذا ، حدثته ميثرا بنظرة هائلة من عينيها الزبرجديتين ، وقالت له :
 « تلميذا خيس ! أية كلمة هائلة زل بها لسانك ؟ ما أيسر على الآلهة
 أن تقول للمستحيل كن فيكون ! أنا نفسي كم تجشمت أهوالا في أسفاري
 ثم عدت بعناية أربابي سالماً إلى أرض الوطن ؟ بل كم من أناس ظنوا
 أنهم نجوا من الموت في يم غشيمهم بموج كالظلل ، فلما وصلوا إلى البر
 حاقت بهم منايهم كما حاقت به منيته أجاممنون ، حين خر صريعاً بيد
 إيجستوس الأثيم ، ويد زوجه الملزمة (١) الغادرة الفاجرة الزنيم !
 حقاً ، إن الآلهة لا تملك أن تحول بين المرء وبين المنون ما دام قد جاء
 أجله ، مهما يكن حبيبها وأعز عبادها عليها . »

وعبس تليماك عبوسة خفيفة ، وقال :

« مهما يكن من الأمر فلندع هذا الآن يا منطور ! إنني لا أمل لي مطلقاً
 في عودة أبي ، ولكنها أفضية من السماء ومقادير أن أذرع وراءه البحار ،
 وأن أعود فأسأل نحر اليونان نسطور ، اللبيب الأريب الذي حكم كاهو
 مأثور أجيالاً ثلاثة ، والذي يتألق في عينيهِ سناء الآلهة ... أعود فأسأله
 كيف قتل أجاممنون ؟ وكيف تهباً لايجستوس أن يقتله ، وهو من هو
 أعلى منه نسباً وأعز حساباً وأشرف قدراً ، وأين كان منلوس الملك
 شقيق أجاممنون ؟ ألم يكن قد عاد بعد إلى أرض الوطن أم كان لا يزال
 يطوى الآفاق ، فشجع ذلك إيجستوس ونفخ في قلبه ؟ »

وقال نسطور : « رويدك أيها الصديق الشاب فإنني قاصٌّ عليك نبأ

ما لم يأتك به علم... تالله لو لم يقتل إيجستوس قبل عودة منلوس ،
 ما أفيم على رفاته جدث ، وما بكث عليه دين . ولألني بدنه النجس
 لكلاّب البرية وطير الفلاة تنوشه وتمزقه وتغتذى به جزاء فعلته الشنعاء
 وجرمه الذميمة وخطيئته التي لا تغتفر . إصغ إلى ... لقد أناب منلوس
 عنه حارساً أميناً يسهر على أمور المملكة ... ذاك هو أتريدس الحميم ،
 الذي تغفله إيجستوس . واتصل بمولاته سرّاً وهو لا يدرى ، واستطاع
 أن يدبر معها هذه المؤامرة الشنيعة التي انتهت بنفي الحارس الأمين ثم قتله
 في برية موحشة غالت فيها السباع الضارية والأوابد (١) الكاسرة ، حتى
 إذا خلا لها الجو أنسلست له الملكة القياد فحكم وساد . وطغى واستبد ،
 وفسط على البلاد أعواماً سببته طوالاً ... كل هذا والسماء ساهر لا تغفل ،
 فقد عاد أورست بن الملك الغائب ، وابن الملكة الفاجرة . فأنقذ عرض
 أبيه وقتل الوحش اللثيم الذي دنس شرف المملكة ، ولطخ بالوحل هذا
 المجد الأثيل ، ثم قتل أمه ... أجل ، قتل أمه وجمع حوله الأرجيف
 البؤساء يحتفلون بهذا النصر ويصلون للأله التي أنقذتهم من ذاك الشر ...
 وبينا هم في أفراسهم وانشراحهم إذا بالملك العظيم يصل تساطيله بعد
 رحلة طويلة مخموفة بالخطار ... فلقد أبحرنا (أنا ومنلوس) من طروادة
 معاً ، وما كدنا نبلغ صديوم (٢) ، أول مرافئ أئينا ، حتى وقع ما لم يكن

(١) الوحوش .

(٢) Sunium

لنا بحسيان ... ذلك أن رب الشمس ألولو غال بسهامه التي لا تطيش
ربان الأسطول العظيم فرونتيس ، فاضطر الملك أن يليق مراسيه حتى
يصل على صديقه ويقم الشعائر على جثمانه ؛ ثم أفلح ، وما كاد ، حتى
اضطرب البحر ، وفترت اللجج أفواهاها ، وتدافع الموج حول الأسطول
كالجبال ، وعتم الجو ، وغامت السماء ، وانقضت الصواعق فانشعب
الأسطول وتفرقت سفائنه ، وانشطرت وحداته ، فبعضها شرق ،
وبعضها غرب ، وبعضها يعم شطر سيدون عند كريت ، وبعضها اتجه
برغمه نحو شطآن مصر ، وبعضها غاص إلى الأعماق ، وخس فقط ...
وصلت بعد طول الجهد إلى هنا »

« بنى ... أيها الصديق الشاب ... أخلق بك أن تذهب من فورك
إلى منلوس فتسأله عن أبيك ، فلقد لقي الأهوال في البحر ، ولا ريب
أنه سمع كثيراً مما جرى فيه من مختلف الأمم في رحلته المشؤمة ...
هلم ... إنطلق إليه ... وإن لم تسعفك سفينتك فإني بمدك بكل
ما تحتاج من مركب البر أو البحر ، وهاهم أولاء رجالى معك أينما
توجهت ، بل هاهم أولاء أبنائى ، ليصحبك أحدهم ، أو كلهم ، إلى
منلوس ، فإن عنده الخبر اليقين »

وكانت الشمس قد توارت بالحجاب ، والليل قد نشر ظلامه فوق
الطبيعة المنهكة الخاملة فهضت ابنة زيوس العظيم ، مينرفا الخالدة ،
وهى لا تزال فى صورة منظور أمير البحر وفى طيلسانه ، فقالت :
« مرحى يا فخر هيلاس ! لقد قلت حقاً وتكلمت صدقاً ، هلم ،

البدار البدار ، قطعوا ألسن القرايين (١) وأرىقوا الخمر باسم الآلهة .
باسم نبتيون قبل كل شيء ... »

وانتشر الولدان بين المدعوين يصبون الماء على أيديهم بعد إذ أدوا
التحية الخمرية المقدسة لأربابهم ، ثم تفرقوا شيعاً ، ونهض تليماك وصاحبه
لينصرفا ، لولا أن صاح بهما نسطور :

« حاشا يرافاق ! انتما ضيفي (٢) ، فكيف تبيتان في سفينتكما تحت ظل
الليل وهذا بيتي فيه كنٌ لكما ، وفراش وثير ، وفيه ، والحمد للآلهة ، خير
كثير ، وهؤلاء أبنائي مُستاركا ، وهم ثمة طوعٌ لكما »

وشكرت مينرفا للملك عطفه ثم قالت : « بورك أيها الملك ، لبيت
تليماك هنا ، ولأَمْضُ أنا إلى البحر لأسهر على صوالح مركبي ، ولأطعمن
بجارتى ، فكلهم أتراب تليماك ، وكلهم متطوعون لخدمته وفاء وحباً .
وليس يحمل إلا أن أبيت أنا معهم تلك الليلة ، على أن نقلع صبيحة الغد
إلى كوكون ، ولتأذن فتمنحه عربة وزوجاً من صافنات جيادك ليلحق
بنا ثمة ، يصحبه أحد أبنائك ، مادمت قد عرفت فيه ابناً لأعر أحبابك
وأوفى أصدقائك »

ثم حدثت المعجزة .. فإنه ما كادت مينرفا تتم كلامها ، حتى
اننفضت انتفاضة هائلة ، وتحولت من صورة منطور أمير البحر إلى نسر
عظيم مهوب اللفتات ، ما عثم أن ضرب الهواء بخافيتيه ، حتى خلق في

(١) كان من التقاليد الشائعة أيام هوميرو أن تقطع ألسن القرايين وتغرق باسم
الآلهة لينصرف الجمع (٢) بصيغة المفرد

السما . وغاب في لانهايتها ، بين دهش القوم ، وشديد حيرتهم «
و تناول نسطور العظيم يد تليماك ، وظل يقلب فيه بصره ، ثم قال :
« أيها الصديق ؛ لشد ما عظمت منزلتك ، وسمت مكاتتك . حتى
لتسكون في رعاية الآلهة وعناية السماء ! هذه دون ريب ابنة سيد
الأولب - الكريمة مينرفا - التي ما وفرت أحداً من أبناء هيلاس
كما وفرت أباك :

« ولكن أنت ! أنت يا مليكة العدالة ! ضرعت إليك أن تتلطفي
بنا جميعاً المنحيين بركاتك . . أنا وأبنائي وشعبي ... اكتبني أسماءهم في
الخالدين ، وسنصلي لك ونذبح باسمك خبز بكرة ، لا ذلول تثير الأرض
ولا تسفي الحرث ؛ مُسَكِّمة لا شية فيها ؛ منضورة بالورد ، محلاة
القرنين بالذهب » .

وقبلت مينرفا صلاته ، ولبت دعاءه ، ونهضت في إثره أبناؤه وأحفاده
ففتحت أبواب القصر وتقدمت فدمانة الشراب تقدمت إليه كأساً من
خمرها نسب من عهد أولب ، فأفرغها في الأرض تحية لمينرفا ، واقتدى به
قومه فأفرغوا كأسهم ، ثم مضوا إلى غرفاتهم ، ومضى الملك مع تليماك
إلى مخدع وثير ، وفراش من حرير ، وأمر ابنه بزيستراتوس فقام معه ،
ثم ذهب حيث وجد الملسكة في انتظاره .

ونشرت أورورا (١) غلالاتها الذهبية في مشرق الأفق ، فاستوى
نسطور على عرشه المرمى المتألق عند بوابة القصر ، حيث كان أبوه

(١) ربة الفجر وحادية عربية أبوألو حين يركب الشمس عند الشروق .

نليوس يجلس كإله للنظر في صوالح العباد ، وأقبل بنوه الستة ومعهم
تليماك الذى جلس إلى جنب أبيهم ، وتحدث إليهم نسطور فقال :
« هلموا يا بنيّ ، لنذبح القرбан المقدس باسم مينرفا الكريمة التى
باركت حفلنا أمس ، اينطلق أحدكم إلى الحقل فليحضر ثوراً (١) سميناً ،
وليذهب آخر فليدع رجال تليماخوس — إلا اثنين — من السفينة ،
وليمض ثالث فليأت بالصنّاع الفنان (ليرسيوس) ليجلل قرنى القربان
بالذهب ، وليبق الآخرون هنا ، ثم لنحضر كل حاشيتنا من النساء
ليكسبن الوليمة بهجة ورواء »

وأطاع أبناؤه الأوفياء ، وأحضر القربان ، وأقبل الملاحون الأمناء .
ثم قدم الفنان ليغطى قرنى البهيمة بالذهب ... ثم . . . وافت مينرفا ...
مينرفا نفسها لتشهد الطقوس التى تقام باسمها .. ، وبدأ الفنان عمله ،
فأخذ يرقق صفائح الذهب ويثبتها بمهارة فى القرنين الصغيرين . وتقدم
أريتوس بن نسطور وفى إحدى يديه باقة كبيرة من الزهر وفى الأخرى
سلة من أخضر أنواع الكعك ، وتقدم ابنه الثانى تراسيميدي وفى يده
شاطور كبير لينذبح الثور ، ووقف قبالة ليرسيوس يتلقى الدم فى وعاء كبير .
ونهض نسطور الأب مسيحاً وصلى أمام نار كبيرة مضرمة ، وتتم باسم
مينرفا ، وقذف فى اللظى بكعكتين كبيرتين ، وبناصية القربان . وبقيت
قليل من الماء المقدس . وإذ انتهى الجميع من صلاتهم شعر تراسيميدي
عن ساعده وجزر القربان ، وانكب الجميع يجهزونّه ، وكانت يوريديس

(٢) كان على نسطور أن يذبح بقرة مسلمة .

حديقة المنتان تُعنى أشد عناية بالفنّانين ، فسترتهما بثوب غال من
سيفنج . وكان نسطور نفسه ينثر الخمر المقدسة والعطور والأرواح ..
وكانذا أخذ الجميع في شغلهم ، وشرعوا يلقيون في البحر بالحوايا ، وشرعت
جنيكاست تنثر البهار والتوابل . . وتهادى تليماخوس بعد هذا فاستوى
إلى جنب الملك . وانتصب الولدان والندامى يصبون الخمر ، وبدأ السكل
بأن يكون هنيئاً ويشربون مريئاً .

وما كادوا يفرغون حتى أمر نسطور فبيئت الصافنات الجياد
بحيل تليماخوس . وأحضر القواص عربة كبيرة مثقلة بكل ما تحتاج
له رحلة من زاد وعتاد .

وأخذ تليماك مكانه من العربة الأولى ، واستوى إلى جانبه
يوزستراتوس أشجع أبناء نسطور ، ثم سلم تليماك وودع ، وشكر وأثنى ،
يرجذب أعنة الخيل فانطلقت تمهب الركب ، وتبتعد عن بيلوس . .
وتطوى الزمان .

وبلغوا . مع مغرب الشمس ، فيريه ، حيث تلقاهم رب البيت
نابتر والترحاب . وياتوا عنده ، حتى أيقظتهم أورورا المشرقة .
وعادوا إلى أسيرطة .

الخطاب يتأمر

وصل الركب إلى أسيرطة بعد أن غوّر في وهادما وأنجد ، وانطلق
مياك وصاحبه من فورهما إلى باب منلوس الملك حيث وجدا ، لحسن

الطالع ، وجوها مسفرة ، وجماهير مستبشرة ، ومرسقى تصدح ،
ومشدين يرددون أناشيدهم ويرسلون أغانيهم ، ووليمة ملكية
حافلة اجتمع لها الملك وأبناءؤه وخلصاؤه ونداماه ، يأكلون ويشربون
ويسمرون ويطنون ... ماذا ؟ لقد اجتمع القوم من كل حذب ،
وأقبلوا من كل صوب ، يحتفلون بابنى الملك : بابنه الذى زوجه
أبوه من أجمل غادات أسيرطة وأكثرهن وسامة وقسامة وفتنة ،
ابنة ألكمتور العظيم ، ثم بابنته المقتان اللعوب الطروب التى رزقها
على كبر من هيلين ، والتى نافست بجمالها ودلها هرميون ابنة فينوس .

وما كادا يجاوزان الوصيد حتى لمحهما إتيون ، كبير أمناء الملك ،
فانطلق إلى مولاه وحادثه عنهما .. « إن لهما لمهابة وإن عليهما لرواء ،
فهل يأذن لهما مولاي ، أم يأمر فتردهما من حيث أقبلا ؟ »

وأوما الملك برأسه الكبير الذى يزيد فى وقاره وحسن سمته شعره
الذهبي ، وأمر إتيون أن يذهب إليهما ، فيسير بين أيديهما إليه ...
« ... إذ كيف يُرد عن طعاعى الغرباء ، وقد طعمنا طويلاً زاد الغرباء ؟ »

ودعا إليه إتيون طائفة من الخدم وذهب إلى الوافدين الكريمين
خفيّا وسلم ، وحل اللجم وأناخ السهم ، ومضى بهما إلى داخل القصر من
طريق يشرف على مكان الحفل وترى منه الجدران التى ازدانت بأحسن
زينة . وقبة العرش التى تلائم فى الأنوار الوضاءة والسرُج الوهاجة ...
ثم لقينهما فتيات من عذارى القصر فقدنهما إلى الحمامات المرمية الباذخة
فاغتسلا وتضمخا ولبسا ثياباً ملكية ثم ، ذهبا للقاء رب هذه الدار .

وهش الملك لهما وبش ، وأجلسهما إلى جانبه على مقعدين وثيرين ،
وهما في دهش من ذلك المنظر العجب . وأقبلت فتاة فصبت على أيديهما
الماء . وذهبت فأحضرت مائدة رائعة منسقة ، عليها قدر غير قليل من
اغثر الأشربات وأشهى الآكال ، ووقف خادم آخر يقدم طبقاً بعد
طبق ، وكأساً من ذهب بعد كأس من ذهب ، والملك فيما بين ذلك
يبالغ في إيناسه لهما والحفاوة بهما ، ويُنظرهما حتى يفرغا من طعامهما .
فيخبراه عن أمرهما ، وكان يتلطف فيقدم لهما قطعاً من شوائه بيده .
وسارّ تليهاك صاحبه فقال :

بيزستراتوس يا صديقي ! ما أجمل وما أنخم وما أروع !؟ هذا
الحفل الباهر يتألق في الذهب والفضة والعاج والسكرمان ودروع
النحاس ! أبدأ ما ترى العين مثل ذلك ، ولا تسمع الأذن إلا عن قصر
سيد الأولمب في شعاف جبل إيدا ! أية ثروة وأية كنز !؟

وسمعه منلوس الملك فقال :

« بنى ! لا تقرن قصر أحد منا — نحن بنى الموتى — إلى قصر سيد
الأولمب ! وأنت على حق حين ترى أن لا أحد يملك ما أملك أما من
أذخار وكنوز ، فقد سحت في أقصى الأرض سنين عدداً ، وجمعت الدرر
الغزالي من كل فج ... من كريت وقبرس وفينيقية ومصر ، ومن أثيوبيا
وإرمي ... ومن صيدا ولوبيه ... ورؤوس الشاء والوعل هذه ...
الوعل الوحشى السانم . . والشاء التي تمدنا بخيرها بغير حساب ... لقد
طوفت في الآفاق وتركت في كل منها ذكرى . ولا غرو ، فقد نبأكم آباؤكم

أنباء منلوس الملك الذى ذك المعازل وهدم القصور... ما أنس لأنس
 هذا القصر العتيد الذى جعلت عاليه سافله بما فيه من أذكار وُفنى ،
 وددت لو كان فى قصرى شىء منها ، وود الإغريق لو حصلوا فى بلادهم
 جميعاً على بعضها ! هناك ! هناك تحت أسوار طروادة يا صاح ! يا ويح
 نفسى ! يارحمنا للأصدقاء الأحياء الأعزاء الذين ناموا ثمة ! لشد
 ما أسلى النفس عنهم بالتأسى ؟ لشد ما يندلع الأسى فى قلبى عليهم جميعاً ،
 ولا سيما صفى و خليلى وأعز أودائى على .. أوديسيوس ! أوديسيوس
 الكريم ! ليت شعرى يا صديق فىم شطت بك النوى وطال عليك
 الأمد ؟ أحي ترزق ؟ أم ثويت فى بطحاء بلقع ؟ يا ويح لك ، ولأبيك
 الشيخ ، وزوجتك الملتاعة ، وابك المحزون اليتيم تليماخوس ، الذى
 غادرته فى المهدي ما بلغ الفطام ، إلى حومة الوغى وحلبة الحمام ... » .
 ولم يملك الفتى دموعه حين سمع هذا الهتاف باسم والده فنشج
 نشيجاً مؤلماً ، ثم استخرط فى البكاء ، وطفق يندى شؤنه (١) فى
 طرف ثوبه ... بين دهشة منلوس وحيرته ، وذهل الحاضرين .
 وانعقد لسان الملك فلم يسأل الشاب عن حاله ، حتى أقبلت هيلين فجأة ،
 فتلفت القوم ينظرون إلى هذا الرشأ (٢) الذى يتنى مياساً فى ظلال
 من الفتنة ، كأنه ديانا ربة القوس الذهبية ...

واستوت على عرشها المنضد ، الذى أصلحته يد أدرستا (٣)
 وعناية أكيب (٤) ، ثم أحضرت الطرّف والهدايا واللّهى ... فهذه
 سلة من الفضة المزخرفة بالتصاوير هدية من ألكندرا زوج بونليب

(١) دموعه (٢) الغزال (٣) — (٤) من ربات الغوث .

أمير طيبة ، عروس المدائن المصرية ؛ وتلك عشر بدر (١) من
النضار الخالص ، وطستان من الذهب ، ودنان من الإبريز ... يقدمها
كلها ملك أسير طة إلى زوجه البارعة الرائعة الهيفاء ... ونظرت هيلين
إلى الضيفين الغريبيين ، وسألت زوجها :

« ملكي ! نشدتك الآلهة أن تخبرني من هذان ؟ إن أحدهما شديد
الشبه بطفل أوديسيوس ... الصغير تليماخوس ... الذي تركه أبوه
صبياً في المهد من جراء حرب إليوم المشؤمة . »

وقال الملك : « وأنا مثلك ياهيلين ، لقد دار بخلدى ما دار بخلدك
من أمر هذا الفتى ! ألا ما أشبه الساقين والساعدين وتفكير العيينين
واسترسال التمتين (٢) بما كان لأوديسيوس ؟ لقد ذكرت ما قاسى
صاحبي من أجلى وفي سبيلى تحت أسوار إليوم ، فسرعان ما رأيت
الشباب يبكى ويبكى ويبالغ فى البكاء ، ثم يغلبه حزنه فيخفى وجهه ،
وفيه روحه . فى ثيابه من الهم »

وانتهز ابن نسطور الفرصة فقال :

« حقاً أيها الملك إنه هو ، ولكنه خجول حيي ، ولقد أوشك
حيائه أن يمنعه من لقائك ، وقد هاج تباريحه ما ذكرت عن أبيه .
أما أنا ، فأنى ابن نسطور صديقك الآخر ، وقد أمرنى أبى أن أصحب
تليماخوس إلى هنا عسى أن يسمع خبراً عن أبيه الذى ذهب يذرع
الأرض ، ولا يعلم أحد أيا ن قد ذهب ... وهاك ابنه المسكوم يحتر
أشجاناه ، وتطحن فؤاده أحزانه . »

(١) جمع بدرة الصرة من المال والنضار الذهب .

(٢) اللمة الشعر الذى يحاوز شجة الأذن .

وشدّه البطل — ذو الشعر الكهرمانى — فقال :

« يا للالهة ! أهكذا أفاجأ بلقاء ولدى ! أنت ؟ ابن أوديسيوس الذى شقى طويلاً بسببى ، وبذل نفسه من أجلى ، ولا يزال يناضل الوليلات من جرائى ؟ كرامة وجباً يا ابن خير الأصدقاء ! لو عرفت أنك تسعى للقاءى لشيدت لك مدينة فى أرجوس ، تقيه على المدائن وتزهى على القرى ! ورفعت لك عماد قصر مُنيّف طالما كنت إخاله يؤوينا جميعاً فنسعد سعادة لم يحلم بها قوم من قبل ولا من بعد ... ونلتذ ، أنا وأبوك وأنت ، وجميع أهلى وأهله ، ذكريات الماضى المترع ... آه يا أوديسيوس ! لقد طاشت الأحلام وذابت الأمانى ، وقست عليك السماء ... فخرمتك كل شىء ، حتى الآوبة إلى أرض الوطن ! ، ، . »

وأثارت كلمات الملك شجون القوم ، فبكى تليماخوس ، وأذرفت الملكة ، وانبعس الدمع من عيني بيزستراتوس حين ذكرت طروادة فأذكرته قتل أخيه تحت أسوارها : ثم قال : « حسبك أيها الملك ! لقد تذكرنا ، أنا وصاحبى ، جلائل أعمالك فعرفنا فيك المليك الأجل ، والمقدام البطل ، ولكن ماذا تجدى دموعنا ؟ لقد غالت يد الردى أخى وابن أمى وأبى فى سبيلك كذلك ! ألا تذكر ؟ أنتيلوخوس ! البطل المغوار والفارس السكرار الذى لم تسكتل عيناي برؤيته ! أوه يا ابن أورورا الغادر ، شلت يداك بما فتكت بأخى ! ، ، . »

وتعطف الملك فطيب ابن نسطور بكلمات غاليات ، وأمر السدّمان

فصب الماء على أيديهم جميعاً ثم أخذوا يتناولون طعامهم ، وصبت هيلين قطرات من طيب مُذِهب للأحزان في كأس تليماك ، وكأس صاحبه ، لا يعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل . وهى قطرات عجبية أهدتها إلى الملكة ، زوجة (ذون) الأميرة المصرية پوليدامنا ، وكم فى مصر من سحر مبین ! .

وتكلمت هيلين ، فذكرت ما كان من أوديسيوس يوم التقي الجمعان عند اليوم ، وكيف استطاع أن يتسلل مستخفياً فى ثياب شحاذ إلى داخل المدينة العتيقة ، وكيف قابلها فى حجرة باريس ليطلعها على خطة اليونانيين ، وما كان من رجائه إياها ألا تنفضحه عند أعدائه حتى يعود سالماً إلى معسكره وحبيمه ، وأنها برّت فلم تنبئ أحداً بوجوده ... ثم رأت أن تنصل من فضيحة فرارها مع باريس فادعت أنها كانت مسوقة إلى ذلك برغمها لأن فينوس كانت قد سحرتها عن نفسها (لما وعدت به باريس من أنها ستبهه أجمل غادات هيلاس إذا هو قضى لها بالتفاحة (١)) . « وانخيلتاه ! لقد أزرى بى أن أفر راعمة فأهجر فراشى الطهور وطفلتى اليافعة إلى بلاد قاصية لاناقة لى فيها ولا جمل ... » وأعذرَها الملك ثم ذكر أوديسيوس فقال :

« أبداً ما رأيت أثبت جأشاً ولا أربط قلباً من أوديسيوس ؛ وإن أنس لا أنس يوم الروع الأكبر . يوم فكر أوديسيوس وفكر . ثم دب هذه الحيلة العجيبة ، حيلة الحصان الهزولة الذى قهر لنا طروادة فى يوم

(١) قضى باريس بالتفاحة لفينوس وحرّم منها منيرفا وحيرا وذلك هو سبب عداتهما لطرودين . (كتابنا قصة الإلياذة) .

أو بعض يوم ، وقد عيدنا بها السنين الطوال . لقد اختبأ داخله فرسان هيلاس (١) الصناديد ، وكنت أنا — سقى الله الشباب — واحداً منهم ، فما أنسى قط حين أقنعت في عصابة ذوى أَيْدٍ من مذاويد الطرواديين (إذ هتف بهم هاتف إن الحصان يحمل لهم شراً ويطوى لقريتهم ثوراً) فجعلت أنت تنادين بأسماء الفرسان اليونانيين واحداً بعد واحد لترى هل اختبأ منا بداخله أحد كما تنبأ بذلك المتنبيون . تالله لقد كدت أرد عليك نداءك حينما هتفت باسمي ؛ وتالله لقد أوشك زميلي ديوميد أن يرد عليك هو الآخر ، لولا أن فطن أوديسيوس فخرنا وحبس ألسنتنا الشقشقة التي كادت توردنا موارد الهلاك ، لو أن أحداً منا خدع فنس ببنت شفة — وأحراباً ! لقد صمتنا جميعاً ولكنك عاودت ، فما كدت تهتفين باسم أنتيكلوس ، حتى أوشك المجنون أن يلبي ، لولا أن كتم أوديسيوس أنفاسه بكلتا يديه ، حتى لكاد يزهق روحه ولم يُعَفِّهِ حتى أيقنا أنك عدت أدراجك ، وعاد معك القوم المنكرون .

ثم كان الهزيع الأخير من الليل ، فتلطف تلياخوس واستأذن الملك في الانصراف ليأخذ كل نصيبه من النوم ، فتأذن ، وأشارت هيلين إلى وصيفاتها فأهرعن إلى مخادع الأضياف ، فأصلحن فرشها ، وأعددن الملاحف والوسائد والحشايا ، ثم نهض أمين الملك ، ونهض في إثره بيزاستراتوس وتلياخوس ، حتى كان كل في مخدعه ، وحتى اطمأن كل في سريرته ، وناماً في حرير وسمور (٢) .

(١) إسم يونان القديمة وتنطق إيلاس . (٢) نوع من فاخر القماش .

وتهاويل غير ذلك من الرقم ومن سندس ومن زرياب (١)
ونهب الملك والمملكة كذلك فدخل القصر ، واستسلم لأطبيب
الرقاد .

* * *

وذرة قرن أورورا ، ربة الفجر ، في المشرق الوردى ، فهب الملك
وأصلح شأنه ، ورف بازيه الأشهب فوقف على غاربه ، ثم مضى إلى
مجلسه حيث اتى تليماك في انتظاره ، خشيًا وجلس وبدأ حديثه فقال :
« أى بنى ! تليماخوس ؟ أيها البطل وسليل البطل ! فيم شددت
رحلك إلى هنا ؟ إلى رحاب ليسديمون (٢) في فلات البر وسروات
البحر ؟ الأمر عام ، أم لشأن يخصك ويتعلق بشخصك ؟ »

وأجاب تليماك : « مولاي الملك ! منلوس العظيم ! لقد جئت
أتحس خبر أبن أبى ، وأقبلت أحدث عن أعدائه الذين آووا إلى بيته
فما يريمون ، يستنفون غلته ، ويهلكون حرثه ، ثم هم مع ذلك ينافس
بعضهم بعضاً في كبر وزهو وخيلاء .. من أجل زوجه ! يا للغار منهم
استباحوا كل شيء .. كل نعمته وكل شائه ، ولم يعسفوا آخر الأمر
عن عرضه . إني استجير بك يا مولاي وأضرع إليك أن تخبرني عما تعلم من
أمر أبى ؟ هل قضى تحت أسوار إليوم ؟ أم غالته يد المنون في ركن آخر
من أركان الأرض ؟ لقد كان خليلك وصفيك وآثر أصدقائك ، وأعز
أودائك عليك ، فبكل آلاء ذلك عندك استحلقت أن تصدقني .. »

(١) الشعر لابن الرومى ولم نجد أحسن منه في ترجمة أبيات هومر . والرقم الثوب
والزرياب الحير . (٢) من أسماء أسبرطه .

ماذا تعرف من أخباره ، وماذا عساك سمعت من أنبائه ؟ ،
وتنفس الملك ثم قال :

« يا أرباب الأولمب ! أبلغت حقارة نفوسهم أن يفضحوا
أوديسيوس في عرضه ؟ ألا باءوا بما صنعوا ! ألا ما أشبههم بهذه الوعة
التي أجاهها المخاض فولدت في عرين الأسد ، فلما عاد الأسد إلى عرينه
لم يبق عليها ولا على أغفارها (١) ! حنانيك يا آلهة زيوس ! مینر فا
اپوللو (٢) ! أين هو فيطش الجبارين كما بطش بغيلوميليد العتي من
قبل ؟ تالله لقد اقتربت ساعتهم وأزفت آزقتهم ... فطب نفساً يا بني ؛
إني منييك بما علمته عن أبيك من (پروتیوس) راعي الأعماق ،
وكاهن الأغوار .

ضلت بنا الفلک بما نسينا من التضحية باسم الآلهة ، فبلغنا شطآن
مصر ، ورسونا عند جزيرة فاروس ، بحيث كان في مقدورنا أن نرى
من كوثر هذه البلاد التي تجرى من تحتها الأنهار ، ثم لبثنا ثمة عشرين
يوماً لا تجرى بنا ريح ، ولا يرفه عنا نسيم ، حتى نفذ الصبر ، وفرغ
الزاد ، وظننا أنه المعاد ، لولا أن رثت لنا إحدى عرائس البحر فبرزت
إلينا ، وكانت لنا غوثاً أى غوث . كنت أجلس وحدي في منعرج
بأحد أطراف الجزيرة ، وكان بقية صبحي وأكثر الملاحين يرتادون الماء
بشصوصهم (٣) عسى أن يحصلوا على شمس طرى يكون غذاء لنا ، إذ
برزت عروس الماء (إيدوتيا) الجميلة ، ابنة كاهن الأعماق پروتيوس ،

(١) جمع غفر ولد الوعل .

(٢) كان أبوللو من خصوم اليونانيين في حرب طروادة ولذا بدعشنا هذا الدعاء .

(٣) الشص حديدية عقفاء يصاد بها السمك (السنارة) .

وتهادت حتى كانت تلقائى ، ثم جلست بجانبى ، وحدثتنى فقالت : « أيها النازح الغريب ! أكبر الظن أنك مذهوب بك ، أو أن بك مساً ، أو أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، أو أنك قد آثرت الشقاء السرمدى حيث لصقت بأرض هذه الجزيرة فما تنوى مضياً ، ولا تلتمس مخرجاً ولو هلك كل أصحابك ! »

ولم أبال أنى شديت ، فسألته قائلاً : حسبك ياربة إني مالصقت بأرض هذه الجزيرة بأمرى ، ولا أقمت فيها بمرضاتى ، بل كان ذلك قدراً على مقدوراً ؛ ولكن أخبرى بحقك ، إذ الآلهة تعلم كل شيء — من من أرباب السماء يحبسنى هنا ؟ ... وهل مقدورى أن أرتد إلى وطنى فوق غوارب هذا اليم المضطرب ؟ ... »

وقالت عروس الماء : « أيها النازح الغريب ! سأنبئك فأصدقك ! إنك الآن مقيم بشطآن مصر التى تقع تحت إشراف أبى ، پروتيوس ، سيد الأعماق ، ورب المياه المصرية ، والمتصل برعايا نبتيون فى أغوار هذا البحر ، فإذا استطعت أن تتغفله فتقبض عليه وتشد وثاقه ، فإنه يقفك على أبعاد هذا اليم ، والطريق السوى الذى ينتهى بك سالماً غانماً إلى بلادك . بل ربما — إذا طلبت إليه ذلك — وقفك على كل ما حصل فى بيتك من خير أو شر خلال سفرك الطويلة ، لأنى أعرف أنك صنى السماء وحبيب الآلهة . »

غير أنى لم أدر كيف تستطيع أيدى بنى الموق أن تقبض على هذا الإله البحرى الكريم ؛ ولم أخف عليها ذلك ، بل حدثتها به ، وذكرت

أنه ربما ولى دُبرَه إذا شعر منى بهذه المحاولة فلا أستطيع لقاءه بعدها أبداً . بيد أنها طمأننتني ، وذكرت أن أباه يخرج من الأعماق في الظهيرة إلى جَوْنٍ قريب حيث يستلقي برهة وسط قطعان كشيفة من عجول البحر ، من ذراري هاليسودنا الجميلة ، تأتي هي الأخرى في أثره لتنام ثمة . . « فإذا كانت هذه الساعة فإني سأقودك بنفسى إلى هناك ، وليكن معك من رجالك ثلاثة هم أشجعهم وأكثرهم قوة ، وسأدلكم على منعرج آمن تنتظرون به حتى يكون قد غلبه السكرى ، ثم تنقضون عليه فتكبلونه وتشدون وثاقه ، وإياكم أن يرهبكم بشيء أبداً ؛ إنه سيكون تارة سيلاً رايباً ، وتارة سيكون ناراً ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالاتُ صُفر ، وأخرى يكون أفعواناً هائلاً ينفث السم .. ولكن خذوه أخذاً شديداً ولا تقتلوه قتلهم كوا .. فإنه إن آنس فيكم قوة عاد فانتفض إلى صورته الأولى التي رأيتموه عليها ، ثم ترونه بعد ذلك وقد أسلس قياده ، وهدأ وتطامن .. فإذا فعل ذلك سألكم عن حاجتكم ، ففسكوا وثاقه وأطلقوا سراحه وسلوه ماشئتم ، فإنه يجيبكم عما تسألون » .



ثم غابت عروس البحر في طيات الموج ، وتركتني في حيرة مما ذكرت ، ثم إنى عدت إلى قرتي في السفينة ، وعاد كل إلى قمرته ، وبعد أن تعشينا ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، نمنا نوماً لا آمناً ولا قريراً ... وبزغت أورورا ثمَّوَّه المشرق بأصباح الورد ، فنهضت أصلى للآلهة فوق السَّيف الممتد ، وأبتهل إلى السماء أن توفقنا لما فيه خيرنا ، ثم

انثيت فتخيرت من رجالى ثلاثة هم أصلحهم لهذا الامر ، وهم موضع
ثقى ومعقد رجائى . وبرزت من الماء عروس الماء ، وأحضرت لنا
أربعة من جلود عجول البحر لتلبسها ، ونستخفى بها ، ولتتم الخدعة على
أبيها . وأعدت لنا مهاداً فى رمل الشاطئ . ثم دلفنا نحوها ، ونام كل
فى مهده ، وألقت فوقنا مامعها من الجلود المنتنة التى أروحت حتى
كدنا نختنق برائحتها ، لولا أن نثر العروس فوقنا طيباً عبيماً ملاً
خيائسنا وأنقذنا من مصلول (١) تلك الجلود .

وتلبثنا نرقب اليمّ حتى برزت عجول البحر فنامت فى الجون ، ثم
كانت الظهيرة فبرز پروتيوس وطفق يعد قطعانه . مبتدئاً ، لغفلته ،
بنا ، وكأن أثارة من الشك لم تخامره فى حالنا ، فانطرح ونام . وانتهزنا
الفرصة ، فانطلقنا نعدو إليه وقبضنا عليه ، وشددنا وثاقه بحيث
لا يستطيع إفلتاً ... يا عجباً ! لقد انتفض انتفاضة هائلة ، فإذا هو أسد
غضنفر ذو لبدة ، ثم انتفض فإذا هو أفعوان أرقم يتحوى ويتحوى ،
ثم انتفض فصار نمراً رائعاً ذا أنياب ، ثم صار خنزيراً برياً ، فسيلاً رابياً
ذا عباب ، فايكه بأسقة ذات غصون وأفنان ! ولما لم يجد بداً من أن يبدو
لنا على حقيقته ، انتفض فكان على صورته الأولى ، ثم قال : عمو شرك
الله يا ابن أترپوس أى إله جبار حبسك فى مياها و ساطك على ، تمسك بى
وتشد وثاقى ؟ ماذا تريد ؟ ، فقلت له : « حسبك يارب هذا البحر ،
إنك كنت بى علياً ! لقد طال مقامنا بهذه الجزيرة ، ولست أدرى أى

(١) أروح اللحم صار نثناً وصوله رائحته المنتنة .

إله عادل حبسنا فيها ، ولأى شيء ؟ ا . قال پروتيوس : « ويك يامنلوس ! لم لم تُصلِّ لسيد الأولمب ثم تُضحِّ للآلهة يوم غادرت طروادة ؟ لقد غضب الجميع فكاتبوا أن تصل في تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر ، فتقيم ثمة حتى يشوب إليك رشدك وتصلى للآلهة خاشعاً خائباً متصدعاً ، ثم تذبح القرابين وتجزر الأضحيات اتعود إلى أوطانك ! » وعراني بما ذكر ما عراني ، فقلت له : « الحمد لك أيها الإله القدُّوس ... سأفعل ، سأفعل كل ما تأمرني به ، ولكن قل لي بحق ربوبيتك ، هل وصل كل رجالنا إلى أوطانهم سالمين كما تركتهم أنا وصاحبى نسطور عند طروادة ، أم أن منهم من غرق أو قتل أو مات حتف أنفه ؟ » .

وكأنما ضاق بي ، ولكنه قال : « ويك يا ابن أتريوس ما هناء الأسئلة ! أتبتغى أن تقف على كل أسرارى ؟ إذن فاعلم أن أكثر رجالك قد عادوا سالمين إلى أوطانهم ، وأن قليلا منهم من مات ، ومن هؤلاء قائدان فقط قد قضيا ، ولا يزال واحد يذرع رُحب هذا البحر ، ضالا على غير هدى لقد هلك أجاكس بما تحدى الآلهة ، وربما ادعى أنه ناج برغم السماء من البحر اللججى الذى كان يناوح سفينته ، فبرز نبتيون غاضباً وشرط السفينة نصفين بضربة قاضية ، من رمح السهمرى ذى الشعَّيب الثلاث ، ثم رطم حطامها بعد ذلك فوق صخرة موحشة ... مسكين أجاكس ، لقد غص بالأجاج ،

وشرق بقطرات فمات ... أما أخوك (١) فقد نجا ! لقد دفعته موجه
هائلة فرق شاطئه (ماليا) ... أرض ديسيتيس وإيجستوس . . ومن
ثمة ركب البحر إلى وطنه آمناً . ألا كم كان أخوك رائعاً حين وطىء
أرض الوطن فراح يقبل رمالها ويناجي كسبانها ! ألا ليت ما نجا ! لقد
لحه أحد الأوغاد من جواسيس إيجستوس فانطلق يخبر سيده الذي أعد
كميناً من عشرين رجلاً من أفسق رجاله فاغتالوه كما يذبح العجل ؟
الأوشاب الفجرة ! لقد بادوا بما عنعوا ، وأبيدوا على بكرة أبيهم (٢) . .
ولم يكده يصعقني هذا الخبر حتى خذلتني رجلاى ، وانطرحت
أثقل في الرمال من الغم ، وذرفت الدمع من الحرقعة على أخى .
ولكنه خاطبني قائلاً : « امض يا ابن أتريوس . إنك تبكى ولات
حين بكاء ... هلم فعد إلى وطنك لترى بعينيك قبره ولتشهد ابنه
العظيم أورشنت ينتقم له ، ويستأصل شأفة قاتليه » .

وكانما سرى غنى بما قال بعد ، فمضت وساءلته بعد أن شكرته
على ما أنبأني : « ... إذن من هذا البطل الثالث الذى ما يفتأ يندرع
البحر ضالاً في رحابه ؟ »

فقال : « ذلك ابن ليرتيس ، وسيد إيثاكا (أوديسيوس) ! لقد
شهدته بعيني حبساً في جزيرة عروس الماء كاليسو ... لقد حل عليها
ضيفاً برغمه ، بعد أن تحطمت سفائنه ، وهوى يتشه عروس الماء ، وهو
لا يزال عندها لا يجد مراكباً يحمله إلى وطنه ... أما أنت أيها الملك

منلوس ، فطوبى لك ! إنك ستتحيا سعيداً ، ثم تنتقل إلى دار الخلد
ونعيم لا يفنى ... جنات الإليزيوم (١) ... لا برد ولا زمهرير ،
ولا يوم عبوس قطير ، بل تسقى ، ومن معك من الأناسى من ماء
معين ، لا لغو فيه ولا تأثيم ... مقام كريم وجنة نعيم ، أنت وغادتك
الحسنان هيلين ، يا ذرية زيوس العظيم !
ثم غاص في اليم ، وعدت ورجالى إلى الفلك ، وفي القلب لوعة ؟
وبالنفس أسى . وتبلى كل من بلقيت ثم أسلنا عيوننا للسكرى ، وكأنا
نام أسطولنا في ظلام الشاطئ .

وانبلجت أورورا فنصصرت بالورد جبين المشرق ، وهبت
أنفاس الصباح المنداة فأهرعنا جميعاً ، وجزرنا الأضاحى باسم الآلهة ،
وصلينا لها خابئين ، وأقمت لأخى رسماً فوق ثرى مصر الخالدة . ثم
هبّت الريح رخاء فنشرنا الشراع وأصلحنا القلوع ، وأقلعنا من فورنا
إلى أرض الوطن ، فبلغنا هيلاس سالمين ،

وبعد ! فلبقم معنا ههنا أياماً تفرح وتفرح ، ونسعد نحن بك يا ابن
أعز الأصدقاء ، ثم لنسعدك لك الهدايا واللّهي التي تليق بك ، ولتعد
إلى وطنك على عربة فاخرة تجرها ثلاثة من الصافنات الجياد ؛
ولنزودك بكأس ذهبية تصب منها قرايين الخمر للآلهة فتذكرنا أبداً «
وشكر تليماك واعتذر ، وأبدى من الحنين إلى وطنه ، وما عليه من
واجبات ، وما ينبغى من عودة ابن ملك بيلوس ، ما برر له أن

(١) هي جنة الفردوس في الميثولوجيا اليونانية .

يستأذن في الأوبة ... فأعذره ملك أسبرطة ، وأهدى إليه كأس
فيديموس الفضية ، ذات الشفة الذهبية ، الكأس الخالدة التي صنعها
الإله فلكان بيديه لينفخ بها ملك سيدونيا .
وهياً السندل (١) مقصفاً فاخراً به جزور وخرم ، وأقبلت
أزواجهن يحملن الخبز ، فأكل الملك ومن معه ورووا .

* * *

هذا ما كان من أمر تليماك ومنلوس .
أما ما كان من أمر الخطاب آنتد ، فقد كانوا يلعبون ويمرحون في
بيت ملك إيثاكا ، يلاعبون الأسنة ، ويقذفون القرص ، ويتصارعون
ويمزحون . كانوا جميعاً يأخذون في هذا اللهو لتزجية الوقت ، إلا
أتينوس ويوريماك ، فقد جلسا بمعزل يتحدathan ، إذ أقبل الفتى نومون
ابن فرنيوس وقد تعضن جنبه ، وانتشرت على أساريه سحابة
كمثية فقال :

« أرايت إذ أعطيت سفينتي للفتى تليماك فإني أريد أن أبصر إلى
إيليس لأرعى أفراساً لي اثنتي عشرة لا تزال ترضع أفلاها (٢) ، متى
يرجع من بليوس يا أتينوس ؟ »

ورمى الرجلان لهذا الخبر ، فلم يكن أحد يعلم أن تليماك قد غادر
إيثاكا ، بل كانوا يظنونه يجتر آلامه وأحزانه في أحد الأدغال النامية
في مزارعه . قال أتينوس :

« أحقاً أنه أبصر يا نومون ؟ وهل صحبه أحد من ذويه ؟ وعلى سفينتك ؟ »

(١) جيم نادل أي خادم الطعام . (٢) الفلو ولد القرس لم يبلغ عاماً .

سفينةك أنت ؟ وهل أبجر عليها بدون إذن منك ، أم أنت الذى أذنت له بها أول ما طلبها منك ؟ .

وأجابه نومون : « بل أبجر عليها بإذنى . وماذا عساک كنت صانعاً لو سألك أمير فى مثل بأسائه أن يبجر على سفينةك ؟ أكنت ترفض وتتأبى ؟ لقد أبجرت معه ثلثة من أشجع البحارين ، كلهم فينان العود ، غريض الشباب ، وقد رأيت معه أمير البحر منظور . ألا كم كان يبدو منظور بهيا وقوراً رائعا ! تالله لقد خلته — بل أكبر ظنى أنه — أحد الآلهة ! وكيف لا يكون إلهاً وقد رأيتة بعينى هاتين صباح أمس وهو قد أبجر إلى بيلوس قبيل ذلك ، فأنتى عاد ؟ ،

وفرغ نومون ، وعاد أدراجه إلى دار أبيه ، واستولى الذهول على الرجلين ، وكان الخطّاب قد فرعوا مما أخذوا فيه من هو ولعب ، وجلسوا يستريحون من التعب ، فيمم شطرهم أنتينوس ، وهو يتميز من الغيظ ، وينقدح الشرر من مقلتيه : فقال :

« يا أرباب السماء ! أفيقوا أيها الرفاق ! عمل باهر ! باهر جداً ! لقد أبجر الفتى تليماك فى عصبة من شباب الملاحين ليؤلب عليكم العالمين ، ويرسل علينا حُسباناً ! الويل له ! أعدوا لى مركباً وعشرين فارساً من أبسل صناديدكم لأجأ بين أوادى ساموس وتُسْروء إيتاكا ! لتعس الذى ذهب يستروح أخبار أبيه ليسعى إلى حتفه بظلفه » .

وتحمّس الملأ وعلا هتافهم ، وهروا إلى الرحبة الداخلية فى بيت أوديسيوس يتآمرون ، وكان على مقربة منهم الأمين ميدون ، الذى

انطلق بدووه ينقل ما عقدوا خناصرهم عليه من إلفك إلى الملكة الباكية المفجدة ... بنلوب - وما كاد يقص عليها ما اعترموه من قتل تليماك حتى تضععت وتخاذلت ومادت من تحتها الأرض ، وتحبست أنفاسها هنية ، ثم سألت ميدون فيم أبجر ولدها . « ألكي ينقرض اسمه من صفحة الوجود ؟ » وأجابها الرجل : « إنه ذهب يقسمع الأنباء عن أبيه ، . ثم ذهب لطبيته وجلسست الملكة المرزأة لدى الوصيد تبكي وتلتحب ، ومن حولها الغيد الرعايب والعجوز الشمطاء من خادئات القصر ، يعزوان ويكففن ...

قالت الملكة : « ويح لي أيها العذاري ! أبدأ ما أحسب واحدة من النساء قد لقيت بعض الذي لقيت مما كتبتة على السماء ! لقد فقدت زوجي ، أسد هيلاس ، الكريم أوديسيوس ، الأمير الحلال ، رجل المروءات والفضائل ؛ ثم لم يبق إلا أن يرحل عني ولدى ... دون أن أعلم أمر رحيله من إحدا كن ، فكنت أحول بينه وبين ما اعترزم ولو أدت ثمناً لذلك روجي ! ولكن .. هيا ... لنمض دليون - خادمتي الوفية ذات التجاريب - إلى ليرتيس - فلتحدثه عما تأمر الذئاب . وئى ! لم يبق إلا أن يقتلوا ولدى وسليل أوديسيوس ! » .

ونفضت يوريكليا مريض تليماك ، تنثر دموعها وتقول :
« واأسفاه على أيتها الملكة ! سأعترف بما كان ، ولك أن تقتليني ... أو تبقى على ! لقد زودت الأمير بكل ما أمر من زاد وخمر ، وأخذ على موثقاً ألا أبوح بسرهِ حتى تمضي إثنا عشر يوماً

بتمامها ... حتى أنت يا مولاتي ! لقد أمرني ألا أعليك بشيء ، فاهدئي
يا مولاتي ولا تضاعني أحزان القصر بحزن جديد ، وامضي إلى مخدعك
فاستريحي ثمة ، ولنصل جميعاً لربة العدالة مينرفا — باللاس الطيبة —
أن تصون مولاي الأمير وترعاه ، وتكلاؤه من كل خطر ، وليعد إلى
عرش آبائه ليحكم ويعدل ويدبر شؤون البلاد .

ورقاً الدمع في عيون الحاشية ، ونهضت بنلوب فصعدت إلى
الطابق العلوي ، وأمرت بسلة من الكعك فنفخت بها العذارى قرباناً
لمينرفا وتقدمة ، ثم أرسلت هذه الصلاة :

« إسمعي يا ابنة سيد الأولب ! يا مينرفا العادلة ! باسم ما ذبح لك
أوديسيوس في هذا القصر وما ضحى نضرع إليك وتتوسل بك ونصلي
لك ، أن تصوني ابنة الأمير ، وأن ترسلي عبوسة من شؤاظ غضبك
على أعدائه ... أولئك الأضياف الظالمين ... آمين » .

وانهمرت الدموع من عيني الملكة فاستجابت مينرفا لصلاتها . ثم
علا ضجيج القوم وارتفع صخبهم ، وكان فيهم شاب نزع التاثن في
أذنيه صلاة بنلوب فحسبها أشرفت تناغي وتغازل ، فراح يعرضها
في كلمات قوارص ، قطعها عليه أنتينوس بتحذيره القوم ، ونصيحته
لهم أن يستعينوا على حزم أمرهم بالكتان .

وتخير أنتينوس عشرين من خيرة رجاله ، ويمم بهم شطر البحر ،
ثم ركبوا في سفينة أعدت لما اعتزموه من تلصص وقرصنة وقتك إعداداً
كافياً ، فنقلت إليها الأسلحة ، وحملت إليها أحمال الراد والذخيرة ...

وأفعلت ، لا باسم الآلهة مجراها . . ولا سلكت سبيل الرشاد

* * *

واضطجعت بنلوب في فراش حشوه فكرهم ، وجاشت في قلبها الوسوس ، وطفقت الأوهام تفتك برأسها القلق الحيران بسبب ولدها ، وما دبر له الكلاب وما كادوا . مسكين أيها الأسد ! لولا قوتك وجبروتك ما أكثر صائدوك حولك الأحاييل .

وأخذتها سنة من النوم ، فأقبلت مبرقا الكريمة في رؤيا عجيبة تواسيها وتذهب عنها طائف الحزن ، فتزيت بزى الأميرة المقتان ، إفتيا ، ابنة البطل الكبير إيكاريوس ، ثم وقفت عند رأسها ، وشرعت ترسل هذه الأحلام :

أهكذا تنامين ملء عينيكم الجميلتين يا بنلوب العزيزة ؟ ليفترخ روعك ، وليصنف باللك ، فالسماء ترعى ولدك ، وهو عائد إليك عما قريب ! إنه لم يقترب شيئا مما يفضب الآلهة ، ولذا فهمي تكلمه وترعاه وتحفظه ، فقسر عينا واسلسي وانعمي ! » .

وتقول بنلوب إذ هي تحلم :

« من ؟ إفتيا ؟ عجباً ! فم قدمت يا أختاه وقد ندر ما كنت تسلمين بهذا القصر ، التواسيني وتسليني ؟ لقد تكاثرت الأحزان على قلبي ، وتكسرت النصال على النصال .. لقد فقدت زوجي ... أسد هيلاس ونفر أرجوس ، وعزى الأبدى ! ثم ها أناذى أنتفض فراقاً على ولدى ... ولدى الطرى الفينان ، الذى لا قدرة له ولا احتمال ..

في هذا البحر اللحي ... لقد أقلعت به سفينة كأنها تسبح في بحر من
دمى وأحزاني ! وها قد تعقبه الأشرار في سفينة أخرى يريدون
غيبته قبل أن يرتد إلى وطنه ! .

وتجيبها ميرفا : « لا عليك ياملكة ، ولا عليه هو الآخر !
إن معه راعياً يحفظه ويقيه . . . راعياً يتمنى الجميع أن يكونوا في
رعايته أبداً . . . ميرفا ! إنها أيضاً تبشرك وترفه عنك ، وأنا هنا
رسولها إليك ، أقبلت بأمرها وأواسيك ! ،

وهلجت بنلوب ثم قالت : « وئى ! أما إنك إذن لربة ، وقد
كلمتك الأرباب ... ألا قُصّي على إذن ما كان من أمر رمجلي ، ألا
يزال حياً يرزق ؟ أم تخطفته يد المنون ؟ »

وتضاحك الشيخ العابس فقال : « لا ! ليس الآن ؟ لن أذكر لك
إذا كان رجلك لا يزال حياً أو أنه قد قضى ، مالتا ولذلك ؟ »

ثم رقت في ظلام الغرفة ، وصعدت في سماء الأحلام .
ونهمضت الأم وقد مُرّى عنها بهذا الحلم ، وانجاب كابوس الهم
الذي كان يحشم على قلبها .

وأقلع الخطاب بفأسكهم في اليم المضطرب ، كل تحدّثه نفسه بمقتل
تليساخوس ، حتى ، كانوا عند برزخ أستريس ، بين ساموس وإيثاكا ..
فأرسلوا أثمة يتربصون .

أوديسيوس يبحر من جزيرة كالبيسو

هبت أورورا من فراش زوجها الدافئ الحبيب (تيتون) ففتشت
في المشرقين غلالة سنية من فيض ضوئها ، بينما كان مجلس الآلهة
منعقداً في ذروة أولمب ، وقد استوى زيوس على عرشه ، وميرفا...
ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، قائمة بين يديه ، تحصى آلام
أوديسيوس ، وتبت أشجانه ، وتصور للآلهة صنوف العذاب التي
يتجرع غصصها وحده في هذه الجزيرة النائية السحيقة ، فتقول :

« أبتاه ياسيد أرباب أولمب ! جوف ! إصغ إلى أو أتم يا آلهة
الخلود ! أعيروني انتباهة واحدة منكم ، فإنها حسبي ! إلى أين تصير
الأمور إذن ؟ هاكم قد أصبح أمر الناس فوضى ... والطفلة يعيشون
في الأرض مفسدين ، وكأنكم أغضضتم أعينكم عن خيارهم ، ولم يضركم
ألا تكفؤوا أشرارهم ، فنسيتم الرجل الصالح أوديسيوس الذي طالما
منحكم محبته ، والذي بذل لشعبه مهجته . . . يشوى اليوم في تلك
الجزيرة الموحشة يحتر همومه ، ويبعث في صفحة السراب آماله ، ...
كلاً على كالبيسو عروس الماء ... لا يملك سفينة فيقلع إلى الوطن ،
ولا يجد قلباً إلى جانبه فيبته حزنه ويشتكى إليه لأواه ، وكأنما لم يكن
بحسبه بعض ذلك ، بل تسلط عليه الأقدار القاسية عصبة من الأعداء
الآلداء يتربصون بابنه الشر ، وينتوون غيثلته ، إذ هو عائد من
أقصى الأرض . من أسيرطة وبيلوس بعد رحلة منهكة باكية ، قام بها
يتنسم خبراً عن أبيه ، يشقى في قلبه غلة ، ويرى في نفسه كلوماً ،

ويجيئها رب السحاب الثقال :

« آية كلمة هائلة انفرجت عنها شفتاك يا ابنتي ؟ ألسنت تشوفين إلى
سمودة أوديسيوس سالماً آمناً فيبطش بكل أعدائه ؟ إطمئني إذن ،
عز لتحرسي ولده تليماخوس حتى يصل سالماً آمناً هو الآخر إلى أرض
الوطن ، وليسبؤ أعداؤه بالفشل ، » .

ثم توجه بالخطاب إلى ولده هرمز ، رسول الآلهة ، فقال :

« هرمز ! هلم يا بني إلى عروس الماء الشقراء كاليسو برسالاتي .
سرها أن ترسل أوديسيوس على رمث (١) وحده ، لا أنيس له من إنس
ولا آلهة ، فليلق الأحوال الطوال حتى يصل إلى شيريه أرض الفيشيين ،
هلوك البحار وأصهار الآلهة ، فليزودوه بسفينته وزاد وذخيرة من أحمال
عن ذهب وديباج ، وبكل ما تشتهي نفسه مما يفوق نصيبه الذي حصل عليه
من أسلاب إليوم ، لو عاد به غير منقوص إلى أرض الوطن ، ثم ليمجر
سالماً إلى إيثاكا ... بذات قضت المقادير أن يؤوب . . وأن يستعيد سلطانه
ووصلجانه ، وملسكه وإيوانه ؛ ويلقى بعد طول النأي خلاّته ، » .

وأصلح رسول الآلهة الأمين ، هرمز ، نعليه الذهبيتين ، نفختابه
كالريخ فوق السحاب ، وفي يمينه عصاه السحرية العجيبة التي إن شاء داعب
بها الجفون فأغفمت ، وإن شاء ردها إلى الصحر واليقظة . وماقئ يرف
بين السماء والماء ، ويدوّم في ذاك الفضاء كالغمر نوق (٢) الذي يتوائب

(١) خشب يضم الى بعضه ويركب في البحر Raft

(٢) بوزن طنبرون وبوزن فردوس طائر مائي (القطاس) .

على أعراف الموج يصيد ما يقتات به ، حتى كان فوق تلك الجزيرة
المنعزلة عن جميع العالم . ثم ما برح يُرَنَّق هنا ويرنق هناك حتى اهتدى
إلى ذلك الكهف السحيق الذى تأوى إليه عروس الماء الشقراء ذات الشعر
السكهرمانى ، وقد جلست ثمة تغرد وتغنى وتعمل دائبة فى منسج أمامها ،
ويدها تتلقفان الوشعة (١) الذهبية كما يخطف البرق ، والنار تتأجج
فى الموقد بقرمها وتتوهج ، وجهر الآرز والصندل يعبق ويتأرجح ، ويملأ
تشمره أركان الجزيرة وفجاجها ... وقد بسقت أشجار الحور والسنديان
عند مدخل الكهف فغشته بظلال رائعة ، وظلمة رهيبة ، وقد صنعت
جوارح الطير أوكاراً لها فى الدوح الذاهب فى السماء ، ووَكَنَت (٢)
الخدأة بيضها ، وقر الغداف (٣) جنب صفاره ، وطفقت البومة ترسل
فى الآفاق صفيرها ، وتناثرت فوق الشاطىء أفاحيص (٤) الطير من كل
نوع ، وامتدت السكروم عن يمين الكهف وعن شماله مثقلة بالعناقيد
ذوات السننكر ؛ وتدفقت جداول أربعة عن عيون كثرية تسقى السندس
الجميل المنقصر بأفواف الورد والبفسج ... منظر عجب ، وأى منظر
عجب يبعث البهجة والانشراح حتى فى قلوب سكان السماء !

ووقف هرمز يمتع ناظره بسحر هذه الجنة ، ثم دلف إلى الكهف ،
ولم يكن يسيراً على عروس الماء أن تعرف من هو ، وأى إله خالده طرق
بابها ، ولو أنها هى أيضاً فرد من أسرة الخالدين ... ذلك لأن سكان السماء

(١) المكوك . (٢) رقدت عليه . (٣) الغداف بضم النين غراب القبط
الأسود . (٤) ججور .

يكونون مثلنا أحياناً ، لا يعرف أحدهم جميع الآخرين ، لبعد الشقة ،
ونأى الدار . وانقطاع المزار ... ، ... وأرسل عينيه في كل شق من
شقوف الكهف . بيد أنه لم يقف لأوديسيودس على أثر ... فأنثنى .
ويمم نحو الشاطئ ، واستوى على صخر عظيم نائى ، وشرع ينثر من
عينيه الدموع الغوالي ، يطفىء بها في القلب سيرا سمردياً يلزمه أبد
الدهر ... وكأنما عرفت كالبسو من هذه الآية أنه هرمز ، فراحت
تسائله ، إذ هي مستوية على عرشها المهرد العظيم :

« هرمز ! يا صاحب العصا السحرية ، يامن طالما أحببته وبجلته ،
حدثني فيم أقبلت ، وقد ندر ما قدمت إلى هنا . هلم فقل ، سل حاجتك
فسأقضيها إن تكن في وسعى ... ولكن هلم أولاً لتؤدّى لك مراسم
القيرى وواجبات الضيافة ... هلم ! »

ومدت عروس المساء سماطاً حافلاً بأشهى ألوان الطعام وصنوف
الشراب ، وأقبل هرمز فاغتذى وروى من هذه المائدة القدسية ، ثم
توجه بالكلام فقال : « تسألين أيتها الربة فيم أقدمت ! ألا فاعلمى أننى
ما أقدمت عن أمرى ، لكنه أبى ، سيد الأولب وكبير الآلهة ، هو
الذى أرسلنى . إذ أية حاجة لإله في هذه القطعة المنعزلة من الأرض
يحيط بها الملح من كل مكان ، حيث لا عباد ولا خلق يؤتون الزكاة ،
ويقيمون الصلاة ، ولا أثر لعبادة زيوس العظيم ! إنه جل جلاله ،
يقول إنك تحتجزين هنا أتعس مخلوقاته ، البطل الكبير الذى نزع عن

بلادته إلى اليوم فقطى ثمة تسع سنين ثم أبحر عنها بعد سقوطها في
 العاشرة مع محاربى هيلاس الذين تفرقوا في البحر كَشَدَرَ مَذَرَ ،
 فمنهم من غرق ومنهم من قتل ، ومنهم من وصل إلى بلادته . . . إلا
 إياه . . . فقد هلك كل رجاله ، وقذفه البحر فوق جزيرتك النائية . . .
 إن جوف يأمرك أن ترديه ، ففي كتاب المقادير أنه لا يهلك هنا . . .
 بل يعود إلى بلادته ويلقى بها آله ،

وزلزلت كالبسوزلزالا وقالت تجيبه : «ها . . . الظلم والحسد . . .
 دائماً . . . هذا دأبكم يا آلهة . . . كم تأكل قلوبكم الغيرة كلما ضمت ربة
 إلى ذراعها أحد بنى الموقى ! وهل نسيت يوم ثرتم عندما عسَلقت
 ديانا ذات الأصابع الوردية هذا المتى الجميل أوريون ، وكيف دبّت
 الغيرة في قلب أبولو ففكر هذا المكر السيئ ، ودبر قتل الفتى ييدى
 حبيبته ديانا ؟ هل نسيت أيضاً كيف أرسل أبوك جوف إحدى
 صواعقه على آياسيون المسكين لأن سيرس ربة الربيع قد هويته
 فأوته إليها حين شغفها حبا ؟ ! كذلك أتم معي اليوم ، وكذلك أتم
 غيورون دائماً ، فما أقساكم إذ تنفسون على رَجُلِي وحيبي ؟ لقد
 أنقذتة بنفسى من هذا اليم الذى التقم سفينته بمن فيها حين شطرها
 أبوكم بسهمه في عبثة من عبثاته ! حيبي الذى أهواه من أعماق
 وأفتديه بروحى ، والذى أهدله حياة الخلود . . . ولكن . . .
 وأأسفاه ! كيف أطرده من عندى ؟ ويحى ! إن تسكن هذه مشيئة
 زيوس فلا نحدثنّ أوديسيوس ليرى لنفسه ، إذ ليس عندى مركب
 يأمن فيه غائلة هذا البحر المضطرب ، وإنى لنا صحة له ، .. ،

وكلها هرمر فانذرها غصبة سيد الأولب وحضها أن تعمل على
إبحار البطل .

* * *

ورف هرمر الرسول في لازورد السماء ، وانطلقت عروس الماء
تبحث في الجزيرة عن أوديسيوس ، حتى لقيته فوق صخرة ساهماً
واجماً ، تفسري قلبه الهواجس ، ويعبث به محال الأمانى ، وقد
انهمرت فوق خديه عبرات حرار ، واللحظات تذبل فتسقط من حياته
في ظلام اليأس كأوراق الخريف ، وقد ملّ هذا المقام الطويل البائس
في جوار عروس الماء التي كانت تخلع عليه حبها البارد ، وتقره على
أن يقضى لياليه عندها في ذلك الكهف السحيق ... وكلما فكر في وطنه
ونظر إلى الموج المتواثب في أفق اليم ، وعرف أن لا قدرة له عليه ...
بكى وأن . وتوجّع وتصدّع ، وأرسل في لانهية الماء والسماء
آهات وآهات

واقتربت منه عروس الماء في رفق وحذب ، وقالت له :
« أيها التعس لا تنتحب هكذا ، ولا تصهر حياتك الغالية في تنور
من الآلام ، هلم ... هيا إلى عمل مجيد ... أمامك الدوح العظيم والأيك
الذاهب فاقطع منه ماشئت واصنع لنفسك رمتاً يحملك فوق هذا
العباب المتلاطم . وسأزودك بكل ما يكفيك من طعام وشراب ؛
وسأمدك بأثواب جديدة تقيك الحر والبرد . وسأسخر لك الريح
تهبّ هبّك إلى بلدك البعيد ... هذا قضاء من آلهة السماء التي تُقدّر
فتعدل ، وتقضى فلا يرد لها قضاء »

وتفرَّع أوديسيوس لهذه المفاجأة ثم قال : « أوهِ يا عروس !
بل في الأمر سر تحاولين إخفاءه عني ... أَى رَمَتْ يَحْمِلُنِي
في ذلك البحر اللجى ، وأَى رِيح تُسَخِّرِينَ من أجلى ، وإن السفينة
العظيمة لتخر عبابه وهى لا تدرى أنسلم أم يكون أهلها من المغرَّفين ؟
لا ... لن أفعل حتى تعطينى موثقتك ، وحتى تقسمى القسم العظيم ، أنك
لا تبطنين لى شراً ولا أذى ! » .

وتبسمت الزبة الهيفاء ، وراحت تربت على خديه وهى تقول :
« ويحك اكيف تسيء بى الظن يا أوديسيوس ؟ أية حجة تملأ بها
يديك على ما قلت ؟ ولكن أصغِ إلى ... أقسم لك بقسم الآلهة فى
الأرض والسماء والدار الآخرة ... بالقسم العظيم الذى يقشعر لذكرك
كل شيء ... إنى لم أضمر لك فيما عرضت عليك شراً ولا أذى ... إن
الذى تبكى من أجله ، أبكى أنا أضعاف ما تبكى من مثله ، فلقد كنت
ضرورة من ضرورات حياتى هنا ، ولقد علق بك قلبى ، وهامت بحبك
نفسى ، وليس قلبى من صخر فيحتمل البعد عنك ، بله الإضرار بك » .

وانطلقا سويا إلى الكهف ، وجلس أوديسيوس فوق المتكأ الذى
كان يجلس عليه هرمنز منذ هنيئة ، ثم أقبل جوارى الماء يحملن شيئاً
كثيراً من اللحم والشراب فأكلا ورويا ؛ ثم شرعت كاليسو تحدّثه
وتقول :

أهكذا يا ابن ليرتيس العليم ، أيها الحكيم الصانع ، لا تفتأ تحن إلى
وطنك ، وتعتزم الرحيل إليه ؟ ولكن . لا بأس يا أوديسيوس .. فوداعاً !

ولكن هل فكرت أيها الرجل في الأهوال الجسام التي لا بد أن
تصلي بها قبل أن تصل إلى بلادك؟ أليس خيراً لك أن تظل إلى
جانبى، وتقاسمنى كهنى، فتصبح من الخالدين .. وتنسى هذا الجمال الفانى
الذى لا يتفك يُصْنِيك ويُصْبِيك ، والذى أحسب جمالى وفتنى
لا يقلان عنه سحراً إن لم يزيدا عليه فتوناً ١٢»

فيجيها أوديسيوس الحكيم . أيتها الربة المخوفة اهُوِّنى من
حفيظتك ! فأنا أعلم أن بنو بى العزيزة لا تزن من جمالك وفتونك مثقالاً
لأنها هالكة ، ولأنك من الخالدين . بيد أن الذى يُصْنِينى وَيَشْوُقْنى هو
وطنى .. وطى الحبيب الذى أحن إليه وأهيم به ، وفى سبيل العودة
إليه لن يخيفنى هذا اللشج المتلاطم ، فلةد بلوت الأعاصير فى البر والبحر
فى كَبَارِ الممعة ؛ وفى الفلك تحت كاسل الزوبعة ... إلى ، إلى
يا خطوب ، وأقدمى بكل حولك يا رزايا .. ،

وتوارت الشمس بالحجاب ، وأرخى الليل سدوله فوق الجزيرة ،
ونامت الربة فى سريرها الوثير ، وهى تفكر طول الليل فى هذا الفراق
المفاجئ .. حتى إذا نَضُرَتْ أورورا بالورد جبين المشرق ، هب
الإلفان وتدثرا ؛ هذا بثوبه الخشن ، وتلك بشفوفها الرقيقة الثلجية
الناسعة ، التى كأنما نسجت من نسات الصباح العطرى ، وراحت تخطر
فيثانة ريانة ، وقد اتشحت حول وسطها النحيل بقُرْطُق (١) جميل ،
وألقت على أسها بحمارٍ صفيق رقيق ؛ وقدمت إليه فأساً ذات حدين

(١) انقراط بضم القاف وفتح الطاء ثوب يشتمل به .

أحدهما كالساطور ، ركبت فيها يد من خشب الزيتون المتين ، ثم إزميلا
حاداً مرهفاً .. وبسارت بين يديه حتى كانا عند غابة عظيمة مُخترَفٍ^(١)
لا حية شاحبة ، بسقت فيها أشجار الحور والسنديان والشرين^(٢) ،
وتركت شمة ، وعادت أدراجها إلى كهفها .

ولم يهدأ للبطل المسكين بال ، بل شرع من فوره يقطع كل أيكة
عظيمة حتى اجتث عشرين من أكبر دوح الغابة .. ثم أقبلت كاليبسو
وقد حملت إليه آلات ساعدته على تشذيب الشجر ، واستطاع بعد لآي
أن يضم بعض الجذوع إلى بعض ثم كلها بكلا بات كبار ، وأفرغ في
وسط الرمث له ولما يحمل مكاناً أميناً ، كأحسن ما يصنع السفانون ..
ودعم ذلك جميعاً بالواح ودُّسر ، وصنع قلعاً وجعل في القلع شراعاً
ثم سوى الشكان مكانه ، وجعل في الباطن صبارة^(٣) كبيرة تقي الرمث
الانقلاب ، ولم ينس أن يجدل جوانبه بفروع وأغصان تزيد في قوته
وتضاعف من مُنْتَسِبه^(٤) . وأتم صنع مركبه في أربعة أيام . وأنزله
إلى البحر في الخامس ؛ ثم أدخلته عروس الماء حمامها ففسلته وضمخته
بالطيوب والعطور ، وخلعت عليه من ديباج ثمين ، وزودته بزقين من
خمر وماء ، وأمدته بشيء كثير من طعام وأثواب

وودع عروس الماء المحزونة ، وجلس عند السكان ، ثم دفع
الرمث في البحر ، وابتعد رويداً رويداً

(١) مخرف أى أدركها الحريف ولا حية لا ورق فيها .

(٢) Fir (٣) أو صبرة بفتح الصاد قطعة حجر كبيرة يترن بها المركب في البحر

وتسمى في مصر (صابورة) . (٤) قوته

وكان قلبه يفيض بالبشر ، وصدره يمتلئ بالانشراح ... وظل
الفلك الصغير يجرى به سبعة عشر يوما ، وعينه في كل ليل ما تريمان .
عن الثريا في علياء السماء ، وما تفتران تنظران إلى نجوم الدب الأكبر
التي تقف للجبار (١) بالمرصاد ، كما علمته عروس الماء قبل أن يبرح .
أن يجعل هذا النجم إلى شماله أبداً .

ثم بدت جبال فيثشيا الششم كأنها دروع مسرودة فوق صدر
الأرض الشاحبة ... ولكن اوا أسفا ... لقد كان الجبار نبتيون
ثانياً عنانه من سوليا (٢) . فلبح أوديسيوس فوق رمثه يتواثب على هام
الموج ، ويقترّب من الشاطي ، فينجو إلى الأبد من بطشه ... وثارت
في نفس نبتيون - إله البحار ، وأعدى أعداء أوديسيوس - ثورة من
الغضب ، وظل يعلك هذه الكلمات في نفسه من فوق بطاح إيثيوبيا :
« وى ا أو قد تبدلت مقادير الآلهة إذن ، وتحركت فيهم عواطف
الحنان من أجل هذا الرجل أوديسيوس ، فقصوا فيه ما قصوا لأنهم
يسكنون السماء . ولم يالوا بي لأنى أسكن الأرض في إيثيوبيا ؟ إنه
يرى شاطي فيثشيا قيد وثبات منه ، وهو إذا قفز إليه أصبح بنجوة
من هموم تترصده في كل موجة من موجات هذا اليم ... ولكن ...
لا ... لألهبته بألف سوط عذاب قبل أن يصل إلى البر ... » .

ثم إنه لاعب السحاب بصولجانه ذى الشعب الثلاث فانعقدت منه

(١) الجوزاء Orion . (٢) إحدى مقاطعات آسيا الصغرى وكانت تدعى

يسيديا .

ظلمات في أرجاء السماء ، وطفق يهز أعماق البحر فهاج وماج ، وتلاطم بالأمواج ، وصاح صيحة رياح المشرقين ورياح المغربين فاجتمعت إليه من كل مكان سحيق ... ثم هبت ريح الشمال الثلجية اللاخفة فانطفأ لآلاء النهار ، وأظلم الليل فجأة ، وطفى العباب وشابت نواصيه بالزبد ، وتناوح الموج الغضوب حول الرمث ، وهلع فؤاد أوديسيوس وأصبح قلبه فارغاً ، وطاشت أحلامه وذابت أمانيه العذاب ، وراح يحدث نفسه هكذا . « يا لتعاسي ! أي قدر قاسٍ يترصدني ؟ لقد أنذرتني ربة الماء مغبة هذه الرحلة الهوجاء في البحر فما صدقتها ، وتنبأت عن الشدائد التي تعتور طريقى إلى الوطن ، فما هي ذى تتحقق ! أية أعاصير هوج وأى موج ينتفض من الأعماق قد سلطه جوف على هذا البحر ! بعد لحظة أغوص في ظلمة هذه القبور التي ينشق عنها الموج ! ألا لينى مت قبل هذا وكنت نسياً تحت أسوار اليوم ، يوم أوشكت أن أقضى ثلاثاً في سبيل إيقاظ الأتريدس (١) أو يوم أوشكت أن أصرع برماح الطرواديين إذ أدفع جموعهم عن جنة أخيل ! ! أجل ! لو أننى مت ثمة لأقيمت من أجل الطقوس الجنائزية ، وأُدِّيت إلى الشعائر الدينية ، وذرف فوق قبرى كل يونانى أغلى دموعه وأعز عبراته . وتفاديت هذه الموتة المحمولة التي تسكاد تلتقمى ! » .

ثم كانت الطامة ... فإن موجة كالطود فجأة ... فبعثرت الرمث ... وأقلت مقبض السكان من بدى أوديسيوس ، فانتثر في اللجة ، ثم غاص في أعماقها . وعبثاً حاول أن يطفو ... لأن الرياح تسكابت عليه من

(١) هوبت أجاممنون .

كل مكان ، وكلما نجا من موجة فغرت له فاهها موجة أخرى . . . ثم حدثت المعجزة . . . فقد وسعه بعدلأى وعناء شديد أن يرفع بنفسه دفعة اليأس إلى السطح ، وأن يملأ رثديه المنهوكتين ببنفسه من الهواء كانت تبرز بالماء الأجاج المتصبب من جبينه ، حتى لأوشك أن يفص بها . . . لولا أن لطف به الصدفة ، فرأى الرمث قريباً منه ، وقد انتزعت العاصفة قلبه وشراعه ، فسبح إليه وأمسك به ، ثم استوى عليه ، وتركه للهوج ، تلعب به واحدة ، وتعبث به أخرى ؛ وتجمع عليه الرياح عن شماله ويمينه ، ومن خلفه وقدامه ، حتى قيّض له القدر عروس الماء (إينو) ابنة قدموس ، التي كانت تعيش في البر . وتعرف فيه بهذا الاسم ، والتي اتخذت اسم (ليوكوتيا) بعد أن نزلت إلى البحر وأحبها أحد الآلهة فوهبها الخلود . . . لقد تفجرت في قلبها شأيب الرحمة من أجل أوديسيوس لما رآته في هذا الروع الذي ليس كمثل روع ، فسحرت نفسها ، ووثبت على الرمث في صورة خطاس الماء . ثم قالت له : « ويحك أيها البائس ! فيم أثرت غصبة نبتيون عليك حتى ليتبعك سرباً في شعاب البحر » ويصب عليك كل تلك الرزايا . . . ؟ على أنني أنصح لك أن تدفع هذا الرمث ، تدافعه الرياح حيث تشاء ، ثم تخلع ملابسك ، وتقفز في الماء . وتسبح بقوة وجلد حتى تصل إلى شطآن فيثشيا ، حيث تسلم بنفسك . وتكون بئامن من بطش هذا الجبار . خذ ، هاك زناراً (١) من حرير من حباكة السماء ، ملفه تحت صدرك ، فإنه يجعلك بئامن حتى من مجرد

(١) الزنار ما يلبسه انقيس حول أوساطهم .

التفكير في الموت ، فإذا وصلت سالما إلى الشاطئ فارمه بكل ما أوتيت من قوة بعيداً في البحر ، وأدر وجهك بمجرد أن تفعل ، بشرط ألا تنظر إليه وهو يسقط في الماء .

وسلت إليه الزنار الموعود ، ثم غاصت في الماء ، وبقي أوديسيوس مكانه في حيرة شديدة وحزن عميق ، ثم أفاق من غشيته وجعل يهرف هكذا : « أوه أترى؟ أذاك شرك آخر تدبره الآلهة لي ! ولكن لا ... ان أبرح مقبياً فوق الرمث ، فالبر بعيد ، ولا ظل مكاف مادامت الجذوع مكلّسة هكذا ، فإذا حطمتها يد الحداث فلا فعلن كما أشار الإله الذي كان يكلمني منذ لحظة وما كاد يفرغ حتى أرسل عليه نبتيون موجة جارفة حطمت رمثه ، وتركته عالقاً بأحد الألواح ... وأسرع أوديسيوس فخلع الرداء الجميل الديباجي الذي خلعتة عليه كاليسو ، ولف الزنار الموعود حول صدره ، وقنف بنفسه في الماء ... وراح يسبح !

وكان نبتيون الجبار يرى بعينه ، ويشفي حرّده (١) ، ويقول في نفسه : « ذُقْ يا أوديسيوس وبال أمرك في هذا الطوفان ، قبل أن تفصل حبالك بحبال الشعب الذي هو حبيب الآلهة ، وسترى ثمة هل تنتهي آلامك ! »

وحدث ثمّ طيه حتى وصل (إيجيه) حيث يشرف قصره المنيف .

وكانت مينا فتشهد الكفاح الهائل بين أوديسيوس وبين اليم ، فأطلعت من عليائها ، وداعبت الرياح حتى استقامت وونت ، ثم أطلقت بوريس ، ربح الصبا الشمالى الكريم فجرى (٢) رخاء ، يدفع

(٢) الضمير عائد على بوريس وهو مذكر

(١) غضبه وغبطه

أمامه البطل العظيم الذى ظل يناضل الموت ويصرعه يومين أطول من
دهر ، وليلتين أحلك من غيابة جب ، حتى إذا غابت أورورا فى اليوم
الثالث، استطاع أن يرى الشاطئ على مرمى البصر ، وهو فوق موجة عالية .
ما أحلى الأمل الذى يحيا بعد يأس ! لقد كان أوديسيوس ينظر
إلى التلال والجبال القرية ، والغابة النائمة فى أحياها (١) ، كما ينظر
الأطفال الأبرار إلى أب لهم أنهسكته العلة ... ثم تماثل للشفاء بعد
تسليم وقنوط !

وتحسس الأرض بقدميه ... ولسكن ... وأسفا ! الأعماق
الهائلة ! والصخور والأواذى ! والموج الذى يرتطم بأقدام الجبال
فيُزغى ويُزبد ... !

لم يكن بهذه الجهة مرفأ ، ولم تكن تيجوس خلالها سفن ... ولقد
ظل أوديسيوس يكافح ويكافح ... حتى غم على قلبه ، وكاد يتغشاه
طائف من الخور ، بعد أمل وطيد !

وجاشت الوسائوس فى قلبه ، وطفق يحدث نفسه حديث الهلك
فى هذه اللجة الرجراج ...

وكان أخوف ما يحشاه أن يدفعه الموج على تتوء الصخر فيحطمه ،
أو أن تلمحه أمفترتيت ، زوج نبتيون ، عدوه اللدود ، إله البحر .
فتسلط عليه من وحش الماء ما يلقفه ، أو يقذف به إلى أعماق الأعماق ...
كرة أخرى .

وبينا هو فى بحر من ماء ومن هواجس ، إذا موجة هائلة
يضطرب بها اليم فتدفعه فى قوة وعنف إلى الشاطئ ذى التتوء والنوى

(١) جمع حيد وهو جانب الجبل .

فتمكثدق عنقه ، وتذرو عظامه ، لولا أن قبض بذراعيه الجبارتين على حافة صخرة بارزة ... فظل معلقاً ثمة حتى أقبل جبل آخر من موج البحر فاحتمله إلى الأعماق كأنه أحد سراطين الماء ... وجاهد المسكين ثانية وثالثة حتى تدافع الموج من خلفه فقفذه في مسيل من مسایل الماء المنتشرة على الشاطئ ، وعندها ، ظن أوديسيوس أنه بنجوة لولا تيار النهر الذى كاديسابه بدوره للبحيط ، مما جعله يضرع لرب النهر ويبتهل ... ويدعو من أعماق قلبه ويصلى ، حتى استجاب الرب الرحيم لصلانه ، فكسر حدة التيار ، وقلّ من غرب الماء ، واستطاع البائس المنهوك أن يصل إحدى العُدتَين (١) واهياً متهاكاً محطاً ... فانطرح على الثرى يقبله ... ويلهث ويقول :

« وبح نفسى ماذا تبغين يا آلام ! لقد أقبل الليل وأنا عيىٌّ مصدع . ولا قبّلْ لهذه البقية من حشاشتى بِطَلِّ العِشاة وصقيع الفجر ... فلو أننى استطعت أن أتسلق هذا الحدور فالوذ بأجمة من هذه الغابة ! ولكن اوىّ ! أى وحش ضار يغتذى بلحمى ثمة ؟ » .

يَبْدُ أنه توقل (٢) فى الجبل حتى أوشك أن يضرب فى الغابة ؛ ثم كان بين زيتونتين إحداهما مشمرة ، والأخرى عقيم ، كل منهما لفساء شجرا حتى لا تنفذ الريح بينهما ، ولا تنسرق أشعة الشمس خلالهما ، ولا الماء بواصل إلى من استدرى بهما .

هنا ... وجد أوديسيوس مأمنه ، .. فراح يهد الأرض ، ويللم ما استطاع من قش ويختطب ، حتى صنع لنفسه منامة تكفى اثنين غيره ، من الضاربين المشردين فى الأرض ، ودعم حفافها بفروع الشجر ...

ثم أسلم عينيه لنوم هادئ عميق ، سكبته مينرقا في كاتما مقلتيه .
فله ما كان أروعه غاراً في هذا السفط من القش ، كشعلة من
زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يعتز بها ريفي شاب في قرار مكين (١) .

* * *

نام أوديسيوس منهوك القوى .
وذهب مينرقا تدبر له أمراً في شيريا ، بلد السلالة ذوى الحمد من
أبناء فياشيا --- ملوك البحر الذين فروا من وجه جيرانهم الجبابرة
السيكلوبس --- في العصر الخالي ، ونزلوا بهذا البلد ، فشادوا حصونه ،
وأقاموا أسواره ، وتوزعوا أرضه المخصبة ، وأسكنوا الدور
والقصور ، وأنشأوا المعابد للآلهة عرفاناً وشكراً .
وقضى ملكهم وزعيمهم نوزيتوس ... ثم استوى على العرش
من بعده ألكينوس ، حبيب الآلهة ، وصفى السماء .

* * *

كانت الأميرة الحسنة ، نوزيكا ، ابنة ألكينوس الملك ، تغطئ
كالملاك في نوم عميق بين وصيفتين رائعتين من وصيفاتها ، فوق سرير
وثير في مخدعها الملسكى الفاخر .

وكان رواج الباب محكما كأنه رواج باب الجنة ، ولكن ذلك لم يقف
بسييل ربة الحكمة مينرقا ، التي خطرت إلى الداخل كنسمة نادية
من نسيمات الصباح ، ووقفت لدى رأس ابنة الملك تزخرف لها هذا
الحلم الفضى الجميل ، وكأنما تبدو لها في المنام في صورة صديقتها وأعز
أترابها ابنة ديماس السكريم :

(١) كانت النار في الزمن القديم أغلى ما يعتز به الناس .

« نوزيكا ! يا ويح لك أيتها الثوم المكسال ! أهكذا تهملين ملابسك وأنت موشكة أن تُزفي إلى عروسك » ، وعليها يتوقف مظهرك ومنظرك ورؤاؤك ، ورواء حاشيتك ووصيفاتك ، كما يتوقف عليها زهو أبويك بين الناس . انهضى مع الفسق (١) فاذهب بمطارفك (٢) إلى المغتسل عند ضفة النهر فاغسلها وأعديها ليوم زفافك ، يوم تودعين مراح هذا الشباب الخالي ... هلمي ! إني سأعاونك ، أنت ياساحرة ألباب شباب الفياشييين ! سلى أباك أن يرسل لك عربة وبغلا تحمل ثيابك ومطارفك إلى عمدة النهر حيث لا شاهد ولا رقيب .

وانفتلت ميزفا ذات العينين الزبرجديتين ، ورقت أسياح السماء حتى كانت فوق ذروة أولمب ... حيث السكون والهدوء والصمت ، وحيث مستقر الآلهة ، وحيث لا تعصف ريح ولا يتلبد سحب ولا تدمع عين مطر ... وحيث السماء لازوردية صافية إلى الأبد .

* * *

وخطرت أورورا فوق عرش المشرق ، وأرسلت من لئنها أمينا من رسل النور يداعب جفني نوزيكا . فهبت وحملها الجمل لما يفتأ يساور رأسها الصغير ، وهومت من فورها تبحت عن أبويها تقص عليهما أبناء مارات . وقد ألقت أمها لدى المدفأة مكبة على غزل من صوف أرجواني مؤشئ بصبح بحرى ، ومن حولها وصيفات يساعدها ... ثم لقيت أباه يكد يذهب ليتراأس مجلس شيوخ

(١) الفلق أول ضياء الصبح . (٢) جمع مطرف بضم الميم وفتح الراء الرداء .

المملكة ، فاستوقفته و كلمته في العربة ، واحتجت بملايس لإختها
الخنسة الذين يستحيون أن يراقصوا العذارى في الحفلات بملايس
لاتليق بأبناء الملوك ... وعقد الخجل لسانها فلم تذكر مطارف زواجها
وشفوف (١) زفافها ... ولم يبخل أبوها بما طلبت ، بل أمر لها بعربة
كبيرة عتيده ودواب ، وزودتها أمها بأشربات وآكال وطيوب
ومرؤخ (٢) .

واستوت مع وصيفاتها في العربة رساطت البغال فانطلقت تطوى
الرحب إلى النهر حيث وقفت عند منعرج يترقرق فيه بلور الماء ،
معتدفاً من نبع قريب . وسرحت الدواب لترعى العشب الحلو النامي
على جفافي الماء ، ثم أخذن في غسل المطارف ونشرها فوق حصباء
الشاطي الذي طممه المد ونضحه الجزر ، واغتسلن بعد ذلك
وتضمخن ، وجلسن على شفا النهر يتبلغن بلقعات ، ثم نهضن فتلاعبن
بالأكر ، وتغنن ابنة الملك أعذب الأغاني ، وثنت كما تثني ديانا في
شعاف الجبال وفي يدها القوس والترس ، تصيد الخنازير في
أريمانت — ومن حولها رب رب من عذارى الآلهة ، وابنة لاتونا (٣)
تنيه عليهن وتدلل .. كذا كانت تميمس ابنة الملك فيكسف لآلاؤها
جمال الآخريات .

وهنا ... شاءت مينرفا أن يهب أوديسيوس من نومه ، ليشهد
الغادة الهيفاء التي كتبت في الأزل أن تقوده إلى المدينة ، فقيما كانت
نوزيكا تضرب الكرة لتلقفها إحدى وصيفاتها ، إذا هي تعلو وتعلو ،

(١) جمع شف بفتح الشين الثوب الرقيق جدا . (٢) ما يمسح به الجسم من دهن أو
طيب أو غيرها . (٣) هي ديانا .

ثم تدوم كما يدوم الطائر وتهوى في العباب المصطخب . .
 وصرخ العذارى صرخة مدوية ، فانتفض أوديسيوس وهب
 مدعوراً مشدوهاً ليرى هذا المنظر العجيب !
 ويحيى ! أى بنى الموتى قُطَّان هنا ؟ ليت شعري أشوس
 عرايد أم كرام أجويد ! أوه ! إنهن عرائس ماء تفسر عن فرجعت
 الغيران أصداء صراخهن ، وتراقص الحجاب فوق العباب من
 جرسهن ، وتثنى السكالا نشوة في الوادى ! لأدلف نحوهن فأرى
 إليهن ... ، .

وخطر من دغيلته^(١) خطر أن الأسد هاجته العاصفة ،
 فانقدت في عينيه جمرتان من غضب ، أو ظمى فاشتدت غلته إلى
 الدماء ... ونشط نحو العذارى ، فما إن رأيته حتى تفرعن وولَّين.
 مدعورات في الشاطئ ذى النوى ... إلا نوزيكا ! فقد نفخت فيها
 مينرفا من روحها ، ونزعت من فرائصها رجفة الخوف ، فوقفت.
 شماء الأنف تنتظر القادم ...

وارتبك أوديسيوس ولم يدر ماذا يصنع ؟ أيجثو تحت قدميها
 يتوسل ويتضرع ، أم يقف عن كسب يستعطف ويسأل الفتاة دثاراً ،
 ويرجوها أن تهديه إلى المدينة ! وآثر الثانية فتلطف ، ثم قال .

« عمرك الله أيتها المسكدة ! أرربة من الحالدات ، أم حسناء من
 بنى البشر ؟ أضرع إليك أن تجيى ! فإنك إن كنت ربة ، فما
 إخالك إلا ديانا ، ابنة سيد الأولمب ! ولم لا ؟ ولك قسامتها

(١) الدغيلة والدعل التجر الملف .

ووسامتها^(١) وقدما الممشوق ، وحسبها السويّ وجمالها الروي !
أما إن كنت إنسية ، فما أسعد آلك بك ، ولشد ما يزهون بجمالك !
كلما خطرت في ملعب ، أو بدّحت^(٢) في مرتع . . . ثم ما أسعد
الزوج الذي سيحظى بكل ذلك الجمال ، لا يضارعه في العالم جمال ! !
ألا ما أروع ما تبدين كالنخلة اليانعة في ديلوس عند مذبح أبوللو ،
أيتها الأميرة ! ألا كم أتمنى أن ألثم قدميك ، لولا ما ينتابني من
روع ، ويؤودني من فزع — أنا — ذلك المُعَسَّى المحزون
المشجون — أنا — ذلك العيسى الموهون الذي أفلت من يد المنون
أمس ، بعد إذ كثر له عن نابه في ذلك البحر اللجج ، بعد سفرة
عشرين يوماً من أوجيجيا ، وسط أنواء وأهوال ، وموج كالجال ،
حتى شاءت العناية أن تطرحني بشطآنكم الحبيبة ! ولست أدري
ما خبأت لي المقادير بعد ! ولكن ، هل ترثي مليكتي من أجلى ، وهي
أول من لقيت في هذه الأرض بعد طول عنائي ، فترشدني إلى مدينتها ،
وتسبغ علي — أسبغت عليها الآلهة كل ما تتمنى من هناءة
وبأسهنية^(٣) ، وقران قوى العرى لا تتناول إليه أعين الأعداء —
دثاراً يسترسوء في ؟ .

وأجابته نوزيكا : « حباً أيها الغريب النازح وكرامة ! إن سيباك
تدل على نبل ، وسميتك يني عن رفعة ! اضطرب على ما ابتلاك به
كبير الآلهة الذي بيده العزة ، يشقى من يشاء ، ويهب لمن يشاء ، وإن
سأدلك إلى المدينة ، مدينة الفيّاشيين ملوك البحر ، التي أنا ابنة ملكها
العظيم ألكينوس ، رب نعمائها ومصدر رخائها » وأومات إلى وصيفاتها

(١) القسامة أو الوسامة الحسن . (٢) مشية الحسناء . (٣) سعة العيش .

تقول : « مكانكن يا عذارى ! فيم فراركن هكذا من إنسى كريم ؟
لقد أبت الآلهة أن تطأ قدم عدو أرض أحبائها ، بلادنا المقدسة ،
التي انعزلت في لجج هذا الخضم عن كل العالم . إنه غريب يا عذارى ،
جواب آفاق ، قذفه البحر إلى شاطئنا ، فرحباً به ضيفاً من لدن
زيوس ، وأهلاً بوفادته وسهلاً ... هلم إذن يا مصويحيبات فقدمن له
طعاماً وشراباً ، ثم هيئن له حماماً في منعرج ظليل عند حفاى النهر » .
وأُهرِع البنات فقُدن أوديسيوس إلى منعرج ذى ظلالٍ
وأفياء ، وأعددن له ثوباً وكساء ، وهيئن طيوباً يتضمنخ بها إذا فرغ
من حمّامه ، وسألهن أن يذهبن بعيداً حتى لا يتعرى أمامهن ، إذ
« ... لشد ما ينجلى أن أبدو عارياً أمام الخُرد^(١) الحفريات ا » ...
وتهادين إلى مولاتهن يحدثنها بما قال : بينا هو قد انقذف في الماء يغسل
كاهله وحقنونه بما جمد عليهما من ملح اللجة ، وصعد فتضسّمنخ
بالطيب الثمين ثم أسبغ على بدنه العتيد ذلك الكساء التي منحتة إياه
نوزيكا ، ومن أعجب العجب أن مینرفا نفسها كانت تعاونه في تجميل
خلفه ، وتزيل من شعره الكث الأشعث تلبداته التي كانت تبدو
كأنها أزهار الخزامى .. ثم هى بعد كل ذلك تضي عليه أمواها من البهاء
تظلل بها صدره ، كأنما هى فلكان الصنّاع يعمل حلقة من فضة
وذهب ، وجلس على الشاطئ في رونق وروعة ، حتى إذا لمحتة
الأميرة العذراء أذهلها جماله ، وقالت لوصيفاتها . « تالله

(١) جمع خريدة . الحساء .

باصْوَيجِيَّاتٍ لقد شككت في حال هذا الرجل اول الامر ، ولقد حسبته آفاقياً من رعاك الناس ، لولا أنني أثق أن الآلهة لا تسوق إلى بلادها الحبيبة هذا الصنف من البشر ... أما هو الآن ، فلشد ما يشبه أرباب السماء ! أو اه ! لوددت أن يكون لي زوج في بهائه وحسن سمته ، على أن تبقى آخر الدهر هنا ... هلم يا وصيفات ... قدمن له طعاماً ونخراً .

ومددن أمامه سماً كبيراً ، وزودنه بأحسن الإشرابات والآكال ؛ وأخذ أوديسيوس في إكاته حبيساً متادباً ، يرد عنه تلك المسبغة الطويلة التي أنهكت قوته .

ووضعت أحمال المطارف والسياب فوق العربة ، وشدت البغال . واستوت الأميرة في مكانها ، ثم هتفت بأوديسيوس فقالت له : « هلم أيها النازح الغريب ! إلى المدينة إذن ! إني سأرشدك إلى قصر أبي ، حيث تلقاه في جمع من أشرف الفياشين وسنطلق وسط هذه الحقول . وإن لي معك من أجل هذا الكلمة ... لقد بنيت مدينتنا فوق صخرة راسية ، وأحاط بها سور عظيم ، ثم وصل بينها وبين أرضها جسر ضيق تقرر على جانبه سفائننا ، رابضة متراصة ، ثم ينهض عندها معبد نبتيون العظيم ، وبجواره سوق المدينة المبني من الحجر الصلد ، حيث تباع جبال السفن وشراعيها ، وحيث تصنع مجاذيفها أو أكثر عتادها — لأن الفياشين لا يعنون بشيء عنايتهم بهذه المنشآت في البحر كالأعلام — والذي أخشاه أن يرانا الناس ثمة فيستهزئوا بنا ، وقد يسلقونني بالسنة حداد ، قائلين في سفاهة وتندر : ترى ؟ من يكون

هذا الغريب النجيب المرقلي الذي يقص أثر الأميرة ابنة الملك ؟ أى صدفة جمعت شملهما يا ترى ؟ سرعان ما نراها تزف إليه عروساً كاعباً ... قد يكون ضيفاً غير محمود من أرض نائية ؛ أو ربما صادت بصلاتها وتسبيحها واحداً من الآلهة أبق من السماء ليقرر معها إلى الأبد ... الحمد لله الذى من عليها بزواج سعيد من بلاد غريبة يشبع أمانها الجائعة بعد أن رفضت الأيدي الكثيرة التى تقدمت إليها من أبناء الفياشينين ، ... هكذا سيقول الناس إن رأونا أيها الرجل ، ولهم الحق ، فأنا نفسى لا أعنى من اللائمة فتاة عذراء تستبجح أن تمشى مكشوفة مع رجل غريب قبيل عرسها ... ولكن أصغ إلى : إنك واصل حتماً إلى أبى إذا اتبعت نصيحتى ... بعد قليل سيصل ركبنا إلى حرج أشجار الحور المقدس النامى فى تخوم الطريق باسم ربة العدالة والحكمة مينرفا .. وإن عنده لنبعاً يترقق وسط كلاً وأعشاب ... وإن عنده لحديقة أبى ، الجنة الضحوك الغنماء اقف ثمة حتى إذا دخلنا نحن المدينة وحصلنا فى بيت أبى ، فتقدم أنت وادخل المدينة واسأل أيئاً من الناس ، ولو طفلاً يافعاً ، عن قصر ألكمينوس الملك ، أبى الحبيب ، فإنه معروف مشهور لا يضارعه منزل آخر فى سعته وأبهته . فإذا دخلته فلا تتوان لحظة ، بل سر قدماً حتى تلقى أمى جالسة لدى الموقد المتأجج بجانب عمود مرمرى ، مكبة على غزلها الصوفى الموشى بأصباغ البحر ، ومن حولها وصيئاتها يعاونها فى إنجازها - وقرىياً منها ترى أبى مستوياً على عرشه يطعم ويشرب كأحد آلهة الأولمب ...

لا تسكلمه ... بل جاوزه إلى أمى الرؤوم ، ثم سل حاجتك تقضها لك ،
وتسعيدك إلى وطنك مهما كان سحيقاً نائياً ... أثرى في صميمها عاملاً
الخير والمحبة ، تردك إلى آلك وذويك وبلادك ... وسلام عليك ،
ثم إنها ألحبت ظهور البغال فانطلقت تعدو مولية عن النهر الذى
صار يبتعد قليلاً قليلاً ... وكانت نوزيكا آخذة بزمامها لتكبح من
جماحها ، حتى لا تفوت أوديسيوس من ورائها .

وكانت الشمس تصبغ بالورس^(١) جبين المغرب حينما وصل
الركب إلى حرج مينرفا المقدس ، الذى نهض حوره الباسق فى السماء
نضراً ملتفاً كأنما يناجى ابنة جوف ، المدرعة بإيجيس^(٢) .

وهنا ... وقف أوديسيوس يصلى لمينرفا :

« يا ابنة جوف القوى المتعال اسمعى لى ! أصيخى الآن ياربى !
لقد تصامت عنى إذ كانت اللجج تلحقنى فراعينى الآن ! اجعل لى مرفقاً
من أمرى ، وهب لى محبة ورحمة فى قلوب أبناء الفياشين أنسى بها
آلامى ... آمين آمين !

ولبت ربة الحكمة واستجابت لدعائه . بيد أنها ، احتراماً لعمها
(نبتيون) الذى لا يفتأ يقتفى أثر أوديسيوس عدوه الأكبر ، لم تشأ
أن تبدوله .

وفرغ أوديسيوس من صلاته ، ووصلت عربة الأميرة إلى القصر
فلقيها إخوتها الأمراء الخمسة النشجُب ، غلوا الدواب وحملوا المطارف

(١) الورس صبغ بين الأحمر والأصفر .

(٢) كانت مينرفا تلبس درعا تسمى إيجيس .

والثياب ، وصعدت هي إلى مخدعها حيث كانت خادمتها العجوز الشمطاء
(يوريمديوسا) تسعني بنار المدفأة .
ولم تكذب يور ترى سيدتها حتى حيثت وبيتت ، وانطلقت تعيد
لها وجبة المساء .

أما أوديسيوس فقد هب من مجلسه ، وبمم شطر المدينة ، وقد
نشرت حوله مينرفا — صفيته الوفية — ظلالاً وغماماً يحجبه عن
أعين الناس حتى لا يضايقه أحدهم بسؤاله من هو وفيهم أقبل ومن أي
الآقطار جاء ... بيد أنها لاحت له قبل أن يبلغ باب المدينة في هيئة فتاة
قروية كاعب تحمل فوق رأسها جرتها ... وتعمدت أن تعترض طريقه
فاتهمزها فرصة وراح يسألها هكذا : « يا بنية ! أأسمحين فتدليني على
بيت رب هذه البلدة ، ألكينوس الكريم ؟ لقد نال مني الواني (١)
وطول السفر ، وحللت عليكم يا أهل فيشيا الأجاويد ضيفاً غير
معروف ، من بلد سحيق ، فهل تفعلين ؟ »

وقالت مينرفا — ذات العينين الزرجيتين — وهي تجيبه :
« حباً أيها الغريب الوقور وكرامة ! سأدلك على بيت ألكينوس
بنفسى . فهو غير بعيد من بيت أبي ... واسكن لي إليك وصية ...
أصحت ما دمت سائراً ، ولا تحدج أحداً بنظرة ، ولا تكلم من أهل
هذه البلدة إنسياً ، فقد جبلوا على ازدراء الغرباء وقلة إيلافهم ، وتلتهمهم
في فتور وبرود طبع ، وقد أحبه نبتيون رب البحار فأذل لهم أعناق

الموج وأساس لسفنهم أعراف الماء ، فهي تحظر فيه كالطير حين تزيّف
أو كالفسكرة حين تحظر في الخلد .

وتهادت ربة الحكمة بين يديه ، ودلف هو وراءها ، ولم تره جموع
البحارة الحاشدة التي كان يسير بينها ، لأن ميرفا ضربت على أعينهم
غشاوة عجبية حجبت عنهم ؛ وكان ينظر بعين الدهش إلى مينائهم
وسفائنهم ورحبة السوق التي يأوى إليها أبطالهم ، وإلى تلك القلاع
المحدقة بالمدينة في أبهة وجلال ، ثم بلغا بيت الملك ، فقالت ميرفا .

« هاك يا أبتاه القصر الذي سألت أن أدلك عليه . وستلقى فيه
رؤساءنا وأمرأنا أصحاب السمو يولمون ويقصفون ، فلم فالقهم بقلب
رابط وجأش ثابت ، فهم أشد الناس إعجاباً بشجاع جرىء ، وأكرمهم
للأجىء غريب . وستكون الملكة أريتسا — سليلة الشرفاء الأجداد
آباء ألكينوس الكبير ، وحفيذة المردة الجبارة من ذرارى نبتيون^(١) —
— أول من تلقى . إنها سيدة قومها ، وهى محبوبه مبهجة إلى درجة
التقديس من زوجها وأبنائها ومن جميع الفياشين ملوك البحار ، الذين
طالما تسككبوا حول موكبها في شوارع المدينة هاتفين داعين ... إنها
تجلس وقوراً كإحدى ربات الأولمب فتغمر بالمحبة أبناءها . وتقضى
فيما يشجر بينهم ... لك الله يا سيدى إن قدر لك فاستطعت لقاءها ...
إنها إذذن تمنحك برّها وتُسبِغ عليك من بركاتها فتعود إلى بلادك
راضياً ، وتلقى آلاك وخلانك عزيزاً مكرماً ،

(١) آثرنا ألا نثبت هنا ما ذكر هومر من انساب مخافة الإملال .

ثم غابت مِينرًا عن الأنظار ، وغادرت أرض شيريا الحبيبية إلى
مِرثُون - ومن ثمة رفَّت رقة فكانت في أثينا حيث أوت إلى
قدسها الكريم إركتيوس .

ودخل أوديسيوس قصر الملك هيباً متخاذلاً ، غارقاً في بحر لجى
من الوهم والفكر ، لأنه ما كاد يطأ بقدمه وصيد الباب الكبير حتى
بهرد للاء شديد خاطف ينبعث من الداخل ، يزيد في شدته ولمعانه
تلك الجدران المصفحة بالنحاس ، يزينها إطار من اللازورد الأزرق ،
وتلك الأبواب الهائلة من الذهب الخالص ، والعماد السامقة من الفضة
المجلموّة ، تسكاتها تيجان من النضار الثمين . وعلى اليمين .
وعلى الشمال ربضت كلاب من ذهب ، صنعة قلـكان ، صنّاع
السماء الخالد ، وخالد أبد الدهر كل ما صنعت يدا قلـكان . ثم تلى بعد
ذلك ردهة فسيحة مزينة صُفّت إلى جدرانها كراسى كأنها عروش ،
وبثت فوقها نمارق ذوات أفواف وشفوف . صنعة وصيفات القصر ،
وهنا ... يولم الملك لأمرأ شيريا ... فيقف الولدان في جلايب من
ذهب ، وفي يد كل شعلة تسكب الأضواء من فوق المذبح على جموع
الطاعمين في كل ليلة ... يا للقصر كأنه جنة الخلد ؟ ... إن خمسين
من غيد شيريا الرعايب يخدمون الملك ثمة ، يطحنّ القمح وينخلن
الدقيق ، ويندفن الصوف ويعملن على النّول ... مائسات كأفنان
الدوح يداعبن النسيم الحلو ... حاذقات في الغزل والنسج كأحذق
ما يكون بحارة شيريا في عنفوان العاصفة .. قد ثقن صناعتهم عن
مِينرًا فافستين وأبدعن إبداعاً . ثم تكون البوابة الكبرى ، حيث

غردوس القصر اليانع ، وجنته دانية القطوف ، ذات الأسوار المنيعه
 المحيطه بهذه الأربعة الأفدة ... للآلهة هذا الدوح قد بسق في جنباتها ،
 وللآلهة أشجار الرمان المشقلة بأثمارها مفتره عن شفاء الأفاح (١) ، وحمرة
 الخجل قد خضبت حدود التفاح والكمثرى ، وسالت قطرات من
 الشهد في ثمرات التين ، وأججت أنواراً زاهية في أفنان الزيتون ..
 فأكهة شهية جنبية لا مقطوعة ولا ممنوعة شتاء وصيفاً ، يانة أبدا .
 تداعها أنفاس زفير رب الصبأ فتشيع فيها النضج والنماء ، كلما قطفت
 يد من جناها ثمرة نمت مكانها في الحال ثمرات ، فما تقل آخر الدهر
 قطوفها وما تنقص .

وخلال هذه الجنة المثمرة تمتد الكروم ذوات الأعناب والرطاب
 والعناقيد من نور ، بعضها يعصر فتقطر الخمر منه ، وبعضها يحف على
 سوقه فيكون زيباً جلياً ... ثم توشى أطراف الحديقة أحواض من
 الزهر المشدب المنسّق ، وتنفجر في وسطها عينان نضاختان . يترقب
 الماء من إحداهما كاللجين في مسابيل هذا الروض ، وتدفق مياه الأخرى
 في نهر صغير ينساب إلى المدينة من تحت عتبة القصر ، فيرتوي
 الأهليون منه .

مملك كبير وآلاء وافرة أسبغتها الآلهة على الكينوس الملك !



وقف أوديسيوس مسبوه اللب ، مشدوه العسكر ، يردد طرفه في
 هذا المنظر العجيب ، ثم أفأى فخطر إلى الداخل ، حيث اجتمع زعماء

(١) زهر الرمان الأحمر .

المدينة وشيوخها يصون الخمر باسم هر من رسول السماء تقدمةً وقراباً وصلاة لحاتم أرباب الأولمب قبل أن يأووا إلى مضاجعهم . ولم يلبث عندهم ، بل تقدم في خطي حثيثة برغم إعيائه ، وكانت ميرفاً تحجبه في ظلال كسيفة من أعين الملائ ، حتى وصل إلى حيث الملك والملكة ، فكشيف عنه غطاؤه ، وجثا عند قدمي الملكة يبث شكاته بين دهش المملكين الكريمين وشدة تحيرهما :

« أريتا يا ابنة ركتور صني الآلهة ! أتوسل إليك وإلى المليك العظيم . وأضيفكم النبلاء ، من الله عليهم ، وضاعف لهم آلاءه ، وأنعم على ذراريهم وألف بين قلوبهم وقلوب رعاياهم ، أتوسل إليك يا سليلة المجد ضارعاً أن تعطيني عليّ ، وأن تُكسري مشواي ، وأن تعينيني على الرحلة من فوري إلى بلادى التي أتحرق إليها شوقاً ، والتي فصلتني عنها أهوال وأهوال ! » .

وساد سكون عميق وصمت ، وظل البطل المسكين جائئاً عند حافة الموقد المتأجج ، حتى تفجرت شآبيب الرحمة والحنان في قلب إخنيس . ابن الملك البكر ، فراحت الكلمة الطيبة تتدفق من فمه الجميل العذب في فصاحة وتبيان ، وحكمة تقليدية ، وخير ، حيث قال :

« حاشا لمجذك أيها الملك أن تدع هذا الغريب جائئاً هكذا في غبار الموقد وفي وهج النار ، وأن تترك أضيافك ينتظرون أمرك . . . وما تُكلم منهم أحداً ! ألا نخذ بيد الغريب وأقعده مقعد الندى ، ومُرِّ السدّمان يسقه من كأس جوف كبير الآلهة ، وحيب الغرباء وذوى

الحاجات ، والنادل يهيئ له عشاء مما تبقى من وليمة الليلة . .

وما كاد الأمير يفرغ من قوله ، حتى أنهض الملك أوديسيوس وأجلسه على كرسي فخم جانب ولده الحبيب الحكيم لأوداماس... ثم أقبلت إحدى وصيفات القصر فصبت الماء على يديه من إبريق فضي ، ثم أحضرت مائدة حافلة بأشهى الأكل وأطيب اللذائذ والأشربات ، فأكل أوديسيوس وارثوى ، وأمر الملك كبير السقاة بونتونوس ، فخرج الراح وقدمها إلى الجميع حيث صبوها تقدمه لجوف رب الصواعق وكبير الآلهة ، وحبيب الغرباء ، وحامي ذوى الحاجات ، ثم شربوا بعد ذلك حتى روّوا .

وقال الملك : « أيها الرؤساء والشيخوخ الفياشيون كلمة عفوة الخاطر ، فاسمعوا وعوا . . . لقد طعمتم جميعاً وستفرون إلى مضاجعكم ، ثم نجتمع عند مطلع الفجر ، نحن ومن لم يحضر من نواب الأمة الأجلاء ، فننظر في شأن هذا اللاجئ الغريب ، بعد أن نضحى الآلهة ... إنه يطلب أن يعود في حمايتنا إلى وطنه كيما يصل سالماً غانماً من غير أن يمسه أذى ، إلا أن تكون ربات الأقدار قد قضت عليه أمراً ، وإلا أن يكون من أرباب السماء الخالدين ... لقد وصلت بيننا وبين الآلهة وشائج القرين ، وطالما غشيت مجالسنا وشاركت في ولائنا وهي تبقى على محبتنا ، فلا تمس بأذى رجلاً منا يضرب في الأرض ،

وليس ما بيتنا وبينها أقل مما بينها وبين السيكلوس^(١) ، أو المَرَكة الجبابرة ، وفي ذلك نغارنا وهو آية مجدنا .

ونفض أوديسيوس الحكيم فقال : « غُفراً غُفراً أيها الملك ! ما أنا في الآلهة إلا أين لي خلائتها السَّوى » ، وكيانها السماوى ؟ بل أنا شقي من أبناء هذه الغبراء ، أثقلت كاهله أحمال هائلة من الكوارث والآلام ، حتى لا يعرف الناس من شقي شقاءه ، ولا من تحمل مصائبه وأرزاءه .. بلايا صبتها على رأسه الآلهة فصبر وأتاب .. أوه ! أبداً لا أنتهى إذا سردت عليكم طرفاً يسيراً منها ! ولكن لاداعى الآن ... أرجوكم ... أتوسل إليكم ... دعونى أتبلغ بهذه اللقمت فى هذه اللبحة الحاملة من الراحة التى لم أنعم بمثلها منذ بعيد . لشد ما يصرخ الجوع فى أذن الجوعان ، ولشد ما يعذبه السطوى ! إنه يلح عليه بكل صنوف الألم حتى ينسيه آلامه وأشجانه . إن له لشهية عالية الصخب تطلب العون فى مجوار وجنون ، حتى ليضيع فى ضجيجها هتاف جميع الآلام ، إلى أن تكتفى . عفواً أيها السادة ! إني أفئأ أضرع إليكم أن تيسروا لى عوداً أحمد ، وأوبة سالمة ، بعد طول العناء . والشقاء الذى ليس بعده شقاء ، إنه لا أحب إلى من أن أودع الحياة بعد نظرة واحدة أنزودها من أهلى ووطنى . »

(١) الكلوس أو السيكلوس كنطقها اليونانى مارد بين واحدة .

وتأثر القوم من أجله فأثنوا عليه ، واتفقت آراؤهم على معاونته حتى يعود إلى بلاده ويلقى ذويه ، ثم نهضوا فصبوا خمر الصلاة باسم الآلهة ، وشربوا نخب رب الدار ، ثم تفرقوا إلى منازلهم ؛ إلا أوديسيوس ، فقد ظل جالساً ساهماً واجماً ، كما ظل الممسكان إلى جانبه ساهمين واجمين ، والشندل فيما بين ذلك يحملون أطباق المائدة وأكوابها ، حتى إذا فرغوا أخذت الملكة تتحدث إلى أوديسيوس ، وقد لفت نظرها هذا الثوب الفضفاض الذى كان يلتفع به :

«والآن جاءت نوبتى فى التحدث إليك أيها الغريب الكريم ، فمن أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأنى لك هذا الصدار وذاك الدثار ؟ أأنت قد قلت إنك غريب نازح أفلتلتك المنايا فى لجج البحار ؟ .
وقال أوديسيوس يوجب أريتا :

« أيتها الملكة ! قد لا أفرغ من الحديث إذا حاولت أن أسرد قصتى بحذاءفيرها ! بل ليس أشق على من ذلك ، فقد كرثنى الآلهة بكل أنواع الحموم وصنوف الآلام ، بيد أننى ألهم بمأساى المحزنة فى كلمات فأقول : « فى أوجيجيا - إحدى الجزائر القاصية التى لم تظاها قبل قدم بشر ولم يخطر بها إله - تقيم عروس الماء المفتان - كليسو - الباهرة الرائعة الصنع ، ابنة أطلس الجبار التى قدّر على أن أكون أول لاجئ إلى جزيرتها بعد أن سلط جوف صواعقه على سفيتى فشطرها وأغرق كل رجالى ، وظللت أنا متشبثاً بالسارية ليالى وأياما ، حتى دفعتنى المقادير فى الليلة العاشرة إلى ساحل الجزيرة حيث آوتنى كليسو

الجميلة الريانة ، وأنقذتني من موتة أكيدة ، وأطعمتني وأكرمت مشواي
 — ثم عرضت أن تهبنى الحياة الخالدة والشباب الأبدى ، لولا أنني
 تأييت ... ثم أقمت عندها سبع سنوات لم يرقأ طواهسا دمعي الذي
 فضحت به أثوابي وما خلعت علي من دثار ... وفي الثامنة
 أرسل إليها جوف كبير الآلة من يأمرها بإطلاق سراحى ، فأبحرت
 على رمث زودته بالأطايب والأذخار ، والأشربات والآكال ، ثم
 أرسلت بين يديّ ريحاً رخاء ما انفكت تجرى بي في عباب من بعده
 عباب ، طيلة سبعة عشر يوماً ... وفي الثامن عشر لاحت قمم جبالكم
 الشم تخفق قلبي فرحاً ... بيد أنه كان أملاً خائباً لم يطل أمده ...
 فقد أبى نيتيون الجبار إلا أن يقف بسبيلي ، وإلا أن يرسل ريحاً
 معاكسة تثير الموج وتهيج اللج ، وتمزق ما التأم منى ومن فاكى الصخير
 — الذى كان كل أملى ... ولم يعد بد من أن أكفح الماء ، وأذرع
 اليم بالسباحة ، حتى تضافرت الريح والموج ، فقفاني إلى ساحلكم
 ذى النوى ... ولم أحتمل صدمة الصخور ، فنضخنى السيل الرابى
 إلى الأعماق كرة ثانية ... وشرعت أكفح مرة أخرى ، حتى نشرتنى
 موجة مزبدة فينهر وديع متطامن ... فسبحت إلى إحدى عدوتيه ،
 واستلقيت على الشاطئ ، خفيق الأحشاء موهون القوى ... وأقبل
 الليل فتهاكت على نفسى إلى دغيلة^(١) مهدتها بعسايلج وشىء من القش
 وفروع الشجر ، ونمت ليلاً طويلاً وضئحة متعبة وظهيرة كلها
 نضب وإعياء ... ثم أيقظتنى صيحات قريبة مُرنة ، فإذا ابنتكم

الأميرة الحبيبة الحسان في ررب من أترابها يتلاعبن كربات الأولمب على رمال الشاطئ... وجثوث تحت قدمها ، وما زلت بها أتملق شبابها الغض بدعوات معسولات ، وأثير نخوة صباها الفينان حتى أمرت لي بطعام شهى وخمر معتقة ، وأشارت إلى منعطف فتوجهت إليه فغسلت ما على جسمي من خبث ، ثم منحنتني هذا الصدر وذاك الدثار ...

تلك قصتي أسردها عن قلب محزون ... ما فيها أثارة من مَين،^(١) قال الملك : « لشد ما أخطأت بنيتي إذ لم تصحبك إلى هنا في جملة حشمها مادمت قد رجوتها في ذلك أول الأمر » .

وقال أوديسيوس يجيبه : « إنها لم تخطئ أيها الملك الكريم وما عليها من ملام . لقد كلمتني في مثل ذلك فأبيت لأنى خفت أن يسوءك ذلك منها ومنى ، ولأنى أعلم أن الناس في كل مكان ظنانون قوالون » . فقال الملك : « كلا أيها السيد ، إن صدرى لا يحمل مثل ذلك القلب التزق ... إن الرصانة والأناة أفضل ميزات الخلق الكريم ... تالله يا بني إنى لأوثرك كولدى ، وبودى لوقبلت فصهرت إلى وتزوجت ابنتى ، وعشت معنا كواحد منا ... وإنى - إن رضيت - لمقطعك الأقطاع الشاسعة ومانحك المنزل الرحب . هذا وليس في فياشيا كلها من يجسر أن يفسرك على شيء تأباه نفسك . معاذ الله يا بني ... إن هذا إلا عرض ... مجرد عرض منى لما أنسنه فيك من سمو ورجاحة ونبل ... فإن لم يرَ فك أن تفعل ، فإنى مُعِدُّ لك أسباب عودتك

غداً ، وستنام ملء عينيك بينما يكون الفلك يهب اليم ويطوى العباب ،
متسرباً فوق الموج بقوة الأذرع الفتية التي تعمل في المجاذيف حتى تصل
إلى وطنك سالماً غانماً ، بل حتى تصل إلى أبعد منه . ولو إلى ما وراء
أيوبيا أبعد الجزائر منا ، حيث يحمل بحارتنا ردمنتوس ^(١) ذا الشعر
الذهبي لزيارة تتيوس ^(٢) جبار الأرض ... إنهم يبحرون به إلى هذه
الجزيرة ويعودون في يوم في غير عناء أو إعياء ، وستعرف سبب
نخارى بسفائني وبحارتي الذين يذرعون البحار ويضربون أكبادها
حين يبحرون بك .

وشاع البشر في أسارير أوديسيوس ذى التجارب فقال : « أيها
الآب الخالد ! لله محامدك الغر » ! أنجز يا مولاي يسير ذكرك في
"بلاد ، وألق أهلي وأنشق نسمة من وطني » .

هكذا تشقق الحديث بينهما ..

ثم أمرت الملكة بعض وصيفات القصر فأعددن فراشاً وثيراً في
الرواق ذى الأعمدة ، وهياًنه بوسائد من ديمقس ^(٣) ، وبثن فوقه
الأرائك والحشايا ، وعلقن الستائر والأسجاف ، ووضعن
البرانس ^(٤) واللحف .. وكانت كل منهن تحمل شعلة كبيرة تتوهج في
حوائب القصر .. حتى إذا فرغن من كل شيء ، دعون أوديسيوس

(١) ابن زيوس من زوجته أوربا وقاضى العدالة في الدار الآخرة « هيدز » .

(٢) أحد مرده طار طاروس ويفطى جسمه مساحة تسعة أفدنة .

(٣) حرير . (٤) البرانس معناه المعروف عرنى فضيح .

فى أدب وظرف أن ينهض لينام.... وغفا بطل هيلاس ... وأسلم
عينيه لأحلام سعيدة .

ونفض الملك والملكة لينعما بطيب المنام .

حفلة أولمبي

وصبغت أورورا بمثل حمرة الخبجل وجنات المشرقين ، فاستيقظ
الملك ، وهب أوديسيوس من نومه ؛ وذهبا إلى الشاطئ حيث تلقى
السفن مراسيها ... وهناك ... فوق مقعد حجرى أجلس ، جلسا يتحدثان ،
بينما كانت مينرفا تدق البشائر فى شوارع المدينة ، وقد بدت فى صورة
منادى الملك وطيلسانه ، تدعو سادات الفياشيين وشيوخهم إلى مجلس
الملك للنظر فى أمر هذا الغريب الكريم اللاجئ الذى حل عليه
ضيئاً ... كأحد آلهة الأولمب ، برغم ضربه الطويل فى عرض
البحار ، .

وازدحم سادات المدينة وأشياخها فى قاعة المجلس ، وكانوا
يقتتلون فى أوديسيوس نظرات الإعجاب والدهش ، وكيف لا ؟
وهذى مينرفا قد أضفت على صدره الرحب وكتفيه العظيمتين ،
وجسمه السامق ، رؤواءً علوياً من الآهة والجلال ، كان ينعكس
وقاراً ورهبة فى قلوب الفياشيين .
ولما انتظم عقد القوم نهض ألكينوس الملك ، فقال : يا سادة

الفياشيين وشيوخ الأمة ، كلمة مرتجلة ، فاسمعوا وُعوا : لقد حل هذا الضيف الكريم الذى لا أذكر اسمه فى ييتى بعد أن شَرَّق فى آفاق العالم وغرَّب ؛ وإنه ليرجو أن تمدوا له يد المعونة فيعود أدراجه إلى بلاده فى كَنَفِكم سالماً ، إذ طالما كان هذا دأبكم ، إكرام الضيف ، والإحسانُ إلى الغرباء الاجئين ، وردُّهم إلى ديارهم مهما كانت سحيقة آمين ... فالبِدارِ إذن . . هلموا إلى سفائنكم فتخيروا أحسنها حالاً ، وأصلحها لمجالدة هذا البحر ، ولتُعِدوا لها نخبة ذوى بأس من أصلب فتية أنكم عوداً وأشدَّهم مِرَاساً . . اثْنين وخمسين عدداً من أَيْنَع زهرات شباب هذه الأمة ، ثم تعالوا إلى " فاني مولم لكم تحية لهذا الضيف ، فلا يتأخر منكم أحد أبداً .. وليحضر معكم أحب المنشدين دمودوكوس الإلهى ، صاحب الألحان الخالدة ، والصوت السماوى الساحر ، فليشرف آذاننا بجلو أنغامه التى لا يقدر عليها إلا هو . . ،

وانصرف الملك وفى إثره شيوخ الفياشيين ، وانطلق رسول إلى منزل المنشد دمودوكوس الإلهى .. واختيرت النخبة ذات البأس من شباب الملاحين وأُعِدَّت السفينة فى مكانها الأمين من اليم ، فنُصِبَت القلوع ونُشِرَ الشراع وصُعِقَت المجاديف .. ثم مضى الجميع إلى بيت الملك ، حيث كانت الجماهير الحاشدة تَكْظُ الأهباء ، وتزدحم فى الدهاليز ، وتملأ الصالة الكبرى . . . وجيء بالذبايح ... فهذان ثوران كبيران ذوا خوار . . . وهذى اثنتا عشرة شاة سميئة ، وتلك أربعة

خنازير كنان^(١) ما كادت تذبح وتنتزع أنيابها حتى أخذ الجميع فيما أقبلوا له من طعام وشراب... ثم أقبل منادى الملك يقود المنشد الإلهي الأعشى، رخم الصوت، صفى ربات الفنون، اللأثى عدلان له بقسطين من خير ومن شر سواء، فوهبته التطريب المعجز، وسابته النور من عينيه العزيزتين... وأقيم له عرش مُمَسَّرِد في وسط الصالة الكبرى، عند عمود مرمري عظيم، فاستوى عليه، وأعلمه پونتونوس بمكان قيثارته المحلقة فوق رأسه، ووضع بين يديه سلة من طعام ومزة^(٢).

وما كادوا يفرغون من آكلهم حتى رقصت عرائس الفنون في فم المنشد المطرب. فأرسل غناء سحر أبواب الناس، وركب بها إلى أثر الآلهة في قبة السماء... لقد تغنى هذه الأغنية التي تروى النزاع الذي شجر بين أخيل بن بليوس، وبين أوديسيوس بن ليرتيس في أثناء الوليمة الإلهية، والذي جاءت به نبوءة أبوللو (في دلفوس) حينما استوحاه أجاممنون عن يوم سقوط طروادة في أيدي اليونانيين.

وسكت المغنى، ودفن أوديسيوس وجهه الساهم في ذيل ثوبه الأرجواني الفضفاض خشية أن يلحظه أحد... وطفق يبكي... ويستخرط في البكاء ثم كشف عن جبينه، وسقى الثرى كأساً من خمر صلاة للآلهة... ثم عاد إلى بكائه حينما وصل المطرب غناؤه، وكان يرسل عبراته في كسائه غير ملحوظ من أحد إلا من ألكينوس، الذي

(١) كنان جمع مفردة مثله كثيرة الشحم واللحم.

(٢) خر.

عز عليه مارأى وما سمع من عبارات ضيفه ، ومن تهدياته فقال :
 « حسينا ياسادة ماطعنا وما سمعنا ... هلموا جميعاً نشهد الضيف
 الكريم بعض ألعابنا ليذكر في العالمين أن أن الفياشين خير من يجرى
 ومن يشب ، وأمر الناس في الملاكمة والمصارعة » .

ونهض الملك ، ونهض في إثره كل أضيافه ، وتقدم المنادى فقاد
 دمردوكوس ، وقصد الجميع إلى ساحة السوق الكبرى ، حيث
 احتشدت كواكب الشجعان والشباب اليافع من ذوى القوى والفتوة
 والباس الشديد ، أتوا من كل حذب لهذا الحفل المشهود ... وفي
 وسط الحلبة وقف الأبطال آكرون وأوكيال وإلاتريوس ونوت
 وپرميوس ؛ ثم وقف خلفهم الأبطال أنخمال وأنايسين وإرتموس
 وپونت وپرور وأمفيال وتون ... ثم نهض حليف مارس المبوب
 يوريالوس ، ثم نخر شباب الفياشين نوبوليد ... وقف كل هؤلاء ...
 ثم هب أبناء الملك الثلاثة ... لوداماس ولده البكر ، ثم هاليوس ،
 ثم كميون الأصغر . وشارك نفر من أولاء في سباق الجرى ، فأخذوا
 أهبتهم ، ثم اضلّوا يثيرون التراب في إثر كميون - ابن الملك -
 الذى شام^(١) جميعاً ، وتركهم يتعثرون وراءه كما تتعثر الثيران في إثر
 البغال ... وتلقاهم النظارة بالهتاف العالى والتصفيق الشديد ، ثم كانت
 المصارعة التى برز فيها يوريالوس على كل أقرانه ، كما برز أمفيال

(١) سبقهم .

في الوثب الطويل ، وألاتريوس في قذف القرص ... أما في الملاكمة فقد تفوق لوداما النيل ابن ملك شيريا ، وكان فوزه مسك ختام المباريات . ثم نهض لوداماس فقال :

والآن أيها الأصدقاء نسال ضيفنا الكريم عما إذا كان يحذق شيئاً يفخر به من هذه الألعاب ؟ إنه لا يزال غريص الشباب ، بادي الفتوة ، مكتمن العضلات ، عظيم منة الساقين والفيخذين ، مفتول الساعدين وإن له لعنقاً أى عنق ... كل ذلك بالرغم من بدوات الضى وأمارات العناء ، وما حطم البحر من جسمه الخصب ، وهل أهلك لجسوم الرجال من جبال العباب ؟! .

وكانما راقى هذه السمكات البطل يوبالوس فطلب إلى لوداماس أن يدعو الضيف إلى النزال ، فنهض لوداماس ثانية وقال : « هلم أيها الضيف فأرنا هل تجيد من هذه الألعاب شيئاً ؟ ما استحق أن يعيش من لم يعمل بيديه ويسع بساقيه .. هلم ؟ حاول إذن أفيم احترازك هكذا ؟ إنا لن نؤخر كقط ، فالسفينة معدة والملاحون على أهبة » . وقال أوديسيوس يحميه : « ألتخذنى هُزْواً حين تدعوني للعب يا لوداماس ؟ أى لهُو وأى لعب وأنا نضوُ أسقام وطريح آلام ، لا أمل له إلا أن يعود إلى بلاده ، وفي ذلك ما يضرع للملك وللناس » . وهب يوبالوس يصيد^(١) ويقول . « كلا أيها الصديق ... إني عذيرك ، فسيماك لا تنبي . عن رجل رياضي ، بل أكبر الظن أنك من رجال الأعمال أو حَفَظَةِ المخازن ... أو ... إن لم يحب حدى ...

(١) يجهر بالقول .

من أدلاء السفن في الشغور ؛ ومن يدري ؟ فقد تكون عياراً
أو قرصاً ١١ ..

وعبس أوديسيوس وبسرٍ ، وانتشرت فوق جبينه ظلمات من
الهم ، وتهدج صوته فقال : « إنك لم تحسن كيف تتكلم أيها السيد ،
وإنك لم تبال أن تطليق في لسانك بهجس القول كأنتي رجل
لا اعتبار لي ... على أن الآلهة - جلت وعلت - لم يتفق أن منحت
أحداً من العالمين كل آلائها في وقت معاً .. بساطة الجسم ورجاحة
العقل وقوة البيان .. فقد يلوح لك هذا الرجل مهبطاً محطاً في حين
قد وهبه جوف بياناً متيناً ولساناً مبيتاً حتى ليخلب ألباب سامعيه ،
وحتى ليرتفع في نفوسهم إلى مصاف الآلهة ... وقد تنظر إلى ذاك
الرجل كأنما تتدفق في عضلاته قوى السماء وهو لا يحسن أن يقول
كلمة ... مثلك ... مثلك تماماً .. فلقد أوتيت بسطة في الجسم ، حتى
لتوشك في ذلك أن تكون مثلاً تقيس عليه الآلهة ، إذا أرادت أن
تخلق مارداً جباراً . ولكنك - وأسفاه - لم تؤت بياناً ولا حكمة !
فلقد أثرت ثأري بكلماتك الغلاظ .. العجاف ! إني - أيها السيد
- كما ذكرت - لا أحسن من هذه الألعاب قليلاً ولا كثيراً ...
ولكنني كنت فتاهاً وفارس حليتها أيام كنت شاباً يافعاً غض الإهاب
ريان الشباب .. أما أنا الآن ! فوا أسفاه ! إن حدثان الزمان لم
يبق مني ... ولا علي ! لقد ذبل شبابي في نقع الحروب وسُوح
الوغي ... وفي هذا البحر اللجج يغشاه موج من خلفه موج ...
كالجبال ... بيد أنني ... على الرغم مما ينقض ظهري من ويلات ،

سأثبت في سجل شجاعتكم قوتي ! فإن لما هزفت به من قول السوء
لأنياً بعضني وتمهشني .. أو أدلّ على قوتي وجبروتي

وكان إلى جانبه قرص القذف الذي يستعمله أبطال الفياشين في
مبارياتهم فانقض عليه واحتمله بيده القوية المفتولة ثم دفعه دفعة هائلة
كان لها هزيم وقصف . واستهو لها بحارة الفياشين الشجعان خفضوا
رؤوسهم حتى استقرت بعيداً خلفهم ... وهنا بدت ميزفا بين الملأ
في صورة أحدهم ، وهبت عجلالة تقديس مدى القذفة ، ثم قالت :
« ألا أيهذا الغريب ! الأعشى نفسه لا ينسكرك برهانك الدامغ القوي !
إنه مدى لا يستطيعه أحد غيرك ، فتبه على هؤلاء الفياشين ! إن
منهم من لا يستطيع أن يباريك في أي من هذه الألعاب فادعم إليك
وما عليك من بأس » . وشاعت الكبرياء في نفس أوديسيوس حين
سمع هذا الهاتف من صميم الفياشين بطريه ويثنى عليه ، وينصب من
نفسه قاضياً له ، فقال ، وقد انكسرت حدة غضبه :

«هلوا أيها الشباب فاقذفوا هذه القذفة، أقذف أبعد منها وبقرص
أكبر وزناً !! هلوا !! ليأت أقوى ملائكم فأني له ! وليقف أضرى
مصارعكم فأنا أخوه وليجر معي أسرع عدائكم فلن يلحق بغباري !
لقد هجتم ثأرى فهلوا ! إني أتحداكم جميعاً إلا لوداماس فإنه مضيق
وصاحب قرأى ، وليس بي أن أنازل من أكرم مثواى في دار غربي
وليس بي من التزق ما يحملني على شيء من ذلك ... أما غيره فأنا له ،
وسيعلم منازلي منهما يكن مبلغ قواى .. إنه ليس من ألعاب الناس
ما يعجزنى ... فأنا رب القوس ، وظالما صرعت الألوف من الأعداء

تحت أسوار طروادة ، وأبدأ مارمى أحدهم سهماً كما رميت إلا
فيلسكتيس يوم حاز قصب سببها دونى ... على أنه من ؟؟ إننى لم
أبلغ من الحول ما بلغ هرقل أو يوريتوس الذى نفس عليه أبوللو
مهارته فى الرماية وقتله ... هذا ... وإلى الرمح السميرى ، فإنى أبلغ
به المدى الذى لا تبلغه سهامكم !! على أننى لا أطمع أن أبلغ خفتكم
ورشاقة حركاتكم - فلقد قاسيت من الأرزاء ما قسم ظهرى ،
وصارعت موج هذا الخضم حتى حطمتنى وأوهانى ، ولقيت من الطوى
ما برانى !!

وصمت الفياشيون ولم ينبسوا . ثم تكلم الملك فقال : « سحمرُك
الآلهة أيهذا النازح الكريم لقد جالجت فى آذاننا كلماتك فدلّت على
شجاعة وعنفوان ، وأخمت هذا الشاب الذى جرح عزتك وأهان
كبرياءك أمام الجميع ، ثم سكّت عن تحدّيك ... ولكن تعال فانظر إلى
ما نريك من ضروب الخفة وفنون الرقص وفنون الغناء والسبق فى
العدو ، ومهارتنا حين نسوس الفلك فوق أعراف الموج ورُغاء
الزبد ، كما تتحدث بهذا كله إلى أقرانك وبين ظهرانى قومك ، وتحكيه
لأطفالك . سحمرُك الله أيها الغريب المسكرم إنه لا نخر لنا فى ميدان
الملاكمة والمصارعة ، بل غاية المتاع عندنا ثوب «موسى» ، وطعام ملوّن
وقيثار ممرّنة ، ورقصة خاطفة ، وحمام دافئ وفراش وثير ...
والآن ... هلموا أيها الفياشيون فاهضوا أمام ضيفكم والعبوا ، وأروه
من رقصكم وشنفوا أذنيه من غنائكم ، فلسوف يتحدّث بكل ذلك فى
الآفاق ، وحسبكم أن يذكر عنكم أنكم أمهر من ركب البحار اهلوا ..

ليُحضِر أحدكم دمودوكوس الإلهي ... يعزف قيثاره ويُلاعب
قلوبنا بغنائه ... اجتمعوا عنه في بعض ردهات القصر ... ،
وانطلق منادى الملك يبحث عن المطرب الإلهي ، وانطلق آخر بعد
قيثاره ، ثم نهض تسعة فياصل^(١) يمهّدون أرض الملعب ويهيئون الحلقة
وبن حزن الجواهر ... وأقبل المنادى والمطرب يسعى بين يديه ،
وجلس في وسط الحلقة حيث أحرق به الولدان اليوانع اليوانع يمسون
ويرقصون بسيمقان تخطف كمثل خطيف البرق ، بين دهش أوديسيوس
وشدة تعجبه ، والمطرب فيما بين ذلك يوقع لهم النغم الخلو ، والموسيقى
العالية ... وفرغوا من رقصهم ، فشرع المُنشد يتغنى أسطورة مارس
ومعشوقته الآثمة سيمتريا^(٢) إذ أغواها رب الحروب المستهتر بمعسول
الكلام ومطلول الغرام فلانت له ... وكان أبوللو - إله الشمس - يرقبهما
من مركبته الذهبية في علياء السماء ، فطار بالفضيحة المشؤومة إلى الزوج
التعس ... فلما كان . . الذي استئطير وثار نأثره ، فراح يصنع
أنشودة كبيرة كالشرك من حلق الحديد المفرغ الذي لا يقوى عليه
أحد ، حتى إذا فرغ منها حملها إلى داره ودسها حول سريره ثم ألم
بالمعرج النجس حيث أوى مارس إلى فينوس - الزوجة الآثمة -
وكان مارس يغالب في عينيه أخريات غفوة الضحى ، فلمح فلما كان
يطوى الرحب إلى أرض لمنوس - أحب المدائن إلى قلب الإله
الحداد ... وطرب مارس أيما طرب ... وأيقظ معشوقته قائلاً :
« هلي فينوس ... انهضى أيتها الحبيبة : لقد ذهب زوجك إلى لمنوس

(١) الفصل الحشم

(٢) فينوس . (الأسطورة في كتابنا أساطير الحب)

أرض البرابرة ... هلمى إلى البيت ... ، وهبت فينوس ... وانطلق
الأثميان إلى دار فلسكان ، ولكن ... وأأسفاه ! إنهما ما كادا
ينظر حان حتى انطرحتا فوقهما الانشوطاة الهائلة ... وأمسكت بهما
إمساكا شديدا ... لم يحدا منه مفرا ، ولم يحدا منه مخلصا ... وكان
أبوللو يرقبهما كذلك ، وقد حدث فلسكان بما رأى ... فعاد الإله
الحداد على عجل ، ولم يكن قد بلغ شطآن لمنوس بعد ... وكان قلبه
يدق ... لا ... بل كان قلبه يكاد ينخلع ؛ فوقف في البهو الكبير ثم
أرسل صيحة مدوية يستصرخ بها الآلهة : يا جوف العظيم ! يا آلهة
الخلود جميعا ! أنظروا ! إشهدوا كيف تخون فينوس زوجها ! ولمه ؟
لأنه محطم موهون ! ذنب من ؟ إنها جريرة من أنسلوني وجأؤوا بي
إلى الحياة .

ولم يكديفرغ من صرخته حتى اجتمع في بيت جوف ذى الأرض .
النحاسية جميع الآلهة ... وكان أول من أقبل نبتيون رب البحار ، ثم
تلاه هرمز رسول الآلهة وصاحب القوس ، ثم أبوللو ... ثم غيرهم
وغيرهم ... ولم يحضر من ربات الأولمب واحدة ! فقد احتجزهن
الخنجل عن شهود هذه الجريمة ! ثم هاهم الآلهة يقهقهون ويضحكون ...
ويتسلهون بهذا المنظر العجيب ، ويقول بعضهم لبعض : « يا للإثم
ساق إلى أوخم العراق ! ويا للأعرج الأكسح ، يشائى ^(١) السسباق
المجلى ! لقد استطاع فلسكان أن يمسك بتلابيب مارس ، الذى هو من
هو .. ! مارس ! أسرع العدائين ! إن عليه أن يؤدى الغرامة الفادحة

(١) يساقه فيبقه .

للإله الأعرج ، وتضاحك سكان السماء ، ولكن نبتيون الذي
سأته هذه الحال خاطب فلسكان فقال : « هلم فلنك ففك هذه السلاسل
والأغلال ، وإنى زعم لك ، كفيل بأنه مؤد إليك كل ما تفرض عليه
من غرم ا . . . » ورفض فلسكان أن يطلق فريسته ... « من يضمن ألا
ينطلق مارس وهو لا يلوى على شيء ، غير عاني بكل ما عساه أن
يسعد ؟ » . وقال رب البحار : « ليطمئن قلبك يا فلسكان فوعز ووجلالى
لئن لم يف مارس لأنجزن أنا ، ولأؤدين عنه غرامته ا ا » . فأجاب رب
الحديد الصنّاع : « إذن ، فلن يخيب رجائك ، ولن يركد طلبك ا ،
وتقدم ففك الأغلال عن المجرمين الأثيمين ، وانطلق مارس إلى مأواه
بأرض تراقية ، وانطلقت فينوس إلى مرتعها الجميل بأرض بافيا —
حيث تلقاها بربر من أترابها بالبشر والترحاب ، ففسلنها ، وضمخنها
بالطيبوب القدسية ، وأسبلن عليها شغوف الصبا وأردية الشباب .



وفرغ دومودوكوس من إنشاده بين تأثر أوديسيوس وتلف البحارة
الغياشين ، ثم أوما الملك إلى أبنائه فوثبوا وسط الساحة ، وأخذوا
يرقصون فى خفة ، ويتقاذفون كرة غالية من صنع بوليب ، فكان أحدهم
يرسلها عالية حتى تدنو من السحب ، فيثب الآخر فيلتقطها وهو معلق
فى الهواء ، ثم يتقاذفها أحدهم بعد الآخر ، بين تهليل الغتيان وتصفيقهم
الشديد . وسر أوديسيوس بما أبداه أبناء الملك فى الرقص ، وأثنى عليهم
لأبيهم ، ورجاه فى الذى رجاه فيه من تهينة عودته ، فتوجه الملك إلى

زعماء شعبه وقال : « يازعماء الفياشينين وأشياخ الأمة ! جدير بنا أن نكرم مشوى هذا الضيف الذى بدا لكم من وقاره وحكمته وأثير أرومته الشئء الكثير ؛ هلموا إذن ... إنكم اثنا عشر زعيما ، وأنا الثالث عشر ... فليحضر كل منكم بكرة من الذهب وصدراً مفسوراً فتكون من الجميع هدية سنية له ... أما يوريالوس فعليه هدية كذلك ، وعليه أن يعتذر بمافاه به . ووافق الكل على ما اقترح الملك ، وأرسلوا رسلهم يحضرون البدر والصدور ؛ ثم نهض يوريالوس يعتذر ويقدم لأوديسيوس سيفاً مجرازاً^(١) له مقبض من فضة ، وقراب مطعم بالعاج ؛ ودعاه أن تكلاؤه الآلهة بعين الرعاية حتى يرى زوجه وولده وبلاده ، بعد كل الذى احتمل من عناء ونصب . وتقبل أوديسيوس الهدية ، ودعا لصاحبه بحياة الأمن والسلم والرفاية . ثم علق الجراز فوق كاهله الضخم .

ووصلت الهدايا الأخرى مع غروب الشمس ، فنهض أبناء الملك ينسلوها . ويحملونها إلى داخل القصر ، حيث أمهم أريتا الملكة ... ونهض الملك فتوجه إلى الداخل كذلك ، وسأل الملكة أن تحضر ثوباً وأكسية ، وأن تعد صندوقاً يتسع لهدايا الزعماء ، وملوك البحر ، التى خلعوها على الضيف ؛ وقدم هو هديته ... كأسه الخاصة من الذهب الخالص ، المحلاة بأبهج الشطراف وأبهى التصاوير ... « ليذكرنى بها ، كلما أفرغ منها الخمر تقدمه الآلهة ، . وسألها أن تعيد للرجل حماماً ينعشه ، وأن تعطيه الأثواب والأكسية كيما يتدثر بها .

وأمرت الملكة خدماً فأعدوا الحمام ، وأحضرت هى ثوباً فضفاضاً

(١) سيفاً قصيراً والقراب بكسر الكاف العمدة .

فوضعت فيه يدَ الذهب وكأس الملك وسائر الهدايا ؛ ثم تلفت إلى أوديسيوس فقالت له : « والآن أيها السيد هلم فغلق هذا الصندوق فهو لك ، لتسكون آمناً عليه إذا غفوت في السفينة » . ولبي أوديسيوس وأغلق الصندوق ثم ربطه بحبل طويل عقده تعقيداً . ثم دعت ربة البيت إلى حمامة ؛ ولله كم ألقت عيناه حين رأى الثوب المديحى العظيم ، الذى لم يلبس مثله منذ فارق كليسو ... ثم اغتسل وتدثر ، وتضمخ بأحسن الطيوب ، وبرز كأحد آلهة الأولمب ... وبينما هو يطوى الأبهاء إذا صوت جميل ذو غنة يهتف به ... وإذا هى الأميرة الفينانة - نوزيكا - واقفة خلف عمود وهى تقول : « س . س . س . . . »
أيها الغريب النازح اذكرنى دائماً ، أنا ، أول من لقيك هنا !! ، وتبسم أوديسيوس وقال : « نوزيكا !! أنت ؟ ابنة أكرم الملوك الكينوس ؟ لك الله ! ألا وحق جوف رب الصواعق لو صحت الأحلام ووصلت سالماً إلى بلادى لظلمت آخر الدهر أعبدك عبادة أيتها الجميلة العذراء كما أعبد الآلهة أربابى ! » . وبلغ مجلس الملك فاستوى إلى كرسى بجواره ، واجتمع الفياشيون مرة أخرى ، ودارت الأفداح ، وأجلس المطرب الأعمى الإلهى ، نخر شيرا ، قريباً من العرش ، وقدم إليه أوديسيوس جزءاً من شواء حملة أحد النمل ، فأقبل عليه المطرب حتى اغتدى . ثم توجه إليه أوديسيوس بالحديث فقال : « كم أنت جدير بالثناء يا دودودوكوس ، بل أنت أولى به من أكثر الناس ! ليت شعرى ! هل ثقفت موسيقاك عن عرائس الفنون ، أم أنت قد حذقتها على أبولو نفسه ؟ لقد أنشدت ما كان من جيش الآخيين كأنك كنت شاهد

عِيَّان ، أَوْ كَأَن شَاهِدَ عِيَّانٍ قَدْ قَصَّصَهُ عَلَيْكَ ! أَنْشُدْ لَعَدْمِكَ اتَّحَدَّثَ
عَنِ الْخِصَانِ الْهَوَلَةِ الَّتِي صَنَعَهَا إِيَّيُوسَ بِإِرْشَادِ مِينَرَقَا ، وَالَّذِي حَمَلَهُ
أَوْدِيسِيُوسَ الْجَبَّارَ هُوَ وَصَحْبُهُ إِلَى قَلَاعِ طَرَوَادَةِ ، ثُمَّ اخْتَبَأَ هُوَ وَهُمْ
فِيهِ ، فَبَكَتُوا أَوَّلَ خَرَابٍ إِلَى يَوْمٍ ١١ تَحَفَّنَ ١ ! إِنِّي سَوْفَ أَحْمِلُ اسْمَكَ
فَأَنْشُرُهُ فِي الْآفَاقِ أَيُّهَا الْمَطْرَبُ الْمَعْجَزُ الَّذِي لَا يَبَارِيهِ إِلَّا عَازِفُ مُوسَى
السَّمَاءِ ، أَبُولِلُو ! تَقْدِسْ اسْمُهُ .

وَتَنْزِلُ أَبُولِلُو عَلَى لِسَانِ الْمُنْشِدِ فَرَّاحٍ يَقْصُ الْوَقَائِعَ الطَّرَوَادِيَّةَ
مَنْ حَرَّقَ الْيُونَانِيُّونَ مَعْسَكَرَهُمْ : وَبَعْدَ إِقْلَاعِهِمْ مِنْ مُشْطَانِ إِلَى يَوْمٍ ،
وَذَلِكَ الْانْقِسَامُ فِي الرَّأْيِ بَيْنَ الطَّرَوَادِيِّينَ بِسَبَبِ الْخِصَانِ الْهَوَلَةِ
أَيَقْصُمُونَ ظَهْرَهُ أَمْ يَدْقُونَ عُنُقَهُ أَمْ يَحْفَظُونَهُ تَذَكُّرًا لِهَذِهِ الْحَرْبِ
وَنُصْبًا لِلْآلِهَةِ ... عَلَى كُلِّ حَالٍ لَقَدْ نَقَلُوا الْخِصَانِ دَاخِلَ أَسْوَارِهِمْ
لِيَكُونَ الْقَاضِي عَلَيْهِمْ مِنْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ النُّخْبَةِ أَوْلى الْقُوَّةِ مِنْ أَبْطَالِ
الْإِغْرِيقِ ... وَهَكَذَا قَدَّرَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَزَلِ أَنْ يَهْدِمُوا قَرْيَتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ..
تَغْنَى الشَّاعِرُ الْمُفْتَنُّ بِكُلِّ هَذَا ، وَأَتْنَى أَيَّمَا ثَنَاءٍ عَلَى أَوْدِيسِيُوسَ الَّذِي
كَانَ يَكْرَهُ كَأَنَّهُ مَارَسَ ، وَمَنْلُوسَ الَّذِي كَانَ يَفِرُّ كَالصَّاعِقَةِ ، وَعَلَى بَقِيَّةِ
الْأَبْطَالِ الصَّنَادِيدِ الَّذِينَ فَازُوا بِالنَّصْرِ فِي ظِلِّ مِينَرَقَا رَبَّةِ الْحِكْمَةِ .
وَكَانَ أَوْدِيسِيُوسَ يَنْصَبُ إِلَى غَنَاءِ الْمَطْرَبِ وَإِنْشَادِهِ ، وَدُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ
غَزِيرَةً عَلَى خَدَيْهِ ، وَالْآهَاتُ الْعَمِيقَةُ تَشَقُّ صَدْرَهُ شَقًّا ... كَأَنَّهَا آهَاتُ
تِلْكَ الْأُمِّ الرَّؤُومِ الَّتِي وَقَعَتْ فَرْقَ جِثْمَانِ زَوْجِهَا الْبَاسِلِ تَبْكِيهِ وَتَنْعِيهِ ،
وَقَدْ سَقَطَ فِي الْحَوْمَةِ يَدْفَعُ عَنْ مَدِينَتِهِ أَعْدَاءَهَا ، وَقَدْ وَقَفَ مِنْ
خَلْفِهَا بَنَاتُهَا خَضِرًا يَتَامَى كَأَفْرَاحِ الْقَطَا .. ثُمَّ يُقْبَلُ الْأَعْدَاءُ فَيُخْضَمُونَ

أنفاس هذه الأم بضربة لازبة ، فتنظر مرة إلى زوجها القليل ، ومرتين إلى أبنائها التعساء ! كذاك كان أوديسيوس ، وكذاك كان يخفى دموعه في طرف ردائه فلا يراها أحد إلا ألكينوس الملك الجالس قريباً منه . وقال الملك متحدثاً إلى رعاياه : « أيها الرعماء والأشياخ الفياشيون ، أولى للمهشم ثم أولى أن يفرغ من إنشاده ، فلقد تصدع قلب ضيفك ووهنت روحه مما يسمع من القصص الحزين ! لقد أحببنا فيه أخاً ، ووهبنا له محبتنا وودنا وصافى أخوتنا لا ليحزن أو يأسى .. والآن ! هل يسمع ضيفنا فيذكر لنا اسمه الذي يعرفه به آله ويدعونه به ؟ لقد كنتم هذا عنا ، فهل ولد أحد ولم يحمل اسماً ؟ من أنت أيها العزيز ، وما بلادك ؟ وإلى أين تحملك سفينتي ويبحر بك رجالي ؟ لقد منحنا نبتيون -- رب البحار -- الأمن في ذلك اليم وذل لنا غواشيه ، ولكنك ليس أشق عليه من أن تحمل سفننا أغراباً مثلك لا نعرفهم ، فنبحر بهم إلى بلادهم ! ! إنه يغضب علينا ، وقد يغرق سفننا تشقياً وانتقاماً حينما تعود أدراجهم إلى بلادنا ، فتھوى إلى الأعماق ثم يسجرها إلى جبل نائي فوق العباب ، قَبَل شيريا ! تكلم أيها السيد ! أصدقنا ! من أنت ؟ ومن أي البلاد قدمت ؟ وأين ضربت بطون الركائب ؟ وأى الأمصار شاهدت ؟ وماذا يفجر هذا الأسى في أعماقك كلما سمعت عن جنود الآخيين ، وكلما ترددت في أذنيك أغنيات طرواده ؟ إن الآلهة تحبك من حاضر المرء طيلسان الموم لعدده ! أقتل أبوك ثمة ؟ أم صرّ ع أخوك تحت أسوارها ؟ أم فصّ حوك في ساحاتها ؟

أم أودى أصدقاء لك أحياء في حلبتها ، كنت تعدم كبعض أهلك
أو أعز من أهلك ؟ تكلم ، . .

في أرض المردة (السيطوس)

وشرع أوديسيوس يجيب عما تسأل عنه الملك فقال : «أيها الملك
تعالى جدك ، كشد ما يطرب ما تغنى هذا المنشد غناء الآلهة أو قتل
ما تعدل الدنيا بأسرها هذا المجلس الشادى ذا الأضياف والآكال
والأشرف ألقى أننى مجيبك على ما بدّك من دموعى وهمومى ، وما لقيت
وما سوف ألقى مما قسم لى من أشجان وأحزان الإذن فأعرف اسم ضيفك
تسريد الذى لا يجهل اسمه أحد .. ضيفك اللائد بكرمك ، المستدرى
نحكك ، المتشبت بك ليصل فى ظلك إلى بلاده مهما تقاصت ومهما نأت ..
أنا أيها الملك .. أوديسيوس .. أجل .. هو أنا أوديسيوس ذو الذكر ..
المعروف فى السموات بالدهاء والمكر .. ابن ليرتيس رب إيثاكا ،
وملك نريوس ذى الشعاف الشامقة ، والجزائر الآلهة حول ساموس
ودليوم وزاستنوس ، أم الجزائر التى تصافح تباشير الصباح بكل روضة
فيحاء وخيلة كفاء ، وجنات ذوات شجر وثمر .. صبغاً لأبنائها الأوفياء ..
هناك .. حيث احتجزتني عروس الماء كليبيسو فى كهفها ، وراودتني لأكون
بعلها .. وهناك .. حيث أغرتني سيرس هى الأخرى ، سيرس صاحبة
حزيرة إيايا .. التى حاولت أن تتخذ منى خليلاً فأبيت ، ولم أقبل أن
أضحى بأهلى ووطنى ، ولو أصبحت زوجاً لإحدى الربات الخالدات ..

ولكن لا ، هلم قبل كل شيء أقص عليك من أنباء رحلتى منذ بارحت
إليوم ؛ ولا أدع ما قبل ذلك فهو معلوم مشهور :

« أقلعت بنا الفلك إلى بلد السيكون (إزماروس^(١)) ، فبدألى أن
أزيد فى ثروة رجالى وما فازوا به من أسلاب طر وادة ، فأشرت عليهم
بفتح المدينة واغتنام ما فيها من كنوز وأذخار ، وسرعان ما تم لنا
ذلك ، فقتلنا العسكر وملكنا القرية ، ووزعت السبى والأسلاب
على جنودى ، ثم أشرت عليهم بالرحيل فقصصوا أمرى ، وعشوا فى
المدينة مفسدين ، وعاقروا من الخمر ، وعقروا من الشاء ما أذهلهم عن
انفسهم ، وأتاح لأعدائهم لم الشعث ، ففجأونا بجيش عرمرم منهم ومن
جيرانهم ، وناضلونا عن مدينتهم فأوقعوا بنا ، ولم يغتنا أنا قاتلناهم حتى
مطلع فجر اليوم التالى ، بل ظل فرسانهم الصناديد يكرون ويفرون ،
حتى قذفوا بنا فى البحر ، فوقفنا فى سفائننا نناوشهم رماحنا ... وصمدنا
لهم حتى توارت الشمس بالحجاب فانسحبنا نجر أذيال الهزيمة والخزى ،
بعد إذ انتزع السيكون نثار النصر . وعدت إلى الجند .: فوا أسفاه ...
لقد افتقدت ستة من رجال كل سفينة ... سقطوا فى المعركة الخاسرة !
وأجننا الليل ، فجلسنا نذاكر أسماء القتلى ؛ وما كدنا نفعل حتى سخر
علينا جوف رب السحاب الثقال - ريحاً صرصر أعاتية أثارت البر والبحر ،
وعصفت بمرأى كبننا فأطاحت بقلاعها ومزقت شراعها ، ففزعنا إلى
الحاذيف وأعمالنا السواعد ، مستقتلين مستميتين ، حتى نجونا بعد لآى

(١) على الشاطئ الفملى لبحر إيجه .

إلى البر ، حيث تلبثنا ليلتين طويلتين في أنين^(١) ، وشكاةٍ وشقاء ، نصالح القلوع ونزرق الشراع ... وفي صباح اليوم الثالث تطامن البحر ونام هائجه ، فبادرنا إلى الفلك وأقلعنا باسم الآلهة مجراها ومرساها . وما كدنا نلح شيطان مالبا ، حتى هبت زوبعة عنيفة تلاعبت بنا ، وحملتنا إلى جزيرة سيтира ... وطفقنا بعدها نذرع العُباب تسعة أيام أخرى . حتى بلغنا بلاد (لوتوفاجي) ، هذا الشعب الغريب الذي يقتات بالفاكهة فحسب من دون ما تنبت الأرض وما يدب عليها ... ورسونا ثمة ، وأُهرع الملاحون إلى البر فاستراحوا وسمروا ؛ ثم تخيرت اثنين من أوثق رجالنا ، وجعلت عليهما ثالثاً رئيساً ووجهتهم إلى سكان هذه الأرض ليتعرفوا أحوالهم ، فاختلفوا بهم ، وقابلهم اللوتوفاجي بالبشر والترحاب ؛ ثم عرضوا عليهم من ثمر اللوتس العجيب ، الذي ينسى آكله ما سلف من حياته ، وينسيت ما بينه وبين وطنه من وشيجة فما يفكر فيه ، وإذا فُكر فيه فما يؤثر أن يرتد إليه ، بل يصبح كل معناة أن يأكل ويأكل ويأكل كل من هذا اللوتس العجيب . وأن يعيش أبداً الدهر بين أوامك اللوتوفاجي السحراء .. وتنظرت عودة رجالنا ، بيد أنهم لم يرجعوا ، فاضطرت أن أذهب بنفسى إلى حيث سُحِرُوا ، فحملتهم قسراً إلى الشاطئ بين العويل والضجيج . وقدفت كلا منهم في قرة مغلولة مكبلاً مشدود الوثاق ، ثم أمرت الملاحين فأبحروا على عجل قبل أن يأكل بعضهم من اللوتس الملعون فيضلوا ضلالهم وينسوا أوطانهم ، ويظلوا في هذه الأرض جاثمين .

(١) الآن الإعياء والتعب .

« وما عَتَمْنَا أَنْ وصلنا إلى أرض المردة الجبارة - السيكلوبس -
الطغاة العتاة ، الذين لا يخضعون لشريعة ، ولا يأترون بقانون ،
الذين تَوَتَّى أرضهم أُكَلَّها رغداً من غير كد ولا عناء ... حَبَباً
وأباً (١) ، وحدائق غلباً وقضياً وعنباً ، تُسقى بما يفيض عليها جوف من
مائه المعين ... يعيشون فوضى ، لا تربطهم رابطة ، ولا يقوم بينهم
نظام ؛ يأوون إلى كهوف موحشة ، وغيران سحيقة ، في قُلل الجبال
وأحيادها ... يُعنى كل منهم بنفسه وزوجه وأولاده وقطعانه ،
ولا يأبه للباقيين ، وتلقاء أرضهم توجد جزيرة معشبة أربضة (٢) شجراء
فيها من الماعز السائم قطعان لا تحصر لها ، ولكونها مع ذلك يهماء (٣)
مضلة ، لم تطأها فيما عبر قدم إنسان ، ولم يُرْش إلى حيوانها سهم صائد ،
لأن السيكلوبس لم يحاولوا أن يركبوا البحر مطلقاً ، ولم يعرفوا طوال
حياتهم هذه الجوارى المنشآت فيه كالأعلام . لذلك سلمت الجزيرة
بما فيها من خير ، وتكاثر قطعانها حتى امتلأت بها مروجها الخضراء
السندسية ... وثمة ، في جوف هادئ جميل ، ألقينا مراسينا ، ونزلنا
من سفائننا ، في ظلام الليل الدامس ، وفي حراسة الآلهة ، بعد
إذ ارتطمنا بسيف البحر ... ثم نمنا على الشاطئ حتى مطلع الفجر ؛
وأشرقت أورورا تنضرب بالورد مشرق الأفق ، فنهضنا بجوب الجزيرة ،
ومتفياً ظلال الحور ، ونرى عرائس الماء ترعى الماعز ، فبادرنا إلى
سفننا ، وأحضرنا الحراب والأقواس ، ثم تفرقنا ثلاث فرق ،
وشرعنا نصيد من هذا الحيوان ، فاجتمع لنا منه الشيء الكثير ، ونال

(١) الأب السكلا والمرعى . وعلا جمع غلباء أى متكاثرة وقضبا حدائق أشجارها
طويلة مبطوة . (٢) أربضة أى زكية خصبة (٣) مضلة لا يهتدى فيها .

كل من رجال سفائننا الإثنتي عشرة تسع أعنز ، بعد أن تخيرت عشراً
لنفسى ؛ ولبثنا يوماً هذا نغتذى بكل شواء حنيد^(١) ، ونكرع كل
كأس روية ، في غير تخمة ولا شجي^(٢) ... وللآلهة تلك الخمر السلاف
السيكونية التي افترعناها من زقاق أزماروس ! ثم نظرنا ناحية
الغرب ، فمراعنا إلا دخان كشاف يدّ صاعد في الأرض القريبة ،
ورغاء وضوضاء كالرعد تنتشر في جنباتها ، وإذا هؤلاء السيكلوبس
المردّة ينتشرون في الأرجاء ، وأمامهم قطعانهم من الشاء والأنعام ..
أعداد لا حصر لها ... عليها إذا عدد الحصى يتخلف !

ونما ليلتنا مروّعين ، حتى إذا بزغت أورورا نهضنا واحتشدنا
في صعيد واحد ، ثم قمت في رجالي خطيباً . فقلت : « أيها الإخوان !
لتبق غالبيتكم في هذه الجزيرة ، فإنّي ذاهب في نفر منكم نرود هذه
الأرض ، ونعرف من أنباء أهلها ، ونعلم من أحوالهم ، ونرى هل
هم ، قوم ظلم وضيم ونضال أم هم ربّيسون^(٣) يهشون للسكرات ،
ويختبون للآلهة ؟ »

« وأقلمت في نخبة من رجالي فوصلنا طرفاً من الجزيرة ناتئاً في
البحر ، فوقه قلاع مشرفة عليه ، فميطنا فيه ، وذهبنا نروده ، حتى انتهينا
إلى كهف عظيم ضارب في الصخر ، وقد نما الغار الجميل على باب الصخر ..
ودخلنا ... وأثار دهشنا هذه الخطيرة الكبيرة في وسط الكهف ، تتسع
لقطعان لا عدد لها من الأنعام والأغنام والماعز ، ثم هذا القناء العظيم
المحدق بها يفصله عنها سور عتيق من الحجر الصلد ، متعرّس به بمجدوع الحور

(١) حنيد أي يقصر دهنه من حسن نصجه .

(٢) الشجي هو الغصص بالشراب . (٣) أناس .

والسنديان ؛ ولقد عرفنا فيما بعد أن صاحب هذه المغارة مارد جبار من أراذل السيكلوبس ، لصق بهذا الطرف من الجزيرة يعسف ويظلم ويملؤه بغيا وعدواناً .. ثم هو إلى الجان والشياطين أقرب منه إلى أى خلق آخر ، فوجهه مريب عبوس أبداً ، وهو إلى ذلك هولة تحسبه إذ تراه قطعة من الصخر نحت منها ناطور^(١) فوق ناصية الجبل ... وتوقلنا^(٢) وكان معى زق من خمر معتقة مما أعطانيه مارون بن إيفانت ، قس فوبوس ، رب إزماروس ، لقاء ما أبقينا عليه وعلى زوجته وأولاده يوم غزوتنا لقريته ... ياله من كاهن سمح طيب القلب ؛ لقد نفحنى بأكرم اللشمى^(٣) وأجزل الهبات ، وهل أنسى ما حييت تلك البيدر السبع من الذهب الخالص ، وذلك الدن من الفضة الغالية ، وتلك الجرار الإلثنى عشرة من الحندريس الصرف التى تشرب باسم الآلهة ؛ لقد كان يفديها بنفسه وماله ، فلم يكن يعرف مخبأها أحد غيره وزوجه وأمينه . لقد كانت كأس روية واحدة من هذه المدامة تمزج بعشرين ضعف من الماء القراح ، وهى مع ذلك سكر ولذة وروح علوى للشاربين ؛ ثم كان معنا ركز^(٤) به أكل كثير ، وكنا عدداً عديداً من الأبطال الصناديد ، واكسنا مع ذلك كانت تعترينا رعدة ، وكان يشيع فى قلوبنا فزع ، أن يفجأنا هنا الجنى صاحب المكان ، الذى لا يخشى فينا شريعة ، ولا يرده عن أذانا قانون ... ثم توقلنا كذلك ، فأشرفنا على مغارة سحيقة هى

(١) الناطور تمثال لتخويف الطير

(٢) توقل . سعد فوق جبل

(٣) العطايا .

(٤) الركز (الخرج) بضم الراء يجعل فيه الزاد .

مقام السيكلوب ومنامته من غير ريب ؛ بيد أننا لم نجده عندها ، فقلنا ربما انطلق بقطعانه يرهاها في المروج القريبة ورددنا الطرف في المغارة فرأينا مصافي كثيرة معلقة بنز الحصير^(١) منها ههنا وههنا . فعرفنا أن السيكلوب يصنع الجبن من ألبان مواشيه ، سيما وقد امتلأ المكان بيواط كثيرة مفعمة بالحصير والخيض^(٢) وعلى مقربة منا شهدنا حظائر واسعة لصغار الشاء والحملان والماعز ، وقد قسمت فرقاً بحسب سننها وقد بدا لبعضنا أن نذهب بما ههنا لك من جبن وزبد ، وأن نستاق الحملان والجذعان^(٣) إلى سفائننا ، غير أني - وأأسفاه ! - تأييت ، لأنني آثرت لقاء السيكلوب ، رجاء أن ينفخني من كنوزه ، ويسخ علي من آلائه ؛ ولذا ، جلسنا ريثما يعود ، وأكلنا من جبنه وزبده ، وأشعلنا ناراً نستدفئ ، ثم إذا هو يصوي المروج الأخضر بقطعانه ، وإذا على كاهله الرحب أثقال وأحمال من الحطب وفروع الشجر اليابس . حتى إذا كان لدى الباب ألقاها في بطش فاهتزت الأرض ودوى المسكان ، وانخس وصيد الكهف ، فانقذف الرعب في أفئدتنا ، فهرولنا مذعورين صاعقين ، واختبأنا كالحفافيش في زوايا المغارة وشقوقها ... أما هو فقد أدخل قطعانه ، واحتجج ذكر انها في الفناء الخارجى ، ثم أخذ في حلب الإناث في الرحبة الداخلية . . . ونهض بعد ذلك فسد مدخل الكهف بمجر واحد كبير لو وضع على عربتين عظيمتين لم يستطع عشرون ثوراً ضخماً أن ترحزه من مكانه .. وجلس يحلب النعاج والماعز ، وكلما فرغ من

(٢) اللبن الخض

(١) الماء يسقط من الجبن

(٣) جمع جذعة صغار الخرفان والبقر .. الخ ..

واحدة أرسلها إلى جذعائها ترضع ماتبقى في ضرعها . . . وكان يقسم
 لبيته قسمين ، فيحتفظ بأحدهما لشرابه ، ويخض الآخر لزيدته وجبنه ؛
 ثم فرغ من هذا كله وأضرم ناراً عظيمة ما كادت تلهب حتى رأنا
 معلمتين فوق نوى الكهف . فصاح بنا : « من هنا ؟ وى ! من أنتم أيها
 الغرباء ، ومن أى البلاد نرحتم وفيم خضتم هذا العباب إلى هنا ؟
 آفاقيون ؟ أم تجار ؟ أم قرصان تعيشون في بلاد الناس ؟ » وزلزلنا
 زلزالاً عظيماً ، وكان صوته الأجش الحشن يلقي الرعب في قلوبنا
 فتعتلج اعتلاجاً . . . ثم إنى جمعت ماتبقى من وعيى ، وما أبقي عليه
 الروح والطلع من إدراكى ، فقلت أجيبه : « نحن إغريقيون أيها
 العزيز وقد زرنا البحر اللجى شرقاً ومغرباً ، وتقاذفتنا فوقه كل ريح ،
 منذ بارحنا اليوم التى فتحها الله علينا ، لأننا من عساكر أجائمون الملك
 ابن أتريوس الكريم ، قاهر طروادة ، ومبيد الطرواديين . . .
 وهانحن أولاء ، قد لذنا بك بعد طول النصب . فنضرع إليك أن تنقذ
 علينا مما أفاء خوف عليك . وأن تردنا غانمين . . . فيا مولانا أكرم
 مشوانا . فنحن الأعراب فى كسف جوف أبدأ . وأينما نول فإنه معنا »

وتجهم السيكلوب الجبى وقال مغضباً مستهزئاً : « حسبك أيها الأخ
 المغفل ماخوف من جوف . فنحن السيكلوبس لأنبالى خوف . حامل
 إيجيس^(١) . ولا سكان السماء قاطبة . . . إنا أقوى منهم بكثير . وأنا
 نفسى . لن آبه لأيتما نذير من جوف كبير الأولمب . . . ولكن حدثنى

قبل كل شيء متى ألقيت سفينتكم مراسيها في أرضنا؟ وأين هي؟ أقرية أم قاصية من هنا؟ قل الحق ولا تخف عني شيئاً... وأجبتني في حيلة ورفق، وقد عرفت ما رمى إليه: «لقد نسف نبتيون رب البحار مركبنا في اليم نسفاً، وسلط عليها الزوابع فجرت بألواحها بعيداً. بعيداً من ههنا... ونجوت مع هذا النفر من رفاقي فتمط إلى شاطئكم». ولم ينبس السيكلوب الجبار بكلمة... بل أقبل نحونا، وانقض على رجالى كالصاعقة، ثم أمسك باثنين منهم، وأرسلهما في الهواء، ثم ضرب بهما أرض الكهف ذات الثوى، فتهشم رأساها، وانتثر المخ فوق الحجارة هنا... وهنا... وألقاهما بعد ذلك في الجمر المتأجج حتى نضجا... واستوى كالسبع الرئبال، وطفق ينهشهما... ولم يمض وقت طويل حتى أتى عليهما. غير مبق على عظمة واحدة، أما نحن فيا لآلهة السماء!.. لقد كان هذا المنظر الفاجع يعصف بنفوسنا، ولم نملك إلا أن نرفع الأكف فنبتهل إلى خوف أن ينجينا. وأن يرحمنا؛ ولم يكن لنا مع ذلك من أمل في نجاة!

وبعد أن أشبع الجبار نهمته من اللحم الآدمي الغريص، وبعد أن شرب من اللبن شرب الهيم^(١)، انطرح بين قطعانه، وجعل يرسل في الكهف شخيراً من عجاً... وقد حدثني نفسي أن أنقض عليه فأخوض في لَبَّتِهِ بحِزْزِى^(٢)، ولكن فكرة سوداء طافت برأسي، حينما نظرت إلى باب الكهف فأبصرت الحجر الضخم الذى لا يطيق أحد أن يزحزحه،

(١) الإبل الضامنة. (٢) السيف القصير. واللبة قرب الرقبة

وتذكرت الموتة الجاهلية المفزعة التي سنموتها إن فعلت .. فقتضت قنوطاً شديداً ، وأرسلت آهات الحسرة والندامة أنا وأصحابي ، وانتظرنا بقلوب فارغة تباشير الفجر ، ورأينا أورا الوردية ترسل أول أشعثها من الكروى الصغيرة ، فهب السكلوب إلى قطعانه ، وأخذ في حلب إناثها ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى صغارها ترضع وتخب ؛ ثم إنه قبض على اثنين من رجالى وفعل بهما كما فعل بصاحبينا أمس ، حتى إذا فرغ من إفطاره ، هب إلى الحجر فزحزحه في سهولة ويسر ، كأنما كان يرزح غطاء آنية . ثم استاق قطعانه ، وأعاد الحجر إلى مكانه ، ومضى يرعى مبهمة ، وبقينا نحن ندعو ثبورا ... وفكرت ألف فكرة في وسيلة أتتقم بها من هذا المارد الوحش ، وتوسلت بمينرثا أن أستطيع ... وانفردت أسارى رجأة ، وأشرق وجهى بنور الأمل ... ذلك أننى أبصرت بجذع زيتون مشذب أعده الجنى ليكون عصا يهش بها على قطعانه ، فقلت في نفسى : « ولم لا يكون فى هذا الجذع خلاصنا ؟ » . ثم إنى أمرت رجالى ببرى أحد طرفيه ، وكان الجذع طويلاً جداً ، يصلح سارية لسفينة كبيرة يعمل فيها عشرون بحاراً ... فأقبلوا عليه ينحتمون ويبرون ، وأكببت أنا على نهاية الطرف أحده ... ثم اتهمينا من عملنا وأخفينا الجذع تحت القش الكثير الملقى فى الكهف ، وجلسنا نتخير من بيننا أشجعنا وأكثرنا أيداً وقوة ، وأشدنا استعداداً للحملة وغرزه من طرفه المحدد فى عين السكلوب ... واتهمنا من ذلك إلى أربعة ، وكنت أنا خامسهم . . . ثم عاد الجنى فى مزعه فأدخل قطعانه وأرجع الحجر إلى مكانه وجلس يحلب الإناث ويقسم اللبن ويمخضه ، ويرسل كل جذع إلى أمه ؛ ثم نهض إلينا فبطش

بائنين منا وتعشى بهما ، وقبل أن يستلقي على الأرض ليستريح أفعمت كأساً كبيرة مما كان معنا من خمر مارون وتقدمت بها إليه وأنا أقول : « ألا أيذا السكوب ! هاك كأساً من الخمر إذا تحسيتها بعد أكلتك الهنية من اللحم البشرى عرفت أى خمر فقدنا فى سفينتنا المغرقة القدر كنت أحضرتها تكمرة لك إذا أنت أكرمت مشوانا وأطلقت سراحنا وساعدتنا على العودة إلى وطننا سالمين ! ولكن ! أواه ! إن سورتك طامية أيها القاسى الجبار ، وإن أحداً من البشر لن يجسر على أن يقترب من جزيرتكم بعد اليوم ! » . وأخذ الكأس فعبها عباً ، وسر بها سروراً كبيراً ، ثم سأل أخرى فقال : « أيها الفتى ما اسمك ؟ أعطنى كأساً أخرى وإنى مثبك عليها . إن لدينا خمرأ صرفاً من أكرم ما تعصر العناقيد ، يسقيها جوف من شأبيمه . ولكنها أبداً لا تبلغ هذه الخمر البكر جودة » وأعطيته ثانية وثالثة ، وراح المجنون يشرب ويشرب ، ولما شهدت النشوة ترقص برأسه قلت له فى ظرف : « أيها السيكوب لقد تساءلت عن اسمي ؟ ألا فاعلم أنه أوتيس ^(١) ، وبه اسمي فى بلادى ! ولكنك وعدت أن تثبني على ما قدمت لك من خمر ، فإذا عساك مانحى ؟ » فاستهنأ السيكوب وقال : اطمئن يا صاح ! سأهب لك أن تكون آخر من آكل من إخوانك ... هذا هو جزاؤك ! وتشاء وتشاء ، ثم انظر ح وسط قطعانه يغط فى نوم عميق .. وكان ميصعداً فحاسة بقوة فتقذف من بلعومه

(١) أوتيس Outis معناها (لا أحد) ولم يستعن مترجمو هومر ، ترجمتها ، لأنها قد تعنى (ذو الأذنين الكبيرتين) ولم تؤثر ترجمتها كذلك .

شوائب من خمر ، بمنزلة بقضيات من لحم بشرى وقفزنا إلى
 جزع الزيتون فوضعنا طرفه المحدد المبرى في الجرع المتأجج حتى تأجج
 مثله ، وبكلمات قليلة أثرت الذخوة في نفوس إخواني حتى لا نخذلهم قوامهم .
 ثم استعنت الآلهة فابتعثت فينا قواها السحرية ، واستجمعنا كل ما فينا
 من منة اليأس ، ووضعنا الطرف المشتعل في عين السيكلوب المتفلة ،
 وحركنا الجذع وطفقت أنا أقلبه فيها من مكان علي ، كما يفعل السفان
 الصناع بمثاقبه في خشب السنديان ... وانبعس الدم من عين السيكلوب
 العمياء ، وحفظ إنسانها كأنه عين حمئة من دم وعاز^(١) ... وقصارى :
 لقد كنت كالحداد الماهر الذي يطفىء سلاحا محمى في ماء بارد ١١ ولتد
 صرخ السيكلوب صرخة ردد أصداءها الكهف ... ثم رددتها الغيران
 والجبال المجاورة ، وذعرنا نحن ، فلفصنا بالشقوق والزوايا ؛ وراح
 الجنى الجبار يخبط في ظلام العمى بعد إذ انتزع الجذع المشتعل من عينه ،
 وهرول كالجلبل نحو الباب فوقف عنده ، وطفق يولول وهتف وبصيح ،
 ويدعو جميع إخوانه السيكلوبس كلاً باسمه . فاجتمعوا إليه من كل فج
 عميق ... وقال قائلهم : « ماذا دهاك يا پوليفيم حتى تروعنا هكذا في
 ظلام الليل وحتى تقض مضاجعنا بصر اخك النظيف ؟ هل خفست أن
 يستاك أحد قتلناك ، أم خشيت أن يقتلك أحد بقوة أو غدر ؟ ،
 وقال پوليفيم وهو يتصدع : آه يا أسدقائي ! إنى أموت أو لقد قتلتى
 أو تيس ا » فقال قائلهم : « إن كان أوتيس — الذى هو لا أحد —
 قد ألحق بك أذى فما صنع بك هذا إلا جوف ؟ تحلدا يا صاح . وادع

أبانا نبتيور ليساعدك . يأتاك من أعماق اليم » ثم تركوه وانصرفوا
لشأنهم ، وضحكت أنا في سريري لاني استطعت أن أعمى عليهم بهسنا
الاسم الملقق المفترى : وما برج پوليفيم يبكي وبعول ويهزه الآلام
والآسى ، حتى زحزح الحجر الذي يسد الباب ، وجلس عنده ، ماداً
ذراعيه لينع أحداً منا أن يفلت أو أن يذهب ببعض أنعامه ... إنه
يحسبنا بلساً مثله ١١ . وجلسنا نعمل الفكرة بعد الفكرة ، ونرسم
الخطط نلو الخطط انجاتنا ... حتى تاحت لى فكرة حسنة ، أيقنت
أنها تقلتنا من هذا السجن السحيق إن كان شىء مستطيعاً أن يطلق
سراحنا منه ، لقد فكرت وفكرت ، فبدا لى أن لدى السيكلوب
كباشاً كسنازاً^(١) تستطيع أن تحملنا إذا ربط كل منا تحت بطن واحد
منها . لقد كانت الكباش سمينة حقاً ، ذات فراء كثة وقرة كبيرة .
فقممت من فوري فجذلت من أغصان الصفصاف التى كان السيكلوب
الشنيع ينام فوقها ، وجعلت من كل ثلاثة حبلا واحداً ، ثم ربطت كل
رجل تحت بطن كبش كبير قوى جعلته بين كبشين لا يحملان أحداً ،
بل يكونان وقاية للكبش الذى يحمل رجلا بينهما ... أما أنا فتعلقت
بصوف الكبش الأخير ، وبقيت ساكناً صامتاً ، ومكثنا هكذا
ننظر الفجر المقدس الرهيب ، بعيون واكفة^(٢) وقلوب واجفة^(٣) .
حتى بزغت أورورا فهرولت الذكران كعادتها للرعى ، وبقيت الإناث
لكى تحلب ؛ وتهادت الكباش بالاثقال المعلقة تحتها وهى تسكد تنوء
بها ، وكان السيكلوب لا يزال يُعول ويشكو بثه إلى غير سميع ، وكان

(١) سنانا كارا . (٢) دامعة . (٣) خائفة .

بلمس بيديه ظهور السكبش وهو لا يدري ما تحتها ، حتى إذا برز كبشى .
زلزلت زلزالا ، وسمعته يقول له وهو يتحسسه : « يا كبشى الحبيب
مالك استأنيت هكذا وكنت دائما سباقاً إلى المرعى على رأس النقضيع
تقضم السكلاً الخلو ... سباقاً إلى الغدير ذى الخزير تهل من مائه
السلسيل ؟ بل كنت سباقاً كذلك إلى مأواك هنا ... فى كل مساء .
ويحك ويحك يا كبشى الحبيب ! لقد أسيت لى وحزنت من أجلى .
وشعرت بما دهمى صاحبك من التعس الرجيم أوتيس ، وأتباعه اللؤماء
المفلوكين ... أوتيس الذى سحر فى بخمره ... ويل له ؟ إنه لن يُفَلَّتْ
من الموت اليوم ! آه لو كان قلبك مثل قلبى ، وآه لو كان لى بصرك
الحديد فيدلنى أين احتبأ أوتيس التسعس ! إذن كنت أحطم رأسه
فوق هذا الصخر ، أوتيس الوغد ... الذى اسمه لا أحد !! فهو
لا يساوى شيئاً ؟ ، .

شم . أفلته المغفل فانطلق السكبش فى إثر رفاقه ، حتى إذا كنا بعيدين
من الكهف ومن صاحبه قفرت من مكنتى ، وعدوت فأطلقت سراح
رفاقى ، وسقنا نخبة من أحسن النعاج إلى حيث سفينتنا المختبئة فى الجون
الهادى ... فى ظلال الخور والسنديان ... ثم أبحرنا من فورنا قوصلنا
إلى إخواننا فى الجزيرة الأخرى ، الذين هناؤنا بقدر ما ذرفوا الدموع
على ضحايا پوليفيم !! واعتزمتنا الإبحار فاستعد كل فى سفينته . وأقلعنا
لا نلوى على شيء . حتى إذا كنا على مبلغ الصوت من الشاطئ .
نهضت وجعلت أهتف بالسكروب پوليفيم هكذا : « پوليفيم ! لقد
بؤت بما صنعت يدك ، وكان جزاؤك وفافاً ، أيها النذل الخسيس !

لقد حسبت أنك تغتال رجال قائد لا سلطان له عليك ، ولا قدرة له على الانتقام منك ، فرحت تغتذى كالوحش بالحجم ضيورك الذين لجأوا إليك رتفياً وظلالك .. فاهناً الآن أيها الهولة بما حل بك ! .. وما كدت أصمت حتى ثار ثائره وغلت مراجله ، وانتزع صخراً كبيراً من شعاف الجبل ، وقذف به في قوة وعنفوان ناحية الصوت . فهوى الصخر على مقربة منا ، وكاد يهشم سكان السفينة ؛ وقد انفرج البحر ، وانشطرت أمواجه ، وارتدت السفينة نحو الشاطئ حتى لمكادت أن تغوص في رماله وتتحطم على أواذيه^(١) ، لولا أن أمسكت بالسارية الكبرى وجعلت أدفع وأدفع حتى عادت السفينة إلى مكانها في البحر ... وابتعدنا قليلاً . . . وجاهد رجالى بمجاديفهم حتى كنا على مسافة هي ضعف المسافة الأولى ... وهنا ، حاولت أن أصبح بالسيكلوب مرة أخرى ، غير أن إخبارى حالوا بينى وبين ذلك ، وسمعت بعضهم يقول : « ويك أوديسيوس الم تهيج الجنى بكلماتك ، وقد كاد الحجر الذى قذفه إلينا يودى بنا جميعاً ويحطم سفينتنا على الشاطئ ؟ أما نحمد الآلهة التى أنقذتنا من ساعديه الجبارتين ، وهو لو سمع ركزاً من أحدنا لهشمنا جميعاً قبل أن نغادر غاره ؟ » على أتى ما أصخت لهم ، ل هتفت بالمارد الجبار أقول : « أيها السيكلوب الشاغى ! إذا سألك أحد عن عمك فقل له أعمامى أوديسيوس ان لير تيس الإيتاكي ! » وتأنوه المارد حتى كاد يتصدع وقال : « ويلى منك ! لقد صدقت النبوءة ؟ وتحقق ما قال تلهوس يوريميد النبي الذى شب بيننا وطالما تحدث إلينا

معشر السيكلوبس عما خبا القضاء في صحف الغيب لنا : لقد قال لى لى
سأفقد بصرى على يد رجل من البشر يدعى أوديسيوس ، فظلمت
أنتظره ، وكنت أحسبه مخلوقاً طويلاً عظيم الجسم بادی القوة ... فإذا
هو أنت أيها القزم -- اللاشيء ١ - الذى قهرتني أولاً بالخمر ثم أخذت
بصرى وأطفأت النور من عيني ! أوه ... ولكن ... عد إلى
يا أوديسيوس وحل على ضيفاً من جديد ، أكرم مثواك ... وأصل
من أجلك لأبى . نبتيون ... الفخوري ، أن يهد لك البحر ، ويطامن
من تحتك الموج حتى تصل إلى بلادك سالماً ... إنه وحده هو اللطيف .
ولست قوة فى الوجود غيره تستطيع أن تشفينى وترد على بصرى !
فقلت له : « بنفسى لو استطعت فقدفت بك من حالى إلى قرار جهنم
فلا يقدر أحد على رد بصرى إليك - حتى ولا أبوك هذا ! » وغبط
السيكلوب وحنيق ، ورفع كفيه إلى السماء يصلى لأبيه هكذا : « أبتاه
نبتيون المحيط بالأرض . اسمع دعائى ، يا صاحب الشجر اللازوردى ،
إذا كنت حقاً أبى ، وإذا كنت حقاً تفخر بنوتى فاحرم هذا القزم
المدعو أوديسيوس بن ليرتيس الإيثاكي من العود إلى بلاده ، إلا أن
يكون هذا قضاء فى الأزل فأفهم العقاب فى طريقه ، وشرده طويلاً
فى البحر ، وأغرق سفائنه ، واقبر فى الأعماق أصحابه ، وأحوجه إلى
ذل السؤل وطلب المعونة من الناس ليدوه بمركب يعود عليه ؛ وإذا
عاد فليلق الهمم والغم مقيمين ببابه ... آمين ! » ولبى نبتيون ، ورفع
السيكلوب حجراً أضخم من الأول ، وجعل يوم به بكلتا يديه ، ثم
قدفه قذفة هائلة ، فذهب يرنق فوقنا ، وسقط وراءنا بمقربة من

من السكان ، فانشطر البحر فرّقين كل فرق كالطود العظيم ، ثم انحسر الماء فجرت السفينة إلى الشاطئ مرة أخرى ، ولكنها هذه المرة أُرست على الشاطئ الآخر الذي أُرست عنده سفائنا الأخرى ، حيث أقام إخواننا يشهدون المعركة الهائلة ويجزعون . . ثم إننا نزلنا إلى البر . وفرقنا الأنصباب من نجاج السيكلوب بيننا . وكان من نصيبى ذلك الكبش المفدى الذى نجاني ، فذبحته على رمال الشاطئ قرباناً لجوف المتعالى . . وأأسفاه ! إن أكبر ظى أنه لم يقبل قربانى ، لأن أكثر سفائنا أغرقت فيما بعد . . . وأكلنا هنيئاً ، وشربنا مريئاً ، وانتظرنا مد البحر ، ولكنه استأنى علينا . فمنا حتى نضرت أورورا جين الشرق بالورد ، ونهضنا . . . ونشرنا الشراع وأصلحنا القلاع ، وأبحرنا ، بقلوب واجفة ، ونفوس نال منها الهلع ، لاأذين بالقرار .

أوديسس يروى قصته

(أ) إيولوس وجعبة الرياح الأربع

(ب) فى جزيرة الجبارة

(ج) غرام سيرس

« وبلغنا جزيرة الأيوليين حيث يحكم الملك إيولوس بن هبوتاس ، حبيب الآلهة . وهى جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسى الهائل ، وشطآنها التى يتكسر فوقها الموج . ولقد زوج الملك أبناءه الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم فى قصره المنيف ، فى فى وارف ، من حب الملكة ، وفى بلمهنية^(١) ورغد ، وعيش واسع مخفرج^(٢) ، ونعمى

(١) حياة ناعمة سعيدة . (٢) واسع .

طائلة ، ولذا نذ شقى ... يقضون وقتهم فى لمو برىء ومرح . وبأوون
إذا أجنهم الليل إلى سرر موضوعة^(١) . وزرائى^(٢) مبهوثة ... وأرائك
من حريـر

ولقد لقينا الملك بالبشر والإيناس وأقمنا فى كنفه شهراً كاملاً ،
ناعمين طاعمين ، ثم سألنى فقصصت عليه قصة (اليوم) وكيف ستمطت
فى أيدينا . وما كان من إبحار أسطول الآخين بعد ذلك ، وما تم من
رحلتنا فى ذلك العباب ضارين على غير هدى ... ثم إنى ضرت إليه
أن يعيدنى فى خفارته إلى بلادى ، فأجاب سؤلى ، وأمدنى بكل مايسر
رحلتى ، ثم تفضل فشئى معى إلى البحر ، حيث قدم إلى جعبة مصنوعة
من جلد عجل كبير جسد^(٣) ، خيل إلى أنه ذبح فى سن التاسعة ، وهى
جعبة من صنع جوف سيد الأولمب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياح العالم
أجمع ، وأحكم رباطها بسلك فضي متين ، حتى لايفلت منها نفس واحد
إلا بإذن ... وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس - رب النسيم الحلو -
فلأ شراعنا ، وهب بين أيدينا ... وأأسفاه لقد كانت هباته اللطيفة
الرخية عبثاً ، وضاعت فى غفلة من رجالى سدى ! فلقد جرت بنا الفلك
آمنة مطمئنة طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا شيطان إثنا كما خفقت
قلوبنا فرحاً ، واستطعت أنا نفسى أن ألمح مؤاطى الأعزاء يوقدون
النار فى شعاف^(٤) الجبال ... كيد أنى كنت منهوكاً موهوناً من كثرة
العمل ووعثاء السفر ، وطول السهر والمراقبة ، فداعبت عيني سنة من
السكرى ، لأنى كنت أسهر على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ، ولم أكن

(١) منسوجة ومرصعة بالجواهر . (٢) وسائد وطنافس حريرية .

(٣) قوى لايمنى ولا عيز . (٤) رؤوس الجبال .

آمن أحداً من رجالى على الاضطلاع بها خشية الوكى^(١) ، وخفاة
 التأخير ... وبينما كنت نائماً ، لعب الوسواس فى صدور رجالى ،
 زاعمين أنى أحمل أذخاراً من الذهب والفضة أسبغها على إيبولوس
 الملك ... قال قائلهم : « يا لآلهة ! أبدأ ماوطئت قدما أوديسيوس بلاد
 قوم حتى تهالكووا عليه فرحين معجبين مكبرين ! وهو اليوم يعود من
 طروادة ومعه من مطرفها وسلبها الجمل الكثير ... أما نحن فوا أسفاه
 علينا ! لقد شاركناه تلك الرحلة المشؤمة ، وهانحن نرضى من العزيمة
 بالإياب ، ونعود منها صفر الأيدي ، لا أمامنا ولا وراءنا ! وها هو
 أيضاً قد فاز دوننا برقد ملك الرياح ، إيبولوس العظيم . هللوا يرافق
 البدار إلى هذه الجعبة ننظر ما تحتوت من أسفر وأبيض ، وأعطيات
 وهبات ... وللهسى^(٢) ! » ، وأقبل بعضهم على بعض ، وامتدت
 أيديهم إلى الجعبة فخلوا رباطها .. واحسرتاه ! لقد انطلقت الرياح
 الحبيسة ، وزجرت العواصف الهوج فى كل صوب ، وطفقت تكسحنا
 فى شدة وعنف .. بعيداً ... من أيننا كما ! ولقد قفرت من غفوتى خائفاً
 مذعوراً .. حتى خيل لى أن طوفاناً قد غمرنا ! ... وظللت برهة فى
 ذهول ودعش . وطففت الأحران على قلبى ، ورانت الهموم على نفسى ،
 وفئت اليأس فى عضدى .. ولكننى لم أجد من الصبر بداً . فتحمات
 الكارثة فى هدوء وصمت ، وعصبت رأسى بشوب رشف ، وانبطحت
 فى قرتى .. وراحت العواصف تدفع الأسطول فى غير هودة ، حتى
 بلغ شطآن الإيوليين مرة أخرى ... وهنالك بكى صبحى ... ولات حين

(١) اقتور والبطء . (٢) هدايا .

بكاء ! وهبطنا الشاطئ ، وكان همنا أن نرتشف من ماء إيلوليا العذب
 رشقات ، ثم جلسنا نعد أكلة عجلى ونلتمها ؛ وتوجهت أنا وصديق إلى
 قصر الملك ثانية . . وقد كان يجلس لوليمة كبيرة هو والملكة الحسناء
 المصون ، وأبناءؤه الغر الميامين ... ولشد ما بدهه أن يرانا بعد طول
 النأى ، فخدجنا وقال : « ويك أودسيوس فيم عدت أدراجك ؟ وأى
 سلطان مشؤوم لوى عنانك بعد إذ أرسلناك مزوداً بخير زاد لتصل
 إلى بلادك ، وتلقى آلك ؟! » . وكان فؤادى ينخلع حين قلت أجيبه :
 « تبارك الملك ! لقد حانى رجالى اللؤماء ، وخانى معهم طائف من
 الكرى ! فإذا شاء الملك فليجبر ما انصدع منا ، وهو لا يزال صاحب
 الحزن والطول ! » .. وهكذا شادت المقادير أن أقف ضارعاً إلى هذا
 الملك مرة أخرى ... وقد تلبث أبناءؤه صامتين لا يتنبسون ... واكفهر
 وجه الملك وقال : « أيها الرجل انطلق ... أغرب عن جزيرتنا هذه
 يا أنعس الناس ! إنطلق فوالله إنى لأستغفر الآلهة أن أكرمت مشوى
 رجل مثلك عدو نفسه ، ممقوت من الأرباب ، مغضوب عليه من السماء ! »
 وهكذا طردنى الملك شرطردة ، ففضيت على وجهى ، ولقيت أصحابى ،
 وأبجرنا نذرع اليم المصطخب بمجاذيقنا ، ونسكب فى هذه الأعماق
 المضطربة قيرانا ، لا أمل لنا فى الوصول إلى بلادنا . ولا رجاء فى
 الخلاص من هذه البرؤوس ! ووصلنا مدينة ليستريحونيا بعد نصيب
 ستة أيام بلياليها ... تلك المدينة الموحشة التى بناها منالاموس العظيم ...
 والى تغزو الحشرات مروجها نهاراً . فيخرج الرعاة بقطعان الغنم

ذات الفراء الكثة التي تحمى الحيوانات من ذبابة الماشية وتدفع عنها غائلتها . فإذا جنَّ الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرهم ، وذهبوا بالنَّعَم لترعى في هدأة الليل ، ولتكون بمأمن من غوائل الذباب . الذى يكون قد غلبه النعاس . . . وصلنا إلى هذه المدينة فألفيتها محصنة بسور عظيم من الحجر الصلد ، ينحدر قليلا قليلا إلى الميناء ، بمضيق صغير لا تعلو فيه موجة . ولا يتحرك فيه الماء . . . وقد أدخل رجالى سفائنهم فى هذا البوغاز ، وآثرت أنا أن أظل بسفینتى عند فمه بما يلى البحر ، فألقيت مراسى ، وثبتها فى حجر كبير ، ثم وثبت إلى الشاطئ ، وتسنمت ربوة عالية ، وأخذت أجيل نظرى فى الجزيرة . . . ولم أقف لإنس أو حيوان على أثر ، وبدت الأرض جرداء بلقعا ؛ بيد أن دحاناً كثيفاً كان يصعد من وسطها ؛ فرأيت أن أبعث باثنين من رجالى جعلت عليهم ثالثاً رئيساً ، ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة ، وليتحمسوا أخبرار أهلها . . . وقد قص هؤلاء آثار العربات التى يستعملها السكان فى نقل الأخشاب من الغابة إلى مدينتهم ؛ ولقوا عند مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ؛ فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك آتباتاس ملك هذه البلدة . . . ومشت بين أيديهم حتى كانوا فى قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة ، فلم يحسروا أن يمدوا إليها أبصارهم مما غشيهم من الفرع ، وكانت هذه هى الملكة التى صاحت عند ما لمحت رجالى ،

بزوجها ، فأقبل بهتز وتزّزل الأرض من تحته وما كاد يلبح هوّلاء
 الغرباء حتى أمسك بواحد منهم وخبط به الأرض فخطمه... كأنما أقبل
 ليخوض معمة... ؛ وانطلق الآخرا ن لا يلويا ن على شىء ؛ حتى بلغا
 سفائنا... ثم زجر الملك بصوت قاصف كالرعد يدعو إليه رعاياه ،
 فأقبلوا إليه من كل حدب ، مردّة جبارين كالأغوال ، لا عدد لهم ،
 ولا تقع العين على أبشع منهم... ثم تهاووا إلى الشاطئ حيث أرسى
 سفنا ، فجعلوا يقذفونها بحجارة من سجيل ، جعلت رجالنا كعصف
 ما كول ، وجعلت مراكبنا حطاما كان يهوى إلى الأعماق ؛ بينما هوّلاء
 الجبابرة ينشلون قتلا ناً بحر ابهم ليعودوا بهم إلى بيوتهم فرائس سائغة
 يملأون بها بطونهم... وهكذا استمرت هذه المذبحة الدامية... وكنت
 واقفاً في مركبي ، وجرأى إلى جانبي ، فأسرعت إلى حبال المرساة
 فقطعتها به ، وبادر رجالى إلى مجاذيفهم فأعملوا فيها بأيديهم... وبذلك
 نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التي كانت تتطاير فوق رؤوسنا
 وتهاوى عن شمائلنا وعن أيماننا . فتشيع في فرائصنا خطر الموت...
 وظلمنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ؛ ومع ذلك ، فقد
 كانت قلوبنا تعالج هماً وأسى على إخواننا... ثم رسونا آخر الأمر عند
 جزيرة إيايا ، حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات الشعر
 الكهرمانى ، أخت إيتيس الحكيم من أبها الشمس ، وأمها پرس ابنة
 أوشيانوس . وكأنما مشى عناية السماء بين أيدينا فرسونا في جو
 هادئ ساكن في غير جلبة ولا ضجيج ، ثم هبطنا إلى الساحل فلبثنا فيه

يومين كاملين نستجم ونستروح مما بنا من أين^(١) وجهد ، وكلنا فرائس
لما في أضالعنا من شجورهم وشجن . ثم إلى تسليحت برحى وسيفي
وحثت خطاي في أسناد الجبل حتى كنت في ذراه الشاهقة ، ووقفت
ثمة أنظر وأحس ، فلبحت في البعد دخاناً يصاعد بين الدوح والزهر
من قصر سيرس وبدأ لي أن أتوجه إليه من فوري عسى أن أجد عنده
خيراً . ولقد ترددت بد ذلك كثيراً وكدت أعرد أدراجي إلى السفينة
لأرسل نفرأ من رجالي يكشفون لي الطريق إلى القصر ؛ وما كدت
أخطو خطوات حتى ساق إلى أحد الآلهة ظيماً غريراً شرد من المرج
المعشب الحلو ليستقي مما ألح به من ظمأ فأرسلت إليه برحى فقصم ظهره ،
وسقط يتخبط في دمه ؛ وقطعت شيئاً من عساليج الصفصاف وجدلت
منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أرجله واحتملته على ظمري . ومضيت
قدماً إلى رفاقي متوكئاً في كل خطوة على رحى إذ لم تعد شيخوختي
تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير او هتفت برجالي في مرح وظرف أن : اهلوا
يا رفاقي فلن نقضى قبل أن تحين آجالنا اهلوا إلى ظبي فنيق^(٢) وشراب
عتيق ، واطرحوا ما بكم من هم وضيق ... وأقبلوا فرحين وشمروا عن
سواعدهم وهم يتعجبون من هذا القنص الغريبي ، وظللنا يومنا هذا
نطعم ونشرب ، حتى إذا أرخى الليل سدوله انكشفنا على الشاطئ

(١) تمب

(٢) كريم تربي في عز وأمن

نَسْعُطُ في سُبات هادى... وذرت أورورا ابنة الفجر الوردية ففتحت
برجالى فهبوا ، ثم جلسنا ساعة نتشاور ، وأنا أقول لهم : أيها الرفاق !
يا إخوان الشدائد ! ها نحن أولاء قد لصقنا بهذه الأرض ولساندى
أيان نذهب ؟ هل نُشَسِّقُ ، أو نُخرب ، أو نظل هنا أبد الدهر ؟
ولكن هابوا ننظر لأنفسنا مخاضاً مما نحن فيه ... فإني حينما تسنت
ذروة هذا الجبل أجلت الطرف فى أرجاء هذه الأرض فعرفت أنها
جزيرة تترامى إلى مدى البصر : ثم لى آذنت دخاناً يعلو فى الجو من
وسطها ، ينبثق من سَروَات طول فيها . فسروا لأنفسكم أثابكم الله ! -
وكأنما سقط فى أيديهم . وكأنما حاقت بهم ذكريات آتيا تأس وقومه
المستريحون ، وما لقوا من هول السَّكَّالِب أَكَلَة اللحم البشرى ، فبكوا
ساعة من الزمان ، ثم استرجعوا حيث لا يحدى البكاء . ثم قسمتهم
فريقين ، جعلت على أحدهما يوريلاحوس ، قرن الآلهة . وجعلت
نفسى على الفريق الآخر ، وجلسنا نقترع على من يذهب لارتساد
الجزيرة فوضعنا الرقاع فى خوذتى ، ثم كانت القرعة على يوريلاحوس .
فمضى ، وتحت إمرة اثنين وعشرون من رفاقنا ، كانوا جميعاً يذرفون
الدمع خوفاً وفرعاً مما وجهوا إليه ، وكنا نحن نبادلهم دمعاً بدمع وبكاء
ببكاء . . . ووجدوا قصر سيرس فى بطيحة^(١) منخفضة ، فإذا رأوا ؟
قصر مُنَيَّفٌ مُسَرَّدٌ تحديق به تماثيل حية من سباع وذئبان سحرها
سيرس بعقايرها ذات القوى الخارقة الخفية . . . ولم تزدح تلك
الوحوش ، بل كانت تثب على أرجلها الخافية فى دل وتلطف . ثم

تصبص بأذنانها كأنها كلاب السادة العظماء حينما تتملقهم في ولية من أجل لقيات ... وتسمعوا ، فإذا سيرس تتغنى بصوتها المعجب المطرب وهي تعمل على نولها ، مشغولة بنسيج سابري عبقرى عجيب ، ليس يقدر على مثله إلا الآلهة . وكان في رجال الفريق أمير عظيم هو عندى أربطهم جأشاً فقال : « أسمعون أيها الأصدقاء إلى هذا الغناء الخلو تردده جنبات القصر ؟ إنه لا شك غناء ربة الدار التي تعمل على نولها ، ولست أدري أربة خالدة هي ، أم من بنات حواء ... وعلى كل هلموا نهتف بها » . وتنادوا ، وأقبلت سيرس فهشت لهم وبشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا ... فدخلوا ، وأسفاه ، إلا يوريلوخوس فقد خشى أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . ثم قادتهم إلى بهو كبير صفت فيه عروش نفخة من ذهب ، ما كادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساقى بخمر وعسل ثم جىء بحبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعى أكلها ، وتفسيم ما سلف من أمورهم ، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم ، ثم ضربت كلاً بعصاها السحرية بعد إذ أكلوا ورووا ، واستأقتهن إلى حظائرهما حيث مسخروا فكانوا خنازير ، وإن أبقى السحر على ألبابهم . أما طعامهم بعد هذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والكريز^(١) الكلابى . وما إلى هذا وذاك من أكل الخنازير الحسيدة السائبة .

وأقبل يوريلوخوس ينتفض من الذعر ، وينعقد لسانه فما يكاد يبين ، ثم هدأ روعه قليلاً فطفق يصعقنا بأنباء ما رأى : « أوديسيوس

(١) الكريز . وجمعه الكراز بالضم الأقط ، والمراد هنا فاكهة الكريز .

ياذا المجد القد ذهبنا نتحسس كما أمرتنا، ونزود هذا الوادى الاشب (١)
فوجدنا قصرآ مشيداً فوق أكمة عالية ، وسط بطيحة منخفضة، ذاقبة
سامقة جلست تحتها امرأة أوربة - لا أدري - ولا تفتأ تعمل على منسج
بخفة صنعة ، وترسل ألحاناً حنوناً حلوة. وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت
فلقيتهم بالبشر وفتحت بابها على مصراعيه فدخلوا جميعا - حاشأى -
فقد أوجست خيفة، وقرى قلبى أن ثمة شركاً نو شك أن نردى فيه ؛
وقد راقبت رفاقى إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة، ثم هالنى ألا أراهم فجأة ،
وما كاد ينتهى حتى قفزت إلى سيفى فسلحت به وأخذت قوسى وسهامى ،
وأمرته أن ينطلق بين يدى إلى حيث ذهبوا من قل، ولكنى ركع أمامى
وتعلق بساقى وجعل يرجو ويلحف فى الرجاء ألا أذهب... «فإنك لن
تفشل فى إعادة رفاقنا فقط ، بل قد تفشل فى أن تنجو بنفسك . فانطلق
بمن بقى منا ، ويا حبذا لو استطعنا الفرار ، ولكنى أجبته أن له أن
يبقى هو فيأكل ويشرب فى السفينة ، ويكون بنجوة مما فرغ منه ،
أما أنا ، فلم أر ضرورة لبقائى

وانطلقت لألوى على شىء ، ولكنى قبل أن أبلغ البطيحة التى
بها القصر ، لقينى هرمن الحبيب إله العصا السحرية . وكانت مخالب
الصبا وبدوات الشباب تندفق فى بردتيه ، وحمر الورد تلتب فى خديه ؛
لقينى فصاخنى متلطفاً وقال : «أيها التعس أيا ن تضطرب وحدك فى هذه
الأرض ، وقد حبست سيرس من أرسلت من رجالك فى حظائر ها بعد إذ
سحرتهم إلى خناير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك

معهم إلى الأبد؟ ولكن اصنع لي؛ إني سأحبط ما فعلت، وسأحميك وأحفظك. خذ هذا العقار^(١) ولا يهتك بعد أن تدخل قصر سيرس فإنه ينتذك من كل خطر... وهلم أعليك ما عندها من السحر، إنها ستمزج لك كأساً من الشراب بما عندها من رجز، وستضع لك منه في طعام تقدمه لك فكل وارو ولا تبال، فهذه البقلة العجيبة التي أعطيك ستحبط كل ما تحيك لك فلا تقدر على مسخك كمن مسخت من رفاقك.. فإذا عاجلتك بعصاها السحرية فاهجم عليها بسيفك غير هياب، وأرسل إليها شرر الغضب من عيذك فإنها حينذاك تنقاد لك، وتقودك إلى غرفتها. وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى، وإياك أن تنصاع لها، واطلب إليها أن تبطل ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا تمسك بأذى، واحذر يا صاح أن تدلس فضل خيرك بما ركب في طبعها من شر..» وانحنى رسول الآلهة فالتقط عشبة من الأرض ثم وضعها في يدي وأخذ يكشف لي أسرارها ويقتصر على قواها الخارقة وذكر لي أن اسمها (مولى)، وبه يدعونها في السماء. وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف يشفون بها رُقي السحر.. وكانت جذورها سوداً حالكة السواد. أما زهرتها فكانت بيضاء ناصعة اليباض كاللبن... وودعني هرmez، ثم رف ورف، وعرج في السماء وانطلقت أنا أخبط في ظلمات من هو أجسى حتى كنت لدى باب ربة السحر التي وجدتها تعمل كما ذكر لي صاحبي على نوالها... وصحت صيحة عالية، فأقبلت تنهادي

نحوى وفتحت مصاريع أبوابها ، ودعتنى ، فدلقت وراءها ، حتى كنا عند عرش عظيم مرد فضى ، ذى درج ، فاستويت عليه ، وذهبت هي فمزجت لى كأساً من الخمر بشىء من عقارها ، وقدمته لى فاحتسبته ، بيد أتى لم أنغير ولم أتحول عن صورتي ، فضربتنى بعصاها السحرية وهي تقول : « هلم إلى الحظيرة حيث تقرر مع رفقاءك » ولم تكذب تصمت حتى وثبت من مقعدى وامتشقت سيفى ، وهجمت عليها ، وفى عيني جحيمان من نار الغضب ؛ فرؤيت ربة السحر ، وزلزلت زلزالاً عظيماً ، وجرت نحوى ، وركعت عند قدمى ، وتعلقت بساقى . وأخذت تضرع إلى وتقول فى بيان رائع وكلمات باكية : « عمرك الله من أنت ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يا من لم تسحرك جرعى الهائلة التى لم يذوقها أحد وظل فى صورته لحظة واحدة ولو كنتك تحمل قلباً لا تجوز عليه نفثات السحر ... هلم ... تعال ... إلى ... إلى ... أعرفك أحسن المعرفة ... إنما أنت أوديسيوس الصانع ذو الذكر ، ولقد وصلت إلى هنا من اليوم بدورك فلم يشأ هرمز ذو العصا الذهبية أن يخبرنى بمجيئك ! ولكن اغمد سيفك ، وهلم ننعيم بالحب كنز وجين ، وليفرخ روعك وليبدأ بالك ... اطمئن يا أوديسيوس ، هلم ! » وصمت لحظة ثم انطلقت أجيبها : « سيرس ! كيف تصورين أن يفرخ روعى ويبدأ بالى وقد حبست فى رحابك رفاقى وشركاء رحلتى بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؟ ثم تخشين إفلاتى فتخادعينى وتبهرين على بطلاسم الحب ، داعية إياى إلى فراشك لتشوين صفاء فضيلتى برجس رذيلتك ... لا ... لا ، إني لن أكتبى لك طلباً حتى تقاسمينى أغلظ

الأقسام ألا تلحق بي أذى ، وألا تحاولي الإضرار بي ، وراحت
تخلف وتؤكد الحلف ، وتقسم وتغلظ في القسم ، ثم إنى انطرحت
في سريرها الفخيم الديباجي . وأقبلت أربع من عرائس البحر ، خطرنا
من اليم وأقبلن من العيون والخرج المجاور لينهضن بخدمتنا ؛ أما الأولى
فقد أصلحت من سريرنا وطرحته عليه مطارف الحز ، وأما الثانية
فقد عسفت الموائد ورقت السكراسي ، وجاءت الثالثة بزق عظيم من
شراب طيب ملأت به الكؤوس الذهبية المنضدة فوق الموائد - أما
الرابعة فقد أعدت لي حماماً ساخناً وضمتني بأحسن الروائح والطيوب ،
حتى انتعش جسمي الخائر ، وتأرجحت رוחي الفاترة ... ثم ألبستني
ثوبين غالين من أندر الديباج ، ومشيت بين يدي إلى عرش عظيم
مزدان بأحسن التصاوير ، مطعم بالذهب والفضة ، فاستويت عليه ،
واضعاً قدمي على درج من لباد ناعم ... وأقبلت بعد ذلك عروس
أخرى فصبت الماء على يدي من إبريق من ذهب ، في طست من فضة ،
وجاءت بمائدة حافلة بأشهى الآكال فوضعتها قدامي ، لكنني ما مددت
إلى شيء من ذلك يدي ، لما كان يساورني من الهم ، وما يشغل بالي من
الاتقاع ؛ فلما لحظت ذلك سيرس أقبلت تيمس ، وأخذت تلاطفني
وتقول : « مالك تجلس ساكناً هكذا يا أوديسيوس ، كالذي غشي
عليه . ما تمكاد يدك تمتد إلى شيء . وكأن ألف وسواس يخامرك ؟
ألا تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى فيها ؟ ألا ما أكبر غفلتك
يا صاح ! اطمئن . فلقد أعطيتك موثقي وحلفت لك بأغلظ الأيمان
ولن أطلب إليك حراماً ، وأجبتها قائلاً : « كيف تمتد يدي إلى طعام

أو شراب ورفاقى لا يزالون فى إسار سحرك ؟ أبدأ لن أذوق شيئاً حتى ترديهم إلى صورهم ، ثم ألتقى بهم ، ونهضت تحمل عصاها السحرية وذهبت من فورها إلى الحظائر حيث أطلقت رفاقى . وكانوا لا يزالون فى صور الخنازير ، ثم جاءت بترياق فمسيحتهم به ، فعادوا إلى صورهم البشرية ، وبدوا فى أنضر شباب وأصباه ، ثم أقبلوا نحوى يلثمون يدى ، ودموع الفرح تبلل مآقيهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون وتردد أصداءهم جنبات القصر ، حتى تأثرت سيرس نفسها بما رأت ، وراحت تقول : « يا ابن ليرتيس الصنّاع ، هلم إلى مركبك فاشدها فوق البر لتسكون بمأمن من غوائل البحر ، ثم خيء كمنوزك وأذخارك فى غير ان هذه الجبال ، وعد إلى » فى جميع رفاقك ، وطربت لهذه الفسكرة فمرولت إلى الشاطىء حيث لقيت رفاقى الآخرين يندبوننا ويندرفون دموعهم علينا . وما إن رأونى حتى أهرعوا نحوى يرقصون ويطربون ويحكيون كهذه البشيم التى تعود فى المساء إلى حظائرها فتتلقاها صغارها بالثغاء والرغاء والضوضاء . وهكذا تلقانى أولئك الرفاق . وبدلت دموع أحزانهم لعبرات المسرة ، وخيل لهم أنهم رأوا فى وحنهم النأى المحبوب إيثاكا . حيث ولدوا وحيث نشأوا وترعرعوا ... قال قائلهم : « تالله لكأنا رأينا فيك أوطاننا يا أوديسيوس ، وتالله لقد طفرت قلوبنا حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبداننا . حدثنا أيها العزيز كيف هلك إخواننا فى هذا التيه » . وقلت لهم : « هلموا أولانجر مركبنا على هذا السيف ^(١) الهادىء ، ولنخبيء أذخارنا وسلاحنا فى غيران

هذه الجبال ، ولننطلق جميعاً إلى سيرس حيث ترون جميع رفاقكم في
أمنّةٍ وعزٍ وطعامٍ وشرابٍ ، ونعيمٍ مقيمٍ ، . وصدعوا بما أمرتهم إلا
يوريلوخوس . فقد سمعَ مكانه ، وكأنه لم يحفل بما أخبرته به ،
ثم حرك شفّتيه فقال : « ويح لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا
نحن الآخرين إلى قصر سيرس ، وقد تمسخنا جميعاً إلى سباعٍ أو ذؤبانٍ
أو خنازير ، ونظل إلى الأبد نحرس عرينهما غمين ؟ لقد ذهب كثيرون
متأخّية هوساً أوديسيوس وقلة بصره ، يوم حبسنا السيكلوب من
أجل أطاع رئيسنا الطياش ^(١) ، وأوشكت أن أضرب رأسه بجرّازي ،
فيخر إلى الأرض برغم ما يربطني به من آصرة الوطن ووشيجة الغربة ،
لولا أن هب رجالى الآخرون بصرخون ويقولون : « أوديسيوس
الكرّيم ! لنتركه دنا ليحرس فلكتنا ، أما نحن فراحلون معك إلى قصر
سيرس ، ولو كان ملثمهُ الفرع الأكبر ، » وتدفقوا من السفينة على
الشاطئ ، وانخرط يوريلوخوس بينهم متصاعاً لنظراتي المتأججة ...
أما ما كان من سيرس حينذاك ، فإياها أدخلت رفاقي إلى حمّامها ثم
ضمختهم بأحسن الطيوب ، وخلعت عليهم أنفخ الملبس ؛ ولما
وصلنا وجدناهم يطعمون ، فما إن رأونا حتى هبوا يعانقون
صحّابهم ويهكّون ، ثم جلسوا يستمعون إلى قصة ما حل بإخوانهم ،
وهم يصعدون زفرات الحزن ، ترددها قباب القصر . ونهضت
سيرس فوجهت إلى الخطاب إذ تقول : « ابن ليرتيس العزيز
هون عليك . وليرفه رجالك عن أنفسهم ولا يستسلموا هكذا

الغربة الحزن ، ولترقأ دموعهم جميعاً ... إلى لا أجل ما تجشموا من أهوال في ذاك البحر المضطرب ، وما لقوا من فوادم في كل أرض ، بما كتب لهم في لوح القضاء ... ولكن ، تعالوا جميعاً .. أنعشوا نفوسكم الخالدة بكؤوس الراح ، ولتستشعروا بأسمك الذي كنتم تستشعرونه يوم غادرتهم شيطان إيشا كالعزيزة .. إنكم إن لم تتناسوا آلامكم فإنها تفت في عضدكم وتوهي من قوتكم وتكون أبداً حلفاً لكم وإلباً عليكم ، ولا تعودون تشعرون معها بلدة العيش وبهجة الحياة ، ووقعت كلماتها في قلوبنا فأقبلنا على الطعام والدمام ؛ ثم إننا أقننا عندها عاماً بأكماله في أرغد عيش وأحسن حال ، متقلبين في أرفه نعيم ؛ ثم استدار الزمان . وهتف بشا قانرون الأزل . فدعاني رجالي إلى جلسة خارج القصر فقالوا لي . « تذكر يا مولانا وضئنا الأول ، فإننا نحن إليه ونسمنى لو ساقتنا المقادير إلى شطآنه » ، وكأنما نبهوا منى غافلاً . فتلبثنا يومنا هذا على مائدة رنة السحر في بلسمية وعيش مخفرج ونحر ، وأقبل الليل فأوى كل إلى فراشه ، وأويت أنا إلى سيرس فداعبتها ولاطفها في صونٍ وطهر ، ثم قلت لها في رجاء وظرف : « سيرس ياربة ؟ حبذا لو وفيت يعهدك فأرسلتنا فوق هذا البحر رحمة بنا ، لنقضى حاجات الوطن ، ولنتقطع شكوى صحابي التي مزقت نياط قلبي . » وقالت سيرس : « أوديسوس العزيز ، المعروف بأصالة الرأي ورجاحة الفكر ، إنى لن أقسرك على البقاء هنا ، لأنك ، ولا أحداً من رفاقك ، ولستكنك قبل أن تفكر في شدر حالك إلى بلادك ينبغى

أن تذهب في رحلة شاقة بعيدة المدى ... إلى هيدز^(١) ... دار بلوتو^(٢) و برسفونيه ... حيث تلقى النبي الصديق الصالح تيرزياس ، الذي احتفظ وحده في عالم الموتى بكل أسرارهِ وقواه الغيبية الخارقة ، والذي يتولى في رحاب مليكة الفناء يتنبا لها وتستوحيه وتستشيرهُ فيعرف^(٣) لك عما يهملك ويقفك على ما ينصوي لك من صحف الغيب ، وما كادت تنتهي حتى انحولسكت الدنيا في عيني وتدفقت المغموم في نفسي ، وأجهشت وأجهشت ، ثم استخرطت في بكاء طويل . وما كدت أصحو من هذه النبوة حتى قلت لها : « أنى لي ياربة أن أذهب إلى هيدز ؟ ومنذا الذي يحدوني إليها ، ولم يسبقني إليها أحد من أحياء البشر ؟ » فقالت تجيبني : ياسليل ليرتيس العظيم ليفرخ روعك ، ولا يحزنك ألا يكون لك إلى هيدز من دليل . بل هلم إلى سفينتك فأصلح قلاعها وانشر شرعها وستهب الصبا^(٤) سيجسجاً فتدّهديكم رويدا ، فإذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطئ النز^(٥) الذي تنمو فوقه أشجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمة باسم پرسفونية ، فادفعوا إليه بسفينتكم ثمهاووا إلى مشوى بلوتو الساحيق الذي يبتدى عند الصخرة الهائلة التي تتمكسر فوق أواذها أمواه أشيرون^(٦) وستيكس وكوكيتوس فاتركوا سفينتكم ثمة ، واحفروا عندها حفرة ذراعاً في ذراع ثم صبوا في جرتها الأولى قرباناً من لبن وعسل ، وفي الثانية

(١) الدار الآخرة . (٢) إله الموتى وزوجه . (٣) يتكهن — من العرافة بالسكسر . (٤) ربح العيال وسجسجاً أى هبوباً لطيفاً . (٥) الذي ينز الماء مصدر استعمل صفة . (٦) تنطق الشين كافاً مشددة وقد آثرنا الشين في كل كتبنا تسهيل النطق . وهذه كلها أشهر في العالم الثاني في أساطير اليونان .

خمرأ معتقه من أحسن ما تعصرون ، وفي الثالثة ماء قراحا ، فإذا كانت الرابعة فانتثروا الدقيق فوق الجميع ، واصنعوا ذلك باسم الموتى جميعا ، ثم انذروا لهم أن تذبخوا يوم تعودون إلى إينا كما سالمين مجلاً جسداً من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لتيرزياس كبشاً سمثوريا ليس في أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلادا ، فإذا فرغتم من صلاتكم ونذوركم وأدعيتكم لجميع الموتى من كل الأمم فاذبخوا في الحال كبشاً ونعجة سمورية ، على أن تكون رأسا الضحيتين تلقاء إربوس وعلى أن تشيخوا بوجوهكم تلقاء الشاطيء ، فإذا صنعتم كل هذا فسرعان ماترون أرواح الموتى تقبل نحوكم من كل فج ، فسارعوا إلى ذبائحكم فاسلخواها وألقوا بلحومها في النار مصلين ملين داعين كما تهدأ نفسا بلوتو وزوجته پرسفونيه ، ولا تسمخوا لأرواح الموتى أن تقرب أضحيانكم ، وذودوهم عنها بأسيا فكم حتى تلمخوا تيرزياس قادماً فيلقاكم ويحدثكم ويوضح لكم ما غم عليكم من سبيلكم في هذا البحر الرجراج المتلاطم بالأمواج . وسكتت ، وابلج الصبح ، فنهضت تصلح من أثوابها وتضفي عليها من شفوفا البيضاء كالندف ، وتنثر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثلج . أما أنا فنهضت كذلك ، واكتسيت صدارى ودثاري ثم توجهت إلى رفاقي فأيقظتهم وحشثتهم على الإبحار من تونا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعاً إلا فتى يافعا لم يكن له يدان في هذه الشدائد ، بل كان كل همه في كأس من خمر ينطرح بعدها وهو لا يمي شيئا . وكان اسمه أليثور ، وكان قد غرق في سبات عميق فوق سطح

القصر ، وقد أفزع ما سمع من جلبة أسلحتنا فهب من نومه مخموراً
متخاذلاً وساقته قدماه إلى حافة السطح فَزَلَّتَا وسقط إلى الأرض ،
ودُقَّ عُنُقُهُ ، فسبقت روحه إلى هيدز . وقلت لأصحابي لما اكتمل
جمعهم : « أنظرون أنا مبجلون إلى أوطاننا الكلا يارفاق افأمانا رحلة
طويلة شاقة إلى هيدز ، حيث ينبغي أن نلقى تير زياس النبي الصالح
ليُعرِّف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنا الغيب ، بهذا رسمت
سيرس ، وإنا لنصيححتها سامعون ا » وخفقت قلوب إخواني ، ونظر
بعضهم إلى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولكنهم
صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أن لا شيء غير هذا ينفعهم . وانقلبنا
إلى البحر ، وكانوا لا يزالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم ...
وقمنا نحن ذاهبون ، كانت سيرس تسوق إلى السفينة كبشاً عظيماً ونعجة
سمورية ... وإن كنا لم نرها قط ، ومن ذا الذي تستطيع عيناه أن
تريا ربة كريمة رائحة أو جائية إن لم تشأ هي أن تكشف عن نفسها ؟ »

رحلة أولوبسيوس إلى العالم الثاني

• وذهبنا إلى الشاطئ وأزلنا الفلك إلى الماء ، ثم أصلحنا القلاع ونشرنا الشراع ، ووضعنا القرائين على السطح ، وذرفنا من الدموع ما شاءت لنا الهموم والآلام ... وأقلعنا ... وأرسلت سيرس بين أيدينا ريحاً رخاء كانت خير معوان لنا وخير رفيق في سفرتنا الرهيبة هذه ، حتى لتركنا لها مقاليد الفلك ، وانسدد^(١) نحن^(٢) فوق السطح من غير ما عمل . ولم تزل تجرى بنا طول هذا اليوم ، حتى إذا أوشكت الشمس أن توارى بالحجاب ، وقارب الظلام أن يلبس أردانه على الكون الهادي . أشرفنا على تخوم البحر الأعظم ، حيث تهض مدينة السمرين التي ينعقد من فوقها كدجن .^(٣) كثيف وظلمات داجية ، فلا تنفذ إليها شعاعة من نور ، ولا يحيطها رسول من شمس هذه الدنيا العاملة الدائبة . التي يسطح في سمواتنا ركبها الفخيم ، فهي أبدأ في ليل متصل مدتهم ، لانجباب عنها غواشيمه . وهنا ، ألقينا مراسيلنا ، وأزلنا الككبش والشاة إلى البر ، وانطلقنا فوق سيف البحر إلى حيث أمرتنا سيرس ، وتركنا يوربلاخوس نبرميد عند القربانين ، وعنيت أنا باحتفار الوهدة فجعلتها ذراعاً في ذراع ، ثم شرعت أصب تقدمات الشراب باسم الموتى فبدأت بمن يج من اللبن والعسل

(١) السدج : نام وفرج بين سائيه

(٢) السحاب المظلم .

المصنى، وأتبعته بالخر المعتقة؛ وثلث بالماء القراح؛ ثم نثرت على ذلك كله دقيق الشعير. وصليت من أجل الموتى، ونذرت - إن عدت إلى إيثاكا - أن أضحي لهم بعجل عظيم ذى خوار يكون أسمن وأقوى ما فى قطعانى؛ أذبحه وأحرقه فى نار مجللة بكل ما يشوق الأشباح من أرواح وطيرب. وخصصت الكاهن الطيبى (تيرزياس) فنذرت أن أضحي له بأحسن كباشى وأعظمها مئة، ثم شمريت عن ساعدى، وذبحت القربانين فتدفق الدم فى الوهدة... وهنا... أهرعت الأشباح من كل فج، وأقبلت مطهعة كأسراب الدَّبى^(١)... يا للآلهة!! هنا، زرافات العذارى جرعن كأس الحمام فى ميعة الصبا، وهنا، جموع الشباب اليانع كأفواف الزهر غالهم عادى الردى، وثمة، عرائس سادرات تسربلن بسواد الحزن، فجأتهن المنايا ليلة الزفاف، وهناك، أطفال كأكام الورد لما تفتح قطعتهم أيدى المنون، وعن كشب، وقفت كواكب المحاريين الذين اطخروا بالدماء وجه البسيطة... والآباء والأمهات والأجداد... أقبلوا يتدافعون نحو الوهدة صائحين صاخبين، قاذفين فى قلوبنا الرعب... ثم هتفت برجالى فشرعوا يحرقون القرايين ويصلون لرب هذه الدار - بلوتو - ولزوجه، ورحلت أنا أذود الأشباح الهائمة عن دم الضحايا بسيفى أضرب به ههنا وههنا، حتى لمحت روح رفيق أليينور^(٢) الذى تركنام فى أرض سيرس دون أن نقيم له شعائر الموت لما كنا بسبيله من هموم... لمحت روح رفيقى فتصدعت، ثم ذرفت عبرات وعبرات، وكنيته قائلاً: «أليينور!

(١) الجراد.

(٢) أليينور الثمل الذى سقط من السطح فدق عنقه (الفصل السابق).

يا صديقي كيف وصلت إلى ظلمات هذه الدار الآخرة في مثل هذه السرعة ولم تحملنا إليها سفينتنا إلا بعد لآي؟ عمرك الله هل سبحت في الهواء؟ أم طويت إليها الرحب ماشياً؟، وانهمرت من عينيه دموع ودموع . ثم قال يجيبني: يا ابن ليرتيس النبيل، المعروف في العالمين بالحكمة ودقة الفهم، لقد أودى بي السكر فسقطت من سطح سيرس فندق عنقي. وأسرعت من ثمة على درج الظلمات إلى هيدز ... على أتقى أستحلفك بكل عزيز عليك، ببنلوب، بالنار المقدسة التي تتأجج عن قلبها حياتك، بولدك الأوحد تلياك أن تجمع ما تبقى من سلاحى وعتادى إذا عدت إلى سيرس، وإنك إليها لعائد حين ترجع أدرأجك من عالم هيدز، وأن تحرق جثمانى فى نيران هذا العتاد، ثم تصلى له، وتضرع إلى الآلهة من أجلى حتى أفرها، وتهدأ فى تلك الظلمات روحى، وأن تغرس فوق السكومة التى تشمل رفاقى، مجدافى العزيز الذى عملت به فى البحر تحت إمرتك، وفى ذرى سلطانتك وقيادتك، حتى يذكرنى فى العالم الفانى الذاكرون . ووعده أنى فاعل، ثم لم أزل أذود الأشباح عن الدماء المتدفقة . وبغاة لحت بين أرواح الموتى شبح أمى أسمى المحبوبة أنسكليا ابنة الشجاع أوتوليكوس، التى تركتها يوم يعمت شطر طر وادة قوية، غريضة الصباريابة الشباب وما وقعت عيني عليها حتى أجهشت وأجهشت، ثم انهمرت من مقلتي أحر العبرات ... ومع ما كان يعتلج به صدرى من الأسى عليها، فقد ذدتها عن الدماء كذلك، وبى من الهمة لتلك الفعلة ما أوهنتى وأضوانى . ثم أقبل نبي طيبة وكاهنها الجليل، يتوكأ على عصاه الذهبية . وما كاد

يحملق في قليلا حتى عرفنى وخاطبنى يقول : « لم غادرت الدنيا الدافئة
المشرقة أيهذا النعس، وقدمت لترى هزلء الموتى ولتضرب فى ظلمات
هذا العالم العبوس ؟! ولسكن نَحْ هذا السيف قليلا حتى أجرع من تلك
الدماء ، وإنى لمحدثك حديث الصدق عما جئت من أجله » . وأغمدت
سيفى ، واحنى الكاهن فعب من الدماء ما شاء ، ثم قال لى : « أوديسىوس !
إنك تجتهد أن تعود أدراجك إلى بلادك ، غير أن طريقك إليها
محفوفة بالمسكاره ، ممتلئة بالعقبات ؛ وإن لك فيها لعدواً لدوداً يتأثرک ،
ذلك هو نيتيون الذى أسخطته بما سمعت عين ولده السيكلوب (بوليفيم)
على أنك واصل بعد أهوال جسام إلى وطنك ، فإنك إن كبحت جهاج
شهواتك ، أنت ومن معك ، فإنك واصل يوماً إلى شطآن تريناشيا ،
وتسكون قدأفلت من روع اليم وأرزائه ، فإذا كنت ثمة فاحذر أن تمس
قطعان رب الشمس السائمة فى الجزيرة بأذى إن كنت جد حريص على
العودة إلى بلادك سالماً ، مهما اقتحمت بعد ذلك من عباب وعقاب .
فإذا مسها منكم أحد بأذى ، فويل لکم جميعاً ! إن فلسک تغوص إلى
الأعماق ، ويغرق رجالک أجمعون ، أما أنت فتنجو بعد جهد ، وتلتقطك
سفينة عارة وتعود بك بعد شقاء وبلاء ، وعناء أیما عنا ، إلى وطنك
الذى ينتظرك فيه ألف ويل وويل ! ستجد قصرک المنيف محتلاً بطغمة
أشرار من خطاب زوجک الوفية لك ، يرغون خيرک ويزججون شاءک ،
ويغرون ببلوب بالعطايا والرشى لتختار من بينهم بعلأ لها ... ولسكنک
ستنتقم منهم وتنتصف لما قدموا من سوء ، وستبيد جموعهم ، فإذا تم لك

النصر عليهم فانطلق من فورك إلى الشعب الذي لم ير البحر أحد من أهله ولم يذق الملح أحد منهم قط ، وليكن معك مجداف عظيم يدلك عليهم فإنهم إن رأوه عجبوا من منظره ، وظنوه مذراة مما يدرى به القمع : فإذا عرفتهم فاغرس المجداف في أرضهم ، وضح لنبتيون رب البحار بعجل عظيم وكبش سمين وخنزير كنانا^(١) ، ثم تمهل إليه وأخبت ، وانطلق إلى وطنك وضح بأحسن ما تملك من الشاء والنعم للآلهة ، وصل لكل منها واخشع ، تعش آمناً غاماً ، وتمت بعد حياة هائلة مودة قريرة ناعمة بعد حكم عادل طويل ، وشيخوخة هائلة موقورة ... هذا من أنباء الحق عرفتها لك .

وقلت له : « أنا لا أكذبك يا تيرزياس فيما كشفت لي من أنباء الغيب ولكن جعلت فداك : إذ ألمح شعاع أبيض على وجهك بالقراب من الدم دون أن تتعطف بكلمة واحدة على ابنها الحبيب ، فمن ذا الذي يشعرها أني - أنا ابنها الأوحده - قريب منها ، فقال : « لا أيسر من ذلك يا بني ! وإنك إن تركت أيتها من هذه الأشباح يرشف رشفة من ذاك الدم ، فإنه يتحدث إليك بعد ، ويذمك بما تشاء » . ثم غاب شبح الكاهن في ظلمات مملكة بلوتو ، وسُـمِرَت أنا مكاني أنتظر شبح أمي ، التي ما كادت تذوق الدم حتى عرفتنى ، وانطلقت تمكلمني في رفق وحنان : « أي بني كيف أتيج لك الضرب في دياجير هذه الدار الآخرة وأنت لا تزال حيا تدب على رجلحك ؟ ألا ما أشق هذا على بني الموتى من أهل الدار الأولى ! إن ههنا أنهاراً من حميم يدور بعضها على بعض ، وقد تطفئ

(١) بالسكسر سمين .

على شطآنها بعباب حمىء ، ومحيط بها البحر الأعظم الذى لا تشق أجباله
فُلك ، بله قدم سائر عابر الأواه ! لقد ذرعت البحار شرقاً ومغرباً
فى رحلتك من اليوم ، أنت ومن معك ، ولما تصل إلى إيثاكا العزيزة !
وسكنت قليلا ، فسألتهما : « الظروف القاسية وحدها يا أماء هى التى
قادتى إلى مملكة بلوتو ، ليعرف لى الكاهن الصالح الطيب تيزياس ،
ولقد تجشمت الأحوال الثقالة منذ توجهت مع أجا ممنون للقاء أبناء
طروادة ... وهأنذا منذ ذلك اليوم لم تطأ قدماى أرض وطنى ... ولكن ...
نبئينى يا أماء أية ضربة أودت بحياتك الغالية ؟ هل سفك دمك أحد ؟
أم أصماك سهم من ديانا ؟ ... وحديثى كذلك عن أبى السند الشيخ ،
وعن ولدى تليماك ، وحديثى عن ملكى وعتادى ، هل غلب عليهم ما
أحد من سادات البلاد ، حين يئس السكل من عودتى ؟ وخبرى عن
زوجى ، ألا تزال تعيش مع ولدى مخلصه وفية لى ، أم تزوجت من أحد
أمراء هيلاس ؟ ! ، وقال الشبح الكريم يجيدنى : حاشا يا بنى ! إنها
لا تزال وفية لك ، مبقية على ذكراك ، مقيمة فى قصرك ، وإن تسكن
تقضى لياليها وأيامها فى حزن ممض عليك ، ودموع جارية من أجلك ،
وآلام ما تنتهى لبعذك . أما أملاكك فلا تزال لك ، وما يفتأ ولدك
يغلها باسمك ، وما يفتأ يغشى الولائم فى أهبة الأمراء ، ورؤاء الأماثل
العهفاء ! ولم يزل أبوك مقيما فى مزارعك ، عزوفاً عن المدينة وبهرجها ،
وأرائك القصور وزرايها ، وهو يقضى أيامه يصطلى نار المدفأة فى
الشتاء ، قابعا على فروته الفقيرة المتواضعة ، غاراً فى أنماله ومزقه ، فإذا

جاء الصيف ، أو بجأه الخريف ، اعتمكف في ناحية ، وانطرح على
 الهشيم المتساقط من الأشجار ، وراح يعالج من الحزن عليك ، والبكاء
 بسببك ما يرهيه ويضنيه ، طوال تلك السنين السوالف ؛ وهكذا
 هلكت أنا الأخرى من طول التفجع عليك ، والتصدع من أجلك ،
 فلا دينا أصمت فؤادى بسهم ، ولا اعندى على معتمد .. بل الحزن وحده
 يا أوديسيوس ، والوحشة والضنى ، وطول الوجد ، وذكراك في كل
 حين ؛ كل أولئك يا بنى اختضر غود حياتى ، وعجّل إلى مماتى ، وما
 كادت تفرغ من حديثها حتى أزرفت^(١) إليها أودلو ضممتها إلى
 صدرى ، بيد أنى فشلت مرة وأخرى وثالثة ، إذ كانت تنفقتل في كل
 مرة من بين ذراعى^٢ كما ينفقتل الظل ، أو كما يسرى الحلم . ولم أطق على
 ذلك صبراً فقلت لها : « لماذا تأبين على عناقك يا أماء وقد تتداوى به
 بما بنا من شجور ، ولو كنا هنا في مملكة بلوتو ١٩ أم ياترى أرسلت إلى
 پرسفونيه شبحاً يعيث بى ويتضاحك على ١٩ ، قالت : « أواه يا بنى ،
 يا أتعس بنى الموتى ! أبدأ ما حاولت ربة هيدز أن تعيث بأحد ، ولكنها
 طبيعة الموتى هنا ، فهم لا عضل ولا لحم ولا عظم ، ولا ما ذهبت به النار
 بعد الموت فى الدار الأولى .. بل هم أرواح تشبه الظلال أو الأحلام فى
 خفتها وسرعة انقلاطها ... ولكن هلم فعد أدراجك إلى النور . . . فلقد
 جاءك من الحق ما هو حسبك » . ثم همهمت حولى أشباح العذارى
 والأزواج من بنات هيدز ، سعين من عند پرسفونيه ، فامتشقت سيني ،

(١) أسرعت

وحظقت أذودهن فلا يقرن الدم إلا بإذن واحدة بعد واحدة، لتقص على كل منهن قصة حياتها. ولقد كملت تيرو الحسنة، كريمة المعتقد، طيبة الأعراق فذكرت لى أنها ابنة سالمون وزوجة كريتيوس بن إيولوس - وأن أينوس إله الساسيل، أعذب أسفار الدنيا - قد كان مشغولاً بها حباً، وأنها طالما كانت تغشى شيطاناً نه النضر، وخمائله الخضر من أجل ذلك. وأنها كانت يوماً تلعب هناك، فإذا شبح جميل كأنه شبح حبيبها يظهر فجأة ثم يأخذها بين ذراعيه، ثم يعلو طوفان من اليم فيطوئهما معاً. ثم تفيق فتري نفسها بين ذراعي نبتيون الجبار رب البحار الذى يشاكها غرامه هو الآخر، ويبشها حبه، ولا عجز قلبه، ثم يهوى بها إلى أعماق مملكته السحيقة. ويعاشرها كزوجة، ثم يرسلها بعد أن يوصيها بولديه التوأمين منها، ثمرة الحب السرمدي المقدس... ويغوص في اليم. وتعود هى إلى بلدها فتضع ولديها العظيمين - وزيرى جوفه الأكبر - بلياس ونليوس - ويشب بلياس ويضرب فى الأرض، فينتهى إلى مروج إياؤلخوس ويرعى ثمة بهمه وقطعانه؛ أما نليوس فيسكن البلقع الجذب من أرض بيساوس.. وتتزوج كريتيوس بعد ذلك كله. فتنجب منه أناءها الثلاثة الآخرين، ذوى الشهرة والمجد. ثم كملت أنتيوب ابنة آسوب التى راحت تفخر بما كان بينها وبين جوف - كبير آلهة الأولمب - من هوى وصباة وحب، وأنها أنجبت له ولديه العظيمين أمفيون وزيتوس من شىء طيبة العظيمة ذات القلاع والتلاع والأبواب السبعة.. ولقيت بعدها ألكمينة ابنة أمفيريون.

حبشية جوف ، وأم هرقل الحديدى الجبار . . . وقد ذكرت لى أنها تزوجت من كريون بعد ، فأنجبت له ابنته ميجارا ، زوجة ابن أممتريون ولقيت الحسنة بوكاستة أم أوديبوس الملك العس . الذى تزوجها وهو لا يدري أنها أمه بعد أن ذبح أباه ، فصبت عليه السماء سياط عذابها ، وذهب على وجهه فى الأرض حيران ، أما أمه فقد سبقت روحها إلى هيدز بعد إذ شنت نفسها فى سيرها ؛ تاركة ولدها لربات العذاب . يسمونه الخسف ويحرقونه الأوصاب . . . ولقيت الغادة الحسان خلوريس التى هام بها نليوس ونثرت تحت قدميها هداياه ، فأسلست له ، ورزق منها أبناءه الثلاثة نسطور وخوروم وبركل ، الميامين ذوى المجد . . . ثم كلمتنى ليدان زوجة تندار ، أم كاستور والصنديد وبوللكس الملاك العتيد ؛ إنهما ينعمان بنعمة زيوس أبى الآلهة ، فهما يتبادلان الموت والحياة ، سنة^(١) فسنة^(٢) ، وفاء منهما ومحبة وإعزازاً ثم رأيت إفيمديا الحبشية التى خفرت هيسام نبتيون والتى أنجبت له طفليه الجميلين أوتوس وإفالت اللذين بزا بجهاهما كل من دب على وجه الأرض ، باستثناء أوريون . . . ياله من طفلين !! لقد شبا نيران الحرب على آلهة السماء وحاولا رفع أوسا إلى قمة الأولمب فجعلوا بليون على أوسا ركاما ، وقد أوشكا أن يفلحا لولا أن ذبحهما زيوس وولده أبوللو ليكونا عبرة لغيرهما . . . فى الموت . هذا المعتدى على شباهما الغض ، فأذبل الحدود وأذوى الورود !

(١) وردت عنهما أسطورة رائعة سننشرها قريباً فى الجزء الثانى من كتابنا أساطير الحب والجمال هند الإغريق .

ورأيت بعد ذلك فيدرا، ولقيت آريادن المفتان وپروسيز اللعوب،
أما آريادن فقد حملها ثيزديوس من كريت إلى فراديس أثينا... ولكن
وأسفاه! إنها ما تمتعت ثمت لا قليلا ولا كثيرا أفقد أصمتها ديانا الغادرة
بسهامها، وشهد فعلتها المنكرة باخوس العظيم... في ديا
ورأيت ميرا... وكليمنيه... وإريفيال التعسة التي قبلت أن تنال
ثمن روح زوجها من الذهب.

والآن!! وقد أوشك الليل أن يلقي علينا طيلسانه فما أحسبني
أستطيع أن أحصى زوجات الأبطال العظام وبناتهم اللائي لقيت في
هيدن، فأرجو لو أمر الملك فانطلقت لأستريح في سفيتي... أو هنا إن
أذن... وكلّي ثقة فيكم وإيمان بالآلهة أنكم ستدبرون أمر إبحاري
إلى وطني حتى الصباح..

* * *

وسكت أوديسيوس وصمت الجمع المحتشد في الردهة الملكية فكأن
على رؤوسهم الطير من روعة ما حدث، حتى نهضت أريتا الملكية،
ذات الذراعين العاجيتين، فقالت: «أيها الفياشيون كيف أنتم وهذا
المهاجر النبيل الذي زادته الآلهة بسطة في العقل والجسم، وأضفت عليه
هذا البهاء وذاك الرواء؟ إنه ضيفي، بيد أنكم تشركونني في ضيافته
والاحتفاء به، تخليق بكم ألا تسرحوه على عجل كما يجب، بل حرى بكم أن
تستبقوه أياما حتى تغلغوا عليه، وتقدموا له أطرف الهدايا وأعز اللطائف
وتفسيحوا عليه مما حبتكم السماء، فكلكم غنى جم الغناء، ثمثري واسع
الثراء... ونكلم البطل إخنيسوس، أكبر أمراء فياشيا وأتقدم ذكرأ

فَقَالَتْ : « إِن مَلِكْتِكُمْ ذَاتُ الْمَجْدِ وَالْكَبْرِيَاءِ يَا أَصْدِقَاءَ لَا تَبْدَى رَغْبَةً
فَحَسْبَ ، بَلْ هِيَ تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةِ عَالِيَسَةِ وَأَمْرٍ سَنَى ، فَخُذُوا لَوْ أَصْخْتُمْ
وَصَدَعْتُمْ... عَلَى أَنْ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ رَهِينٌ بِمَشِيئَةِ الْمَلِكِ ، فَلَسِيرَ إِذْنُ رَأْيِهِ » .
وَقَالَ الْمَلِكُ : « إِنِّي أُوَافِقُ عَلَى مَا رَأَتْ الْمَلِكَةُ ، زَهْرَةُ فَيَاشِيَا وَسَيِّدَةُ
الْبَحَارِ ؛ لِيَبْقِ الضَّيْفُ إِلَى غَدٍ إِذْنًا ، بَرَّغْمَ مَا يَحْدُوهُ مِنَ الشُّوقِ إِلَى بِلَادِهِ ،
حَتَّى أَسْبِغَ عَلَيْهِ ، وَأَدْبِرَ أَمْرَ عَوْدَتِهِ الَّتِي يُعْنَى بِهَا الْجَمِيعُ ، وَكَأَنَّمَا صَادَفَ
مَقَالَ الْمَلِكِ هَوَى فِي فُؤَادِ أَوْدِسيُوسَ فَهَضَّ وَقَالَ : « أَلَسْ كِينُوسُ يَا مَلِكُ
فَيَاشِيَا الْعَظِيمِ ! بُوْدَى لَوْ بَقِيَتْ هُنَا عَامًا بِأَكْمَلِهِ لَيْتِمُ الْمَلِكُ نِعْمَتَهُ عَلَيَّ ،
وَلْيَدْبِرْ أَمْرَ عَوْدَتِي سَالِمًا إِلَى أَرْضِ الْوَطَنِ... فَمَا أَجْمَلُ أَنْ أَعُودَ
بِالْعَطَايَا وَالْهَدَايَا وَالنِّعَمِ ، لِأَمْلَأَ عَيُونَ مَوَاطِنِي ، وَلَأَكْسِبَ احْتِرَامَهُمْ
وَأُنَالِ مَحَبَّتَهُمْ بَعْدَ طَوْلِ الْمَأْيِ وَفَدَحِ الْبَعَادِ » .
فَأَجَابَهُ الْمَلِكُ : « اللَّهُ مَا أَرُوعَ مَا حَدَّثْتَ يَا أَوْدِسيُوسُ ! وَيَكُنْ أَمَّا
حَدَّثْتَ بِلِسَانٍ سَاحِرٍ عَلِيمٍ يَهْرَجُ الْقَصَصَ وَيُوشِقِي الْأَخْبَارَ ، وَيَرْوِّقُ
وَيَزُوقُ ، فِي زَكَاتِهِ وَفُطَانِهِ وَحَذَقِ وَتَرْتِيبِ ؟ ! أَبْدَأُ مَا حَمَلَتْ هَذِهِ
الْأَرْضُ أَلْبَمْنَكَ وَلَا أَلْبِقُ فِي رِوَايَةِ وَتَحْدِيثِ ، وَأَبْدَأُ مَا تَسَاكَبَتْ
الْمَوْسِيقُ وَالنِّعَمُ الْخُلُوفُ مِنْ لِسَانِ كَلْسَانِكَ الذَّرْبِ الْحَبِيبِ ! وَلَكِنْ مَاذَا
عِنْدَكَ مِنْ أَخْبَارِ الْأَبْطَالِ الْإِغْرِيْقِ ، الصَّيْدِ الصَّنَادِيدِ ، الذَّادَةِ الْمَذَاوِيدِ ؟
حَدِّثْ يَا أَوْدِسيُوسُ ! قُلْ ، قِصِّ عَلَيْنَا أَخْبَارَهُمْ ؛ أَرَأَيْتَ أَحَدًا مَنِ شَهِدَ
مَعَكَ وَقَائِعَ طُرُودِهِ ؟ إِنْ اللَّيْلُ لَا يَزَالُ فِي عَنَفْوَانٍ يَا صَاحِبَ ، وَمَا بَاعَيْنَا
مِنْ سَنَةِ فَنَأْوَى إِلَى وَرَاشَتِنَا فِي مِثْلِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ هَلْ خَدَّثْنَا ، فَبِنَا إِلَى
حَدِيثِكَ شَخَفَ ، وَكُنَّا إِلَيْهِ شَوْقَ ، وَلَوْ حَدَّثْتَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ، إِنْ لَمْ
يَنْلُ مِنْكَ وَصَبَ أَوْ مَيِّعِيكَ مَلَالٌ » .

وقال أوديسيوس : « بورك سيد فيا شيا الملك ألكينوس الايزال
 في الوقت متسع للحديث وللنوم معاً ، وإن شئت حدثتك بطائفة من
 الأَحَادِيث عن أبطال الإغريق سواء منهم من ثوى تحت أسوار طروادة
 ومن أفلت من الموت ثمة فترصدته المنايا في أرض وطنه صَبَباً من كف
 زوجه الأثيم الزنيم ! إليك إذن : ... وحينما هتفت برسفونييه -- ربة
 هيدز -- بأشباح العذارى وأرواح الحسان فانشين عني إلى ظلمات
 دار الفناء ، بدا لي طيف أجائمنور -- ابن أترئوس -- ومن حوله
 كوكبة من أشباح الذين قتلوا معه في داره بيد إيجستوس ... أهرع
 إلى الدماء فرشف منها رشقات ، ثم نهض فعرفتني ، وكأنا شاعت فيه
 رعدة من الدهشة والذعر ، وتحدرت دموعه الحار السخينة فوق
 خديه ، ثم مد إلي ذراعيه يود لو عانقني ، ولكن ... وأسفاه ! وهل
 يعانق الشبح إنسياً ؟ ! وبال منى الحزن فبكيت من هذا المنظر الفادح
 الأليم ، وفلت أكله في أسلوب بئس وعبارة باكية . « ويحك يا ابن
 أترئوس يا ملك الدنيا العظيم ماذا جرعت كأس المنايا ؟ خبرني ! هل
 جرعتها في قرار اليم مغرقاً بيد نبتيون أم فوق ظهر الأرض حين كنت
 تسوق قطعانك ، أم قتلت وأنت تحارب من أجل بنات أخايا إذ هن
 محاصرات خلف أسوار مدينتهن ؟ ! » فقال يحبيبي : « أودسيوس الزعيم
 النبيل ، يا ابن ليرتس الحكيم أبدأ ما مت مغرقاً بيد نبتيون . ولا فوق
 ظهر الأرض في حومة حرب زَبُون ، بل ذبحني اللثيم إيجستوس
 بعد أن دبر غيبتني مع زوجتي الآثمة ، حين ملّس^(١) لي وبالغ جهده

(١) ملق فلاناً وملق له تودد .

في الاحتفال بي ، ثم ذبحني كما يذبح الثور في مَؤدّه وكر على رجالي
فدبحهم كما تذبح الخنازير لوليمة في عرس أو في حفل لزعم عظيم . أوه
أوديسيوس ! لا جرم أنك قد شهدت ألف معركة ومعركة جندلت
فيها أبطالاً وراء أبطال ، بيد أنها جميعاً لم تك شيئاً في ذلك الحدث
الرهيب ! لقد هويينا فنخبط في دمائنا التي ضرجت الأرض ، تحت
أخاوين^(١) حافلة أطيب الآكال وأشهى الأشرات ... ثم . . . جابجت
في أذني الصرخة الرهيبه . صرخة ابنة بريام ، فكانت ما أروع
وما أهدح ! لقد انبطحتُ على الأرض إلى جانب كاستندرا . قتيلة بيد
روحتي كليتمنسرا ... ومع ذلك لم أفقد الأمل يا صديقي بل حاولت
أن أمشق جُرَازي ، لكن الخائنة انسحبت كالأفعى ، ولم تعبا بي ،
بل لم تشأ أن تُغمض عيني ، أو تسند ذقني ، في اللحظة التي أوشكت
أن أطرق فيها أبواب هيدز ؟ ! ويلاه ! وويلي على المرأة التي طاوعتها
يدها فأتت هذا المنكر . وارتكبت إثم قتل زوجها ورفيق صباها !
لقد حسبت حين عدت أدراجي أنني سأقابل بالأهل وبالسبل من
أبنائي وأهلي وحاشيتي ، ولكنها . . . الفاجرة الغادرة ، التي برّت
بفجورها كل صنوف الفجور ، قد سحبت على نفسها أذيال العار
والخزي ، بل هي قد سحبت أذيال الامار والخزي على كل أثني لم تر النور
بعد ، وعلى كل الصالحات الطيبات من بنات جنسها . .
وسكت أجاممنون ، فقلت بدوري : « يا سماء ! ما أقسى ما قضت
بدريوس على بيت أنريوس منذ البدء ! كله من الأثني دائماً ! لقد

(٢) أخاوين وخون وأخونة ، جمع خواو موائد الطعام

قتلنا في غير رحمة ولا رفق من أجل هيلين^(١) ، وتذكر لك كليتمنستر أن تلك الفعلة بينما أنت نازح بعيد عن ديارك ١١ ،

قال : « من أجل ذلك أوصيك ألا تلين عريكتك لامرأة قط ، وألا تجعلها موضع شرك ومحل ثقتك ، بل إن أسررت لها بشيء ، خفي عنها أشياء ، هذا وإن تسكن زوجك وفيه خالصة لك ، لا يخشى عليك منها رفق . ولا غدر كهذا الغدر ، لأنها ابنة إيكاريوس وحسب ذات الحصافة واللب ، لقد غادرناها ولما نزل عروسا يوم غادرناها إلى اليوم . وعلى صدرها الوفي ولدك الحبيب ، الذي ينتظرك لهفاناً ليضمك إلى صدره يوم تعود إلى إيثاكا ... وإليك إلى إيثاكا لعائد ، وبذا قضت الآلهة ... أما أنا فوا أسفأ على أورش ، ولدى المسكين ، الذي قتلتنى الغادرة قبل أن أتزود منه بنظرة ! اسمع يا أوديسيوس ، أصغ إلى ، إلى سافى عليك من كنوز خبرتي وتجاريي ، عليك بالسرف في أوبتك إلى وطنك . واستعن على رحلتك بالكتمان لأنه لا ثقة في امرأة بعد اليوم^(٢) ... ولكن اصدقني بربك ، أين يأوى ولدى الآن ؟ هل يقسم في بيلوس ؟ أم يشوى في أرخومينوس ؟ أم هو يستندري بذرى جده أمى الحبيبة ، في قصرها المنيف بأسبرطة ؟ إنه لا يزال حياً يرزق ، ولم يأو بعد إلى دار الظلال هيدز . واعتذر إليه أنى لا أعلم إذا كان حياً يرزق أو أنه غدا من أشباح هيدز ، وظلمنا نتحدث بشجون الحديث ، ونذرف الدموع على كل ذكرى حتى وافى شبح أخيل البطل ، ابن بيلوس

(١) التي فر بها باريس وكانت سببا في حروب طروادة (اقرأ قصة الإلياذة لنا)

(٢) وهكذا عاد فاستمسك برأيه في النساء حتى في بيلوب

العتيد ، وفي إثره شبح ترّبه بتروكوس العظيم وبمقرّبة منه طيف
 أنتيلوخوس يتدهدى مع طيف البطل المغرّار أجاكس الذى امتاز
 ببسطة الجسم وجبروت المظهر على الجميع ما عدا بيليدس وحده ...
 وعرفنى شبح العداء الكبير إياسيدس^(١) فقال بحاطبى فى خفة وظرف
 « أوديسيوس يا رجل الدهاء والخدع : أى تدبير ليست فيه تدابيرك
 الماضية وحيلك السوالف شيئاً ما ، أتى بك إلى هذه الدار ؟ أضيف
 أنت ؟ أم هو طيشك وقلة مبالاةك جعلاك تضرب فى دياجير هيدز ؟
 هيدز الرهيبة بيت الأرواح والظلال والأشباح ؟ ، فقلت : « أحيل !
 يا ابن بليوس العظيم ، يا أشجع أبناء أخايا قاطبة ، لقد سعت إلى
 شطمان إيثاكا الصخرية ، لأنى عييت بالزوابع والعواصف فى عرض
 اليم ، فما استطعت أن أصل إلى أخايا أو أن أرسو فى بلادى ... إني
 أغبطك يا أخيل من أعماقى ! فلقد عشت فى هناء وعز ، وبجلك
 الناس كأحد آلهتهم ، وها أنت ذا تحكم هنا وتنبى وتأمر على جميع هؤلاء
 الموتى ، فما أجدرك ألا تأسى لأنك مت هذه الموتة فى الدار الأولى ،
 وأجانبى على الفور ؛ : « أوديسيوس ذا الذكر ، لا تخالن عزاء بخفف
 من وطأة الموت ! لقد كنت أوتر أن أعيش فى الدنيا كأحقر الأجراء
 الأذلاء ، وأتبلغ بلقمت قليلات لا تقيم أود الشيخ الفانى ، على أن أقيم
 هنا ممسكاً فى جميع هذه الأشباح والتهاول !! ولكن تعال ؛ هلم
 فحدثنى عن ولدى الحبيب ، هل وصل ما انقطع من حياتى الحرية ،

(١) قد يكون هذا من أسماء أخيل

أم هجر السيف وطلق المعمة ؟ وحدثني عن أبي بليوس الكريم ،
 ألا يزال يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم وحب الميرميدون^(١) وفدائهم ،
 أم تجرد من الآبهة ونزل على حكم المشيب والكبر ، والآيام التي
 أوهنت عظامه ؟ أو اه يا أبتاه ! ليس لك اليوم أخيل كان ينشر الرعب
 في جنبات طروادة ؛ أو اه لو وسعني أن أعود إليك لحظة ، إذن لقسرت
 الناس على الخضوع لك ، ولأرغمت كل جبار عصى على تمليقك وبذل
 العبودية لك ، بدل الثورة بك ، وقلة الاحتفال بشيخوختك ! . وقلت
 أجيبه : « أنا لا أعلم لي بما كان من أمر بليوس أبيك ، ولست أذكر
 لك ما ترامى إلى من أخبار ولدك نيوبتيلوس^(٢) لاني حملته على
 سفاتي من سكيروس إلى الجيوش الحاشدة من أخايا ؛ ولقد كنا نجتمع
 للشورى^(٣) تحت أسوار إليوم فما كان يتكلم إلا لماماً ، وما كان ينطق
 عن الهوى إذا فعل ، وإذا استثنينا نسطور ... و ... وأنا ... فما كان
 أحد ينهض إلى مقامه ، أو يقارن به من جميع الأبطال الإغريق ...
 وكنا نكر حول طروادة ونفر ، فما أعرف أن أحداً كان أجراً منه
 كراً ولا أحقق فرأ ... ولقد جنّدت من أبناء طروادة الصناديد
 أقراناً وفرساناً حتى ما أستطيع سرد أسمائهم جميعاً ، بيد أنني أذكر
 فيمن أذكر منهم نيوبتيلوس بن تليفوس البطل الذي أغرى (پريام)
النساء بالرشى ليقتلنه بخوض غمار الحرب إلى جانب الطرواديين ،
General

(١) أخيل (أخيلس) أخيل (أخيلس) أخيل (أخيلس)

(٢) أخيل (أخيلس) أخيل (أخيلس) أخيل (أخيلس)

(٣) أخيل (أخيلس) أخيل (أخيلس) أخيل (أخيلس)

(٤) أخيل (أخيلس) أخيل (أخيلس) أخيل (أخيلس)

فما زلن به حتى خاضها هو وجنوده السيتيون لله ما كان أجمل
وما كان أروع !! أبدا ما رأيت زعيما ولا سيد قوم ، باستثناء ممنون ،
أبهى منه ولا أصنى جمالا ! وما أنس لا أنس يوم حصان لميرس
الخشبي ، يوم قتت أتخير الصناديد المذاويد من أبناء هيلاس ليكونوا
معى داخله . وكنت على أن أظل عند بابة السرى لأرى فى فتحه
أو إغلاقه ما أرى لا أنس ما كان من هلع أبطالنا وذعرهم
وذهاب نفوسهم وتحذر دموعهم من هذه المهمة رعبا وفراغا ؛ أما بذلك ،
فيما كان أشجع ، وبما كان أربط جأشا !! إن عبرة واحدة لم تنسرق
من عينيه ، بل إنه كان يحثنى ويحرص جد الحرص على أن أختاره .
حتى إذا فعلت تقدم متبخترأ يحجر ربحه الظمى ، ويغلى صدره بنار
الانتقام يود لو يصبها على طروادة وأبنائها جميعا !! وما إن فُتحت
علينا ، وأبنا منها بالعنائم والأسلاب والسبي حتى نظرت إليه قبل أن
يبحر فها وجدته يشكو رمية ، ولا يئن من جرح . ولا أثر فى جسمه
لخدش مما تصنع الحرب ، وما تسجل فعال مارس ، .

وزهى أحيل من كثرة ما أثبتت على ولده فراخ يتخايل ويدل
وسط شجر السبرواق^(١) وكانت جموع من أشباح الموتى تملأ
الرحب ، وقد جلس كلُّ أو هام على وجهه يبكى ويشكو بته لغير سميع .
وقد رأيت بينهم شبح صديق التيلامونى - أجاكس - وكان يحادثنى
فى الفينة بعد الفينة ، ولكنه لم يشأ أن يكلمنى !! آه إنه لا يزال ينقم
على ما شجر بدى وبيته من نزاع على عُدّة أخيل (بعد مقتله) ،

(١) شجر كان يزرعه اليونانيون على قبور موتاهم وقد ذكره الفيروز ابادى .

وما كان من طلب ذيتيس^(١) ألا يلبس دروع ولدها سواى ، ثم ما كان من تأييد مينرفا للأم الرؤوم فيما طلبت . لقد كان انتصاراً الى . كم كنت أؤثر ألا يكون ، لأنه كان فيما يبدو سبب مقتل أجاكس المغوار الذى لم يكن فينا من هو أشجع منه إلا أخيل نفسه ... ولقد وجهت اليه ألين الخطاب لَأَفْلَ من سورة غضبه . فقلت له : « أيها العزيز أجاكس . يا ابن تيلامون المجيد ، أما تستطيع أن تغضى وأنت فى الدار الآخرة عما شجر بيننا بسبب هذه العدة المشؤمة ؟ لعنتها الآلهة من عدة كُتبت فوقها صحيفة موتك ، فخرنا فيك أشجع فرساننا وأعظم مقاتلينا ! إنا ما نفتأ نبكيك ونشكو رُزْ أنا فيك ، ونعد فقدمك كفققدنا أخيل نفسه ! ولكن لا تثير على أحد قط ، فخوف كبير الآلهة الذى ما ينفك يصب لعنته على جيوش آخايا ، هو الذى قضى عليك بالموت . أيها البطل هلم نحوى كيما تسمع إلى الكلم الطيب الذى أجد أن أترضاك به ؛ لتخدم جذوة الغضب على فى نفسك ، ولتجسم ما بيننا من خصام ! » بيد أنه ما حرك شفتيه . بل لوى عنانه وانحطط فى جماهير الأشباح الهائمة ، وترك الرغبة الملحة المشتعلة فى صدرى شوقاً إلى تكليمه تنطفيء رويداً ... فقلبت نظرى فى الأرواح القرية عسى أن أعرف منها أحداً فأحدث إليه ، فلمحت يدها مينوس سليل جوف الأكبر ، وكان يجلس على عرش مرمرد للقضاء بين الموتي ، وفى يمينه صولجانه الذهبى الثمين ، ومن حوله زرفت جموع سكان هيدز ، فمنهم الواقف ومنهم الجالس ، ومنهم المنتصب يشرح للقاضى شكواه ،

(١) أم أخيل وهى إحدى عرائس الماء .

ويثبه بلواه ، بينما قد أهطعت الرؤوس وانحبست النفوس . وتكأ كأت
الموتى عند البوابات الكبيرة الهائلة تنتظر دورها ... ثم راعنى أن أرى
بين تلك الجموع أوريون الجبار يسوق قطعانه التى ذبحها بيديه فى الدار
الأولى ، وهو يرهاها على أوراق البرواق ... ورأيت فيمن رأيت
تيتوس الجبار ، سليل هذه الغبراء ، وقد كان منبطحاً على الأرض
بحيث يشغل فضاء تسعة أفدنة ، وعلى كل من جنبه أفعوان هائل أرقم
يتغذى بمضغ من كبده الكبير الدامى ، وينغب من أحشائه الغملاظ ،
جزاءً بما حاول أن يستذل لاتونا للعب الطروب ، عشيقه جوف
سيد أولمب ، التى فرت من وجهه فى بطائح بيتو إلى فراديس بانويوس .
ثم رأيت تانتالوس فى ضعف من العذاب رأيتته يتخبط فى عين
حمئة من حميم ، وقد غاص فيها إلى ذقنه ، والموج يضرب وجهه ويسفغه ،
وهو مع ذاك يلهث من الظمأ ، لا يجد ما يبل به غلته ، أو يطفىء
جسوده^(١) وصداه ! فهو إن حى رأسه غمرته الحسم ، وإذا رفع
جسمه كزّت الأرض على قدميه بأمر ربها فهو فى عذاب مقيم ...
ولله أشجار الفاكمة دانية قطوفها فوق رأسه ، من رمان حلو وتفاح
عطرى ، وتين معسول وزيتون ، كلما اشتهى أن يقطف ثمرة وكاد ،
هبت الرياح عاتية فذهبت الغصون عالية فى السحاب !! ثم رأيت
سيسفوس ذا الأنياب يضنى ويشقى ويتعذب ؛ يدفع أمامه حجراً
جلوداً عظيماً يجعله فى رأس جبل ، حتى إذا انتهى إليه غاصت الأرض
من تحته بقوة خفية فكانت بئراً عميقة ، فيهوى الحجر من عل .

(١) الجواد والصدى والظمأ

فيعود المسكين إلى نصيبه عوداً . . . على بدء ، ويتحدر عرقه على
 جسمه العظيم ، ويتبخر من رأسه كأنما ينقذ من بركان . . . ثم شهدت
 هرقل الحدبدى القوى الجبار . . . شجحه فقط ، لأنه هو قد منح بركة
 الآلهة وخلودها ، وهو أبداً يحضر ولائها في شعاف الأولب . . .
 شهدته يحتضن ابنة جوف الجميلة المفتان . هيب . ذات القدمين الناصعتين
 والنعلين الذهبتين : رأيت وأشباه الموتى ترف من حوله صافات
 كالطير ، ثم يقبضن . . . وراعى أن أراه عابساً كالحأ كسقطعة من
 الظلام . وقد خلق بعينه في الأرض وفي يديه قوسه وسهامه يوشك
 أن يرميها ، وعي وسطه حزامه الرائع المموه بالذهب ، وقد نقش
 عليه صور مئات من الدبة والدواب والسباع ، ينقذ الشر من
 غيرها . دائنة في عواء زئير وتقاتل ونهش ، صنعة معجزة لم يقدر
 على مثلها أحد من قبل ولا من بعد . . . وما كاد يتبيننى حتى عرفنى ،
 وظل يقلب في عينيه السادرتين . ثم قال لى : « آه يا ابن لير تيس النيل
 ذا المجد ما أتعتك ! ! ما أظنك إلا معنياً ببعض المجازفات التى كنت
 أشغف بها فى حياتكم الدنيا . . . ها أنت ذا ترائى هنا ، فى ظلمات
 هيدز . عبداً رقيقاً لإله أحقر منى شأنأ وأقل قدراً ، لأننى وأنا ابن
 جوف الأعظم ، قد كتب على أن أشقى هنا لأصل آلام الحياة
 ولأواءها . . . أتصدق أنه يأمرنى أحياناً أن أسوق كلبه ، مع ما فى
 هذا الأمر من سخرية وتحقير ؟ ولكنى لن أنسى أنى جذبته من
 ملكته هيدز إلى نور الحياة الدنيا بمساعدة أخى هرمز ، وبمعو
 مبرقا ذات العينين الزبرجديتين ، ثم هام على وجهه فى ظلمات مملكة

بلوتو . . . ثم تلبثت أنا مكاناً راجياً أن ألقى غير من لقيت من أرواح
الأبطال الذين عرفتهم في الدار الأولى ، أولئك العظماء ذوى العزة
والمجد . . . وكم وددت أن أرى بيريشوس وثيذبوس سليلي الآلهة . . .
يبد أن جموع الموتى الحاشدة التي أقبلت تصرخ قذفت الرعب في قلبي .
وخفت أكثر أن ترسل برسفونيته ملكة هيدنز فتفعل بي الأفاعيل . . .
فأثرت أن أسرع إلى مركبي ، وأمرت الملاحين فأقلعوا ، وجلسوا
على الظهر ، وحملنا تيار سريع عبر البحر المحيط بعد أن أعملنا المجاذيف
وقتاً غير طويل .



تمام قصۃ اورپیوس

۱۔ السیرینات المغنیات

۲۔ سکیلا الهولة

والآن ، وقد احتسملنا العباب ذو الردب ، وذرعنا الیم المترامی ،
وعتمنا نضرب فی موج كالجمال ، فقد وصلنا بعدلای إلى جزيرة إیایا
المرجانية حیث ترتع أورورا ابنة الفجر الوردية وتلعب ، و حیث مطلع
الشمس وراء البحر المضطرب . . . وألقینا مراسینا ، وتلبثنا فوق رمال
الشاطيء نرقب انبلاج الفجر ، حتی إذا لاحت تباشیرہ أرسلت طائفة
من رجالی إلى قصر سیرس فأحضروا جثمان الینور (الذی خر من السطح
فدبق عنقه) ثم إننا بکیناه أحر البكاء . وجمعنا له من الحطب
والخشب ما وسعنا ، وطرحناه وسط الکومة التي صنعناها من هذا
الوقود ، وطرحناه معه سلاحه ، وأقننا إلى جانبه مجدافه العظیم ؛ ثم أدنینا
له الشعائر الجنائزية التي أرویناها بأذکی دمرعنا ، وأشعلنا النيران بعد
إذ أقننا نصیباً جلیلاً ، تحية وذكری ولم تعلم بعودتنا سیرس^(۱) ، بید أنها
مع ذاك أقبلت فی ربرب من وصیقاتها الحسان الاثراب یتهادین نحونا ،
حاملات دنانا من أكرم الخمر . . . ووقوفت بیننا العروس الهیفاء ثم قالت :
« ویحکم آیها الأشقیاء کیف تحلا لکم أن تموتوا مرتین بینما یموت

(۱) نطقها اليونانی سیرکه ونحن نفضل النطق الحديث دائماً

جميع الناس مرة واحدة؟ ولكن تعالوا هلموا إلى طعامكم، وتحسبوا من هذه الخمر لتقضوا يومكم فوق رمال الشاطئ. في شراب وآكل، فإنكم ضاربون في ظلمات ذاك البحر بغير غد. وإني منبئكم عما يروعه في طريقكم عسى ألا تضل بهم. ويأما أكثر ما تتجشمون من أهوال في البر والبحر، ولبينا دعوة الربة المضيايف، فأقبلنا على طعام شهى وشراب رفوى طيلة يومنا، حتى إذا توارت ذكاء بالحجاب، وشمنا ظلام الليل، تطرح رجالى فوق الرمال النسائمة، ثم انتحيت أنا وسيرس ناحية، وجلست قبالتها، وراحت هى تحدثنى وتقول: «أما وقد أوشكت متاعبك أن تنتهى، فأصغ إلى، إفقه ما أقوله لك وتدبره، فهو وحى يوحى إليك من السماء ينفعلك إذا جددك الجد، وأزفت حولك الآزفة.. سنصل أول ما تصل في رحلتك عبر هذا البحر إلى جزيرة السيرينات الشاديات اللأى يسحرن بغنائهن القلوب، ويحلبن بحر سمن الألباب، ويطيبين^(١) كل من أوصله سوء حظه إلى جزيرتهن بحلو تطريهن وجميل شدوهن حتى ليلصق بأرضهن وينسى آله وأوطانه، ولا يخطر فى باله أن يعود إلى بلاده ليهنأ ببقاء زوجه الحبيبة وأولاده الأعزاء، بل يحمد مكانه من الشاطئ حيث يكون بمسمع من السيرينات وتكون عن يمينه وعن شماله رفات الضحايا الكثرين الذين عرجوا من قبل ليشنفوا أذانهم بغناء أولئك العذارى فحمدوا مثله، وذهلوا عن أنفسهم حتى ذووا، وذهلوا وضووا، وحق بهم الفناء بينا يخطر السيرينات بين شجر

(١) أطى القوم فلاناً خانوه وتلووه .

الروافق من هدايات فوق السندس الحلو الجميل . . . فأوصيك أن تفرغ
 في آذان رجالك من سائل الشمع قبيل أن تبلغ أرضهن ، فإنهم بذلك
 لا يسمعون شдохن ولا يسحرون بغنائهن . أما أنت ، فلك أن تنصت
 إلى ذاك الغناء إن شئت ؛ بيد أنه ينبغي أن يشد رجالك وثاقلك في قلع
 سفينتك شداً قوياً محكماً ، فيربطوا ذراعيك وسافيك بأمراس وأحبال ،
 حتى لا يسبيك ما يُشَنَف أدنمك من غناء وشдох فلا ترضى إلا أن تتوى
 بأرض السيرينات ؛ فإذا اشتد بك الوجد من سحر ما تسمع وطلبت إلى
 رجالك أن يخلوا عنك لزم أن يزدوا في رباطك ويحكوا وثاقلك أضعاف
 ما فعلوا بك من قبل . . . فإذا مجزتم تلك الجزيرة وغابت مناظرها عن
 أبصاركم . فلرجالك أن يطلقوا سراحك . . . على أنني لا أدرى أى السبل
 ينبغي أن تسلكها بعد هذا ، فهناك طريقان أحلاهما مر ، وأيسرهما
 عناء وضر ، وإني وأصف لك كليهما وأدع لك كائنك أن يختار لك . . .
 إنكم بالغون في سبيلكم إلى صخور هائلة ناتئة في البحر ، تتكسر فوقها
 أواذيه ، وترطم بجلاميدها أمواجه ، وتدافع على أحيادها أمفترت
 (زوحة نيتون) الجبار . وقد أطلق الآلهة على هذه الصخور اسم
 (إيراتيك) وهي قلال موحشة لا يستطيع مخلوق أن يقترب منها ، ولا
 يجسر الطير أن يهبط فيها ، بل طير أبينا جوف نفسه الذي يحمل إليه
 غذاءه الإلهي المقدس لم يجازف مرة فخط فيها يستعجم من سفر ، ولما
 يعلم من أنها مهلكة زلقة . ولم ترس عندها سفينه قط إلا ارتطمت فوق
 توتها وهوت إلى القاع بما حملت ، أو ابتلعها العواصف اظلوج فغابت

حيث لا يدري أحد. ولا يعرف أحد سفينة جازت مهالك هذه الصخور
إلا السفينة (آرجو) التي حاطتها جونو^(١) برعايتها رحمة بجاسون وحناناً
من لدن سيدة الأولمب ، حين أقلعت من جزيرة إيايا ، وقوام تلك
الصخور هضبتان شاحقتان شاهقتان ، تمثل إحداها صنماً هولةً ضخماً
يضرب في السماء برؤوفيه وتتراكم فوقه منذ الأزل ثقال السحاب التي
لا يذيتها خريف ولا صيف ، لأن الشمس لم تنشر عليها أشعتها قط ...
ولو أن أحداً من العالمين له عشرون يداً وعشرون رجلاً ما استطاع أن
يرقى عليها أبداً ، لأنها ملساء ناعمة كأنما صقلتها يداً ثقال صنّاع .. وإن
في سنده^(٢) الغربي لكهفاً سحيقاً نقر ثمة باسم إربوس^(٣) ، وإنّي لأحذرك
أن تقترب منه حين تجوز به يا أوديسيوس ، بل كن بنجوة منه ، بعيداً
بقدر ما تستطيع ، أو على الأقل على مرمى سهم مرّاش من سفينةك إلى
وصيده ، ذلك لأنه مأوى سكيللا^(٤) الخيفة التي تدوّى بصوتها وعواثها ،
ويُفرق الناس والآلهة من وجهها المسكّن القبيح ، وحسبك أن تعلم أن
لها اثنتي عشرة قدما كلها أمامية ، وأن لها ستة أعناق طوال ينتهي كل
منها برأس كبير فظيع ، سلاح بثلاثة صفوف من أنياب حداد أصلها ثابت
وحشوها سم زعاف ، وهي تربض في غور كهفها السحيق ، بينما أروّسها
بارزة من فوهة الكهف تبحث في الماء عن الدلافن وكلاب البحر
ودواب الماء وجميع حيوان مملكة أمفريت وليس بحسب بحار أن يفخر بأبه
نحما مرة من شرها فهي تنقض كالصاعقة على السفينة العابرة ، وتلتقم

(١) هي حيرا زوج زيوس كبير الآلهة .
(٢) سنده جابه .
(٣) إله الظلمات الذي تزوج من أمه (ليلة)
(٤) ونطقها الأصلي سكولدا

بأفواها الستة الجائعة ستة من بحارتها مرة واحدة تقضمهم قضا.. وتلقه
هذه الهضبة، هضبة أخرى على مرمى سهم يا أوديسيوس وقد تمت فرقها
تينة برية كبيرة ذات أفنان وعسا ليج حائيات فوق الماء، وتحتها عين
خارٍ بديس الحمئة التي يغيبض فيها ماء البحر كله ثم تعود فتسمجة ثلاث
مرات في اليوم. ويك أوديسيوس اخذوا حذركم ا فوالله إنكم إن
دنوتم منها فإنها تبتلعكم، ولا يستطيع نبتيون نفسه بعد ذلك أن ينهجمكم
وإني أرى أن تدنوا من الصخرة الأولى فتلتقم سكيللا ستة منكم، فهو
حير لكم من أن تغرقوا جميعاً» وسكتت سيرس، وقالت أسائنها:
«بحق الآلهة عليك يا ربة أن تخبري: أما أستطيع أن أنقذ رجالى
المساكين من سكيللا إذ نجونا من خارٍ بديس؟» فقالت تحيبنى: «أياها
النعس، أما تقفأ نحن إلى مجازفات الحرب وخوض غمار الوغى؟ إنه
لا سلطان للآلهة نفسها على سكيللا، وهى ليست مخلوقاً مما يحوز عليه
الفناء، بل هى غول سرمدى شديد المراس، شكس شديد الشراسة.
لا يغالب أحداً إلا غلبه، فأطلق سفينتك للريح، ولد منها بالفرار.
ولياك أن تفكر فى التسليح لها، فهى لا بد ملتقمة ستة من رجالكم، وإذا
حاولت مدافعتها فإنك منهم ١١ فإذا بعدت فاضرع إلى كرافيس، أم
هذه الهولة التى هى إلى الأبد طاعون للبشر. أن ترد كيد ابنتها عنكم فلا
تبعكم فى سبيلكم ولا تلتقم منكم أكثر مما فعلت... وإنكم بالغون
(ثريناشيا) بعد هذا حيث ترعى الربتان الحسناتوان: لمتبا وفيتوزا
ابنتا هيريون من عروس الماء فيرا، قطاعان أبيهما السبعة التى يشمل كل

منها خمسين شاة ذوات صوف ناعم كالنلج .. وكل هذه الشاة يرعى
ثمة باسم رب الشمس العظيم . فإذا كنتم حقاً تشرفون لبلادكم ،
وتتجرقون شوقاً إليهما ، فاحذروا أن تصيبوا تلك القطعان بسوء . فإنكم
إن فعلتم غرقت بكم سفينةكم وذهب رجالك أباديد أما أنت ، فتنجو
بعد لأي وبعد نضال وأهوال ، فتصل إلى بلادك ملوماً محسوراً ،

وتنفس الصبح الندى الرحي فذهبت تبختر وتجور أذيالها إلى
قصرها المنيّف ، وذهبت أنا إلى الشاطئ فأيقظت رجالى وأمرتهم فجروا
السفينة حتى استوت في الماء ، ورفعت مراسيها . ثم جلس كل إلى مقعده
وأعدوا أيديهم في مجاذيفهم فتدافعت الفلك في البحر . وما هي إلا لحظة
حتى أرسلت سيرس ، الربة المقدسة ، نسيماً رخاءً كان خير رفيق لنا ،
إذ كفنا عناء التجديف ، فتطرحنا في المركب ، واشتدت الريح في غير
عصف فأسرعت بنا ديراً . ثم كلمت رجالى وفي قلبى وجيب فقلت .
أيها الأصدقاء تعالوا أحدثكم عما تلبأت به سيرس لنا في رحلتنا هذه .
فإنه سيان إن أفلتنا من العذاب أو تردينا فيه ؛ بل أردت أن أطلعكم
على ما خبأته المقادير لنا لتأخذوا حذركم ، وتبرموا أمركم . ويكون كل
على نفسه وكيلا . لقد حذرتى أن يستمع أحدكم إلى غناء السيرينات
الشاديات وحلو تطريهين ، وأجازت لى وحدى أن أصغى إليهن . بيد أنها
أوصتنى أن أخبركم أن تشدوا وثاقى بأمن الأمراس في سارية السفينة
فلا تطلقوا سراحي حتى نبعد عن جزيرتهن . وكلما رجوتكم أن تحلوا عني
شددتم وثاقى أكثر فأكثر (هذا إن أردتم أن نكون بنجوة من الهلك

فى تلك الأرض الملعونة) . وهكذا نهبت غافلهم بتحذيرى . ثم إننا انطلقنا فى اليم ، وأخذنا نقرب من جزيرة السيرينات ، وعرفت ذلك لما هدأت الريح فجأة ، ونام الموج ، وخفت أنفاس الطبيعة . وشمل الركود كل شىء حولنا ، كأنما مسحت يد مقدسة علوية كل هذا الوجود الرحب . ونشط الملاحون إلى مجاذيفهم فالتع تحتها بساط الماء ، ثم نشطت أنا إلى قدير من الشمع فعالجته بسكين ، ثم قوّمته براحتى وتركته كي يلين قليلا فى أشعة الشمس ، ثم جعلت منه فى آذان رجالى واحداً فواحداً ... واستسلمت لهم بعد هذا فشدوا وثاقى فى شراع السفينة شداً محكما ، وجلس كل إلى مجدافه ، وانسربت الفلك فى الماء تشقه وتجر جر فيه ... وصرنا على مدى ما يبلغ الصوت من الجزيرة إلى آذاننا فأصغيت وأصغيت ، وإذا السيرينات الشاديات يتعنين هكذا :

« أودسيوس أيها الزعيم يا من لهج بذكره كل لسان »
 « ألق فى جزيرةنا مراسيك يا نثر اليونان ،
 « تلبست عندنا أيها العزيز وشنف أذنيك بأغانينا »
 « فما من أحد جاز بجزيرتنا حتى عرج يتزود من هذا الغناء »
 « ثم يقلع أسعد ما يكون ، وأفطن ما يكون »
 « ذلك ونحن نعلم من أنباء ما أصابك كل شىء »
 « ما خضت من معمعان طروادة ، وما أصابتك الآلهة من مصيبة ،
 وما لقي قومك فى كل مكان »

« تعال تعال . . . هلم نحدثك فعندنا علم كل شىء »

وهكذا شرع العذارى يسكنن إرناهن الجميل في قلبي ، وكأننا كن
ينفثن فيه السحر فيصغى ويصغى وتلح عليه الرغبة في الإصغاء ، ورحلت
أنا أضرع إلى قومي أن يفكوا قيودي ويطلقوا سراحي ويخلوا بيني وبين
السيرينات المطربات ، فلم يسمعوا لإشاراتي ولم يستجيبوا لتوسلاتي ،
بل هبَّ يوريلوخوس وپرميديس فضاغفوا أغلالاً وشدوا على حبالى ...
ثم بعدنا . وظللنا نبعد ونبعد ، حتى إذا كنا حيث لا يصل إلينا من
شدو السيرينات شيء ، نهض رجالي فأزالوا ما كنت قد جعلته في آذانهم
من الشمع ، ثم عمدوا إلى فأطلقوا سراحي ... وما كادوا يفعلون حتى
أبصرت في ظلام البعد موجاً كالجبال كأنه ظلمات بعضها فوق بعض ،
ورأيت دخاناً كثيفاً يتعقد في الجو . ثم إذا بي أسمع رعداً قاصفاً يصم
الآذان ! وقد ذهل رجالي عن أنفسهم ، وطارت المجاديف من أيديهم
فلم تعد تجددهم نفعاً ، ووقفت السفينة كأنها الأرجوحة على رأس الموج ؛
فذهبت أنا أشجعهم رجلاً فرجلاً : « أيها الرفاق ! ها نحن نلقى أولى
عقباتنا . وهى ليست على كل حال أشد هولاً من مصيبتنا يوم حبسنا
السكراب في كهفه السحيق ، وكيف احتلت لفرارنا من وجهه ؛ وسيأتى
يوم نذكر تلك الشدة المفاجئة بمثل الغبطة التى نذكر بها الشدائد
السواف ... هلموا إذن فاثبتوا في أماكنكم ، واصمدوا لهذا اللج
المضطرب ، واضربوا فيه في جلد وصبر ، عسى أن يسكلاًكم جوف ربكم
فينجيكم منه . وأنت أيها الربان أصغ إلى ، إنك تقبض على ناصية الحال
فتحاش أن تقترب من هذا الدخان وتلك الأمواج الشائرة ؛ إبتعد
ما استطعت عنها ، وخذ سبيل هذه الصخرة ، ذلك أدنى ألا تقذف بنا

في جمأة الخطر ... ، وظللت أنفخ فيهم روح الصبر حتى فاءوا إلى أمرهم فاستقتلوا في مجاهدة الأمواج استتقتالا ... وتسلمت أنا بكل ما استطعت من عدة . وجعلت في يدي ربحين طويلين ، ووقفت أرقب سكيللا الهولة من بعد ، ولم أجسر أن أذكر كلمة عنها الرفاق حتى لانفرغ أفئدتهم فرقاً فيهربوا من عملهم ويكتظوا في بطن السفينة مخافة أن يمسهم مها أذى ... وشرعنا نعبث بالبوغاز ، .. ولشد ما أفرغني أن أرى سكيللا ترمقنا وتتلطمز ، وقد انتصبت كالموت على الشاطئ القريب ، ثم أرى في الوقت نفسه خار بديس على الشاطئ الآخر تحسرج في حلقها الرحب الفظيخ عباب الماء ثم تمجه ، فكأنما تقذف من جوفها ماء فائراً يعلو في الجو كالخيم ، ثم يهمر وبله في كل فج ، وتعود فيفيض في البحر من بلعومها ، ثم تقذفه ، وهكذا دواليك ... ياللروع ، وياللفزع الأكبر ! تالله لقد كننا ننظر ما تبدي خار بديس وما تعيد في جزع وفي هلع ، بينما كانت سكيللا تتوثب وتتوثب ثم ترسل رؤوسها الستة فتلتقم ستة من رجالنا كانوا وأأسفاه أشجعهم جميعاً ، وكان قلبي يتمزق حين راحوا يهتفون بي وينادوني باسمي وأنا كالذي أسقط في يديه ، ما أستطيع شيئاً فأصنعه ، بل أنظر إلى أذرعهم وأرجلهم تتقلب في الهواء وهم يصيحون ويغوثولون ، وأنا ساكن ذاهل أقلب كفي ولا أفعل شيئاً آخر ! واحزنناه ! ما كان أشبه سكيللا المتوحشة بصائد السمك الذي أطعم سناره وأرسلها من فوق صخرة تداعب السمكة المسكينة . حتى إذا حان الحين جذبها إلى أعلى تترنح هنا وهناك . هكذا كانت هذه اللعينة التي جذبت إلى كهفها أشجع رجالنا وراحت تقفقات بهم بين الصراخ والبكاء ، وبين التوجع والأنين ، وكلهم يمد إلى ذراعيه مستنجداً

مستغيثاً في قنوط ويأس !! أبداً ما وقعت عيناى في جميع مخاطر اى ،
على منظر أبعث للأسى ، وأعرض للنفس ، وأجرح للفؤاد ، من ذلك
المنظر الرهيب !

وما كدنا نفلت من سكيلا وخاربديس بعد تلك الفاجعة حتى
اقتربنا من أرض الشمس ، حيث ترعى قطعان هيريون^(١) الجميلة
الكثيرة ذات الفراء الناصعة ... ولقد كنت أسمع ثغائها ورغائها
إذ أنا على ظهر سفينتى في عرض البحر . وسرعان ما ذكرت ما قاله لى
السكان الطيبى الأعشى ، تيرزياس فى هيدز ، عن هذه القطعان ، ثم
ما أنذرتى به سيرس سيدة إيايا من وحوب الابتعاد عن هذه الجزيرة
التي كانت منذ الأبد غواية الدشر ، حتى قتت فى رجالى فجعلت أحذرهم
وأقول : أيها الرفاق اسمعوا : هذه هى جزيرة الشمس الهائلة التي حذرنا
تيرزياس السكان الطيبى من الرسو بها أو الاقتراب منها . وكذلك
حذرتى منها سيرس ربة إيايا . فإن كل ما لقينا من أهوال ليس شيئاً
إلى الهول الذى يحيق بنا إذا حملنا بها . فاسمعوا نصيحى وسيروا بنا نذرع
هذا البحر نسلم من شر مستطير ، وبلاء لا يجيرنا منه مجير ، وكانوا
يصغون إلى فى حيرة وذ هول . وما كنت أفرغ حتى انتصب يوريلوخوس
يرد على شى جفوة وضيق : « أوديسيوس ، أيها القاسى الطاغية ،
أما أو هنت كل تلك الشدائد جلدك ؟ مخلوق أنت من حديد فـ
ترق وما تلين ؟ أتأبى على رجالك الموهوبين المسكودين أن يرسو أبهذه

(١) فى بعض المصادر أن الشمس غير هيريون ، وفى بعضها أنها هو ، وفى بعضها أنه
أحد سواس عربتها .

الجزيرة الفيحاء المعشبة ليريفوا مما بها من آلاء ، وليلطموا من خيرها الكثير ؟ أتصرفنا عنها بنزقك وقلة بصرك لنخبط طول الليل في هذا البحر الأجاج خبط عشواء مع ما تكون الريح عليه حينئذ من شدة وعنف ؟ خبرنا أيها الأحق ماذا نصنع إذا عصفت بنا نكباء من الجنوب تحطم فلبكننا ولا ينجينا من بطشها أحد حتى الآلهة ؟ أليس الأفضل لنا أن نرسو في هذه الجزيرة فنقضى بها ليلتنا ، حتى إذا انفلق الإصباح أقلعنا منها على هدى ؟ ١٩ .

وحبذا الملاحون ما قال ، فدار في خلدي أن لا بد مما ليس منه بد ، وأن لا بد من وقوع القارعة الكبرى بنا ، فقلت في كلمات يائسات : « لاضير يا يوريلوخوس ! وليس بي من بأس أن أخضع لما ترى الجماعة ؛ ولكن تعالوا جميعاً فأعطوني موثقتكم ألا تدبحوا شاة ولا تجزروا نعمة مما هنا من هذه القطعان ، مهما ألح عليكم السَّغَبُ ، وأضواكم الجوع ... بل يكون حسبكم ما حملتم من آكال من عند سيرس » .

وأقسموا أغلظ الأقسام أن يفعلوا ، ثم يعموا بالفلك في جون هادي فوق الشاطئ . ترتفع في وسطه نافورة رائعة ؛ فأرسوا ثم وتدفقوا وراحوا يعدون وجبة المساء ، بيد أنهم سرعان ما نسوا مسغبتهم حين تذكروا إخوانهم الذين غالتهم سكيللا ، وراحت تتغذى بهم أمام كهفها السحيق فأخذوا يبيكونهم ويذرفون عليهم دموعهم حتى غلبهم النعاس ، فناموا ... وفي الهزيع الثالث من الليل ، حين عبرت النجوم فكانت في كبد السماء ، ساق جوف رب السحاب الثقيل ريحاً جابت البر والبحر ، وغمرت بها بماء منهمر ، ثم عقد في الكون ظلمات فوق ظلمات يتدجى

بعضها في بعض ... ثم أشرقت أورورا الوردية ، فنهضنا من مراقبنا ،
وسحبنا الفلك إلى غار كان لبعض عرائس البحر يقصن به أو يستروح
فيه . وما كاد شملنا يجتمع ثمة حتى نهضت في رجالي أقول : « أيها الرفاق
إننا ما ينقصنا غداء ، وما بنا من حاجة إلى أكل . فنعنا من ذلك الشيء
الكثير ، فإياكم أن تمسوا هذه القطعان بأذى ، وحسبكم أن تعلوا أنها
ملك خالص لربة الشمس التي تراكم أيها كستم ، وهكذا أيقظت في
نفوسهم النخوة . ثم إننا لبثنا في هذه الجزيرة شهراً ما نريه عنها وما كان
لنا إلى غيرها متحول ، ذلك لأن الدبور^(١) ظلت تهب من الجنوب
في صرامة وشدة ، فإذا هدأت ، لم تهدأ إلا لتهب ريح شرقية أشد منها
عنفاً . ولم يمض قطعان الجزيرة السائمة بأذى مادام لم ينفذ ما كان معهم
من طعام ، فلما تناقصت ميرتهم راحوا يتلمسون صيد البر والبحر ،
أما أنا فكنت أجوس حلال الجزيرة عسى أن ألقى إلهاً أضرع إليه
فيجعل لنا من أمرنا مخرجاً .. وبينما أنا أجوب الجزيرة إذاني أبعد
كثيراً عن رفاقي . وبدأ لي أن أسكن إلى من عطف دأى هادئ على سيف
البحر . فأغسل^(٢) يدي بما علق بهما من قدر ، ثم جلست أصلي للآلهة
وأدعو واحداً بعد واحد أن يهيئ لنا من شدتنا مرفقاً ، ولكنهم جميعاً
— واأسفاه — أصمت آذانها عن دعائي . ثم أرسلت علي طائفاً من
السكري ... فمعت نوماً عميقاً ... بينما كان يوريلوخوس التعس
يوسوس إلى رفاقه فيقول : « أيها الأخلاء ! أنا أخوكم في البلاء فاسمعوا

(١) ربح الجنوب ضد الصبا .

(٢) كان غسل اليدين كالوضوء عندنا شرطاً لا تصح الصلاة اليونانية بدونه .

وعوا . ليس أشنع من الموت إلى النفس ، ولكن الموت جوعاً هو أشنع ألوان المنايا التي يرتجف منها الإنسان ... هلموا ... لنذبح من هذا الشاء والنعم . ولنضح للآلهة بأضخم ثيران الشمس ، ولننذر أن نبني للرب المبارك هيريون هيكلاً عظيماً حالماً نصل سالمين إلى إيثاكا ، ولننذر أيضاً أن نجعل في الهيكل من الطُّرْف والتحف ما يرضى الإله ويكفر عن سيئاتنا . أما إذا آثر أن يغرق فليكننا وتضافرت معه جميع الآلهة على ذلك ، لأننا ألحقنا أذى بعدد من قطعائه ، فإني أول من يجاهر بقبول الموت مرة واحدة في أعماق هذا اليم ، على أن أموت هذا الموت البطيء جوعاً ، وزن لحم ماقال ، فاستاقوا أسمن ما في القطعان التي كانت ترعى العشرة بما منهم ، ثم أطعموها أنضبر أوراق الشجيرات الباسقة إذ فرغ كل مالدتهم من الشعير ، ثم صلوا للآلهة ، وجزروا الحيوانات البائسة ثم سلخوها ، وفصلوا الأنخاذ والشحم ، وقذفوا بها إلى النار تقدمه للآلهة وقربانا . ولم يكن معهم خمر ليمتوا بها الشعائر القدسية . فتمذفروا في النار بدلاً منها ماء قراحاً ... وجلسوا بعدهذا يعدون شواءهم من الحوايا^(١) والسكبد وما إلى ذلك بما في جوف الهيم ، حتى إذا طعموا ملء بطونهم انطرحوا في مرأقدهم بينما استيقظت فجأة من سباتي ونهضت لأنطلق في طريق صوبهم . وما كدت أشرف عليهم حتى ملأ خياشيمي قنار^(٢) ما فعلوا ، فرجمت وجوماً شديداً ، ثم أجهشت ، ثم استخرطت في بكاء طويل وضرعت إلى الآلهة وظلمت أقول ، أهكذا

(١) الأماء .

(٢) ريج الشواء .

يا أرباب السماء تلقون على ذلك الطائف من الكرى فيفعل أصحابي ما فعلوا إذ أنا غط في نوم عميق ؟ ... وطار لمبتيا بالخبر المشوم إلى إله الشمس فنار ثائرة وطفق يصخب ويهتف بالآلهة ويقول : « يا جوف العلي ، وأنت يا آلهة السموات المأثري لما فعل السفهاء من رجال أوديسيوس ! لقد اجتروا أو فجرروا من نعمي وشأني التي هي بهجتي وأنسي والتي أرمقها أبدأ من علياء السماء ، فإن لم تلتقمي لي فوعزتي لأهبطن بشمسي إلى هيدز فأنير آفاقها وأصنفي أضوائ على الأشباح ثمة ، وأدع هذا العالم المشرق الجميل يضرب في دياجير ما مثلها دياجير » . وأحابه رب السحاب الثقيل فقال : « يا إله الشمس على هيئتك ، بل ظل مشرقا على بني الموتى الدائمين في تلك الأرض ، وإلى مسخر صواعقي على سفيتهم في لمح البصر فتذهب بها وبهم أباديد » ... أما من أخبرني هذا فقد حدث به هرمر رسول الآلهة .. ثم وقفت فيهم أتهرهم وأنعي عليهم . ولكن .. وأسفاه أى انتهار وأى نعي وقد سبق السيف العدل ؟ ! ثم حدثت المعجزة ١١ وبدأت السماء تشهد آياتها فقد تحركت الجلود الملقاه على الأرض وزحفت نحونا ثم سمعنا مضغ اللحم الغريض سواء ما ظل منها دون أن يمس وما علق منها بالسفايد ، وقد أرسل ثغاء وخوار كأنها لا تزال على قيد الحياة . . . وهكذا ظل رفاقي يجزرون كل ثور حنيد من ماشية إله الشمس ويغندون بجواياها طوال ستة أيام ، حتى إذا كان السابع أمر جوف الغاصفة فهدأت ، والبحر فتطمأن ، فأهرعنا إلى الفلك فأنزلناها في اليم ، ونشرنا الشراع ، وأقلعنا حيث لاندري ماذا يراد بنا ١١ ثم غابت الأرض عن الأنظار ، ولم يكن إلا البحر من ورائنا

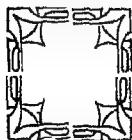
وأماننا وعن شمائلنا وأيماننا... ثم السماء من فوقنا... ثم شرع
 زفيروس^(١) يهب ويهب، ويقلب اللجج من حولنا، ثم اشتد واشتد
 وصار ريحا عاصفاً هوجاء، كسرت قلاعنا وحطمت سكاكنا، وذهبت
 بقلب الربان المسكين فلم يعد له صبر ولا جلد... ثم ساط علينا جوف
 صواعقه فقصمنا، وحطم سفينتنا وترنحت أول الأمر، ثم غاصت إلى
 الأعماق، وطفونا إلى سطح البحر الغاضب بلا أدنى أمل في أى شيء
 بله العودة إلى بلادنا... ولقد كنت أرقب حطام الفلك يطفو معنا
 ويعصر، حتى عنّ لي أن أعلق بخشبة قريية منى، فطويت عليها قطعة
 من الشراع المعزق وجعلتها لي ثماماً^(٢) لصقت به، بيدنا نامت الشمال لسوء
 حظي، وأخذت الجنوب تهب في عصفوان وبأس، وتدفعى بقسوة
 وقوة حتى خيل لي أنها ستنتهي بي إلى عين خار بديس الحمئة...
 يا للهول! لقد مضى على ليل أيمما ليل... حتى إذا أشرقت ذكاه،
 رأيتي ويا للأسف عند صخرة سكيلا، وعلى مسافة من عين خار بديس
 ولحسن حظي كانت اللعينة قد ابتلعت كل مياه الشاطئ... ثم دفعتنى
 موجة من الأعماق فاستطعت أن أعلق بأحد أغصان التينة الهائلة النامية
 فوق صخرتها. فقيت لاصقا به كالخفاش لا يمكنني أن أهبط أو أن
 أتسلق لعظم ما كانت الأغصان تبتعد من الأرض وتمتد من حولي، ولأنها
 كانت تعرش من فوق خار بديس، حتى كنت أرتعد من فزع وهلع عندما
 كنت أبصر تحتي فأرى العين الحمئة الملعونة تبتلع الموجة إثر الموجة، ثم

(١) إله الصبا.

(٢) الثمام أقل ما يتعلق به الفريق

رأيت الخشبة وقطعة الشراع التي كنت عالقا بهما ينقذفان نحوها
ويكونان تحتي، فطربت، ولو أن هذا جاء متأخراً حوريع قاي ووهنت
قواي، وغمرني شعور الذي انفرجت أزمته . وكشفت عنه غمته ،
فهويت إلى الماء ، وتعلقت بهما بقبضتين مستميتين ... ويلاه عليّ !!
أواه ! لو تحتني سكيلا الهائلة طافياً هنالك !! إذن ما استطاع إنقاذي
رب الأرباب نفسه من مخالبها وأنيابها !! ثم بقيت هكذا تسعة أيام .
بلياليها ... يصرعني البحر وأصرعه ، ويناضلني الموج وأفاضله ، حتى
رئت الآلهة لحالي فساقتني في العاشر إلى أوجيجا ، جزيرة عروس الماء
كليبسو ، فرسوت ثمة في ليلة ليلاء ، مظلمة طخياء ... وقد نالني من
كرم العروس وجميل معروفها مارد إلى قواي ، وأثنائي عما لقيت من
شقوة وأرزاء ...

ولكن لم هذا ؟ لقد سمعت قصتي مع كليبسو من قبل ، إذ رويتها
للبلك ولزوجه أمس ، وإني لأكره الحديث المعاد .



أوديسيوس يصل إلى إيتاكا

وفرغ أوديسيوس من حديثه ، وجلس القوم في الردهة ذات الظلل مسبهوهين مشدوهين من روعة ما حدث ، ومن غريب ماروى ، حتى تكلم الملك فقال . «أوديسيوس ، يا أيها العزيز اصفا بالك وطاب حالك واستدريت من ذرى هذه القبة السماء بركن ركين ، فلن ينالك أذى بعد اليوم ، ولن تقدر عليك الرياح الهوج في رحلتك الآمنة إلى بلادك ، وإن يكن مثلك لا يبالى الحداثان ، ولا يابه لصروف الزمان ، بعد إذ رضع لبانها ، وتقلب طويلا في أحضانها ... وإنه والله ليس أحب إلينا من أن تقيم آخر الدهر عندنا ففتحسى معنا من أكرم هذه الحجر . وتشنف أذنيك بما يتغنى مطربنا الحبيب الإلهى ، وإلا ، فذاك صندوقك العزيز وفيه أذخار الهدايا وأعز اللهى . من مطارف الديباج ، ومكثرن الذهب الوهاج ... ولكن على رسلك ، هلموا يا معاشر الفياشين فليحضر كل منكم للنازح الكريم طرفةً مر أبرّ الطرّف ، وتحفةً مر أجلّ التحف ، ولتكن ركيزةً من الذهب وأصيصاً صغيراً للزهر ؛ وليساهم الشعب في هذا ، ذلك أدنى ألا تطيقوا ثمنها .

وصادفت مقالة الملك هوى في قلوب السادة زعماء الفياشين ؛ ثم نهضوا فتفرقوا إلى عنازلهم يلتمسون الراحة ، وينغمون بطيب المنام ؛ ونصرت أورورا ابنة الفجر جبين المشرى بأقواف الورد فهب الزعماء العظام من مراقدهم ، وبادروا إلى السفينة بهداياهم التى وصف الملك .

وقد كان ألكينوس نفسه ينتظرهم ثمة ؛ وكان يتناول كل هدية يديه
 فيضعها الأمين تحت مقاعد المجدفين حتى تسكون بنجيرة من ضرر بصيدها ،
 أو أذى يلحق بها ، حين يكون الملاحون مشغولين فيما هم بسبيله من
 عمل البحر ومصارعة الموج ... حتى إذا أسلموا تذكاراتهم عادوا مع
 الملك إلى قصره المنيف لوليمة الوداع الفاحشة وقد قرب إلى جوف
 الكبير المتعال ، رب الأرباب ورب السحاب الثقال . بشر جسد
 عظيم ؛ واعد من نخذه شواء شهى أقبل عليه القوم يأكلون
 ويروغون^(١) ، بينما يسكب في آذانهم غناء ديمودوكوس مطربهم
 الحذق الحبيب . وكان أوديسيوس يرفر بطفه المشتاق إلى الشمس
 يود من أعماقه لو عجزت إلى خدرها ، وكان يضجره منها جريانها
 الوئيد ، فهو دائماً يرقب مغيبها بعين الزارع الشقي الجرعان الذي أجده
 طول النصب في حرث حقله ، فعلق نصره بالشمس يتمنى لو هبطت
 فجأة في المغرب ليلوى أعمه بها ثمه إلى كوخه ، ولينلغ هناك لمقبات !
 وما كادت تتوارى بالحجاب حتى وجه الخطاب لزعماء الفياشين في
 شخص الملك ، فقال : « مولاي الملك الجليل ألكينوس ! يا فخر شيرا
 وعماد الفياشين ! تمت لو أدت الصلاة الخيرية يا مولاي وتفضلت
 فأذنت لي ووداعكم . مادمت قد أعدت لي الهدايا واللبى ، والابال
 الصناديد من رجالكم الملاحين ... وإني لأضرع إلى الآلهة أن ترعاني
 في رحلتى في اليم ، وأن أصل إلى بلادى فألقى فيها آلى وعشيرة سائمين .
 كما أسأل أرباب الأولمب أن ترعاكم وأن تقر أعينكم جميعاً بذويكم .

وأن تقي عليك من نعمائها، وتحفظ بلادكم من عاديّات الزمان وملبات
الحدثان، وسر الجميع من مقالته فتهتفأله، ورجوا الملك أن يأذن
له في السفر، فالتفت ألكينوس إلى مشيره وقال: «هلم يا بنيتون
فأدهق الزق واحمل الخمر إلى جميع أضيافنا ليريقوها خالصة لوجه
سيد الأولمب، كي تتأذن لأوديسيوس بالرحيل إلى دياره، ولبي المشير،
وأخذ كل كأسه. ولم ينتظر أوديسيوس حتى يصل إلى النذمان إلى
الملكة المبجلة الوقور، بل هب مسرعاً وقدم إليها كأسه الهائلة، وقال:
«وداعاً يا مولانا الملكة أحر الوداع! وداعاً إلى آخر العمر! وايقن
عمرأ موفراً تخفف رجا»^(١) تترين فيه بمولاي الملك والسادة النجب
أبنائك المحبوبين وشعبك، وحيّاً ونيّاً، ثم أهرع إلى المرفأ ومشير
الملك يسعى بين يديه، وثلاث من وصيفات الملكة يتهادين في إثره؛
أما أولاهن فكانت تحمل الثوب الديباجي الموشى. وأما الثانية فكانت
تحمل الصندوق الثمين ذا الأذخار، وحملت الثالثة مئونة حافلة من
أشهى الآكال وأطيب الشراب... حتى إذا كن عند السفينة، سلمن
ما حملن للملاحين الشجعان وأنثين من حيث أقبلن... واشتغل بعض
البجارة بإعداد فرش وثير في قرة^(٢) خلفية من أجل أوديسيوس...
الذي آوى إلى منامته واستغرق ثمة في سبات لذيذ، بينما كان الملاحون
دائبين في فك الحبال ورفع المرساة من صخور الشاطئ، حتى إذا
انتهوا توزعوا إلى مجاديفهم وأعملوا فيها أيديهم، فهمت الفلك واحتواها
الماء، وأقلعت تشق الأمواج، وتأخذ سبيلها في البحر سرباً... هذا

(١) واسع الرزق. (٢) القمرة غرفة في السفينة.

بينما كان النائم البريء قد استسلم لطائف من السكرى يشبه ضائف المنون.
وعمرِكَ الله^(١) هل رأيت أربعاً من صافنات الجياد تبارى في حلبة،
وقد أذن المؤذن فاندفعت تهب الرحب، وترسل في الهواء أعرافها؟
لقد كانت السفينة تتواثب على أعراف الموج مثلها، والعباب الزاخر
يصطخب من ورائها. واللجة من بعد اللجة تجيش وتضطرب تحتها،
كأنما تتحدى اليم في طمأنينة وثبات، أو تسابق في الجو البواشق
البراة ١١ وكيف لا، وقد حملت رجلاً لا كالرجال، وبطلاً بن أبطال
وحكماً ترأى^(٢) للآلهة في المسكرات وعظيم الفعال. وقرناً ليس كمثله
قرن في يوم كريمة أو نزال؛ لم يغضب من قبل هذه الغفوة الناعمة التي
باعدت بينه وبين ما تجشم من آلام وأحزان وأشجان.

وتلايلات في الأفق الشرقى نجمة الفجر الصادق، حينما كانت الفلك
مُقبالة الأرض الموعودة... إيتاكا... بعد إذ أتمت رحلتها الخاطفة في
جنح الليل... وهناك في شاطئ المدينة، أنشأ مرفأ أمين باسم
فورسيز رب الأعماق يُدخل إليه بين حاجزى أمواج ممتدين على مدى
الجنون الجميل. بين ذراعى الميناء، فما تستطيع ريح أن تعبث بما فيه من
سفين؛ وقد بسقت أشجار الزيتون على الشاطئ وامتدت امتداداً هائلاً
إلى كهف حريز تأوى إليه طائفة من عرائس البحار يقال لها السياد.
وئمة، أى في هذا الكهف المقدس، صفت أباريق من حجر وجرار
كثيرة، يأتي النحل فيودع فيها شهبه؛ وقامت فيه أيضاً عمد من حجر

(١) أستغفرك بالله

(٢) الترب بالسكر اللذة أو المشبه

يقال إن عرائس الماء تنسج عليها أثوابها العجيبة . وفيها أيضاً عيون من ماء زلال تسقى ساكنيه . ويؤدي إلى الكهف طريقان عظيمان ، أحل أحدهما للناس يضربون فيه ما يشاءون ؛ أما الآخر فلا تطؤه إلا قدم إله كريم . ويعرف بطريق الجنوب المقدس .

ويمم البحارة بفلسكهم شطر الميناء ، ثم أرسوا فيه . وجنحت السفينة بنصف حيزومها^(١) على رماله . . وحملوا أوديسيوس الزعيم دون أن يوقظوه ووسدوه على فراش^(٢) وطأوه على الشاطئ ، ثم حملوا كل متاعه وأذخاره فجعلوها إلى جانبه خلف زيتونة ضخمة تحجبها عن أنظار المارة ، حتى لا يعث بها عيسار إذ هو مستغرق في نومه العميق . . وركبوا الفلك بعد هذا وعادوا أدرأجهم إلى شيرا . . وأحس نبتيون الجبار رب البحار وعدو أديسبوس الأكبر بما فعل الفياشيون فنار ثائرهم وقال يعتب على زيوس : « أيها الإله الأعظم الأبدى ، أبدأ ما أحسب أنال نصيب من التقديس والتبجيل بين الآلهة منذ اليوم ، ما دام شعب فياشيا لم يأبهوا أن يحقروني أو يمالوا بي ، فقد كنت عولت على ابتلاء أوديسيوس بأروع صنوف البلايا قبل أن تطأ قدمه أرض بلاده . ولم يكر في تصميمي أن أحول بينه وبين العودة إليها لأنك كنت قد وعدت بتمهيد السبيل لهذه العودة ، والكنهم حملوه على فلكهم غاراً في أحلى المنام ، ثم حملوه إلى الشاطئ الإيثاكي مما معه من العطايا والأذخار ، وطرف النحاس ، وتحف النصار ، ومطارف الديباج ، وما حمل من كنوز لم يكن يحمل

(١) حيزوم السفينة مقدمها

(٢) في نسخة أنهم حملوه بفراشه

شيئاً منها حتى لو عاد بنصيبه من أسلاب طرودة ! و أسفاه و أسفاه !
وقال يحبيه رب السحاب الثقال : « ماذا تقول يا منزل الشيطان والخلجان
يا ذا المسكوت والجبروت ، يا أيها العظيم نبتيون ؟ ألا عليك يا أخى !
لأعليك ، فإنه لن تحرك الآلهة ولن تستخف بك ! فإذا استخف بك
ملاً ضعيف من بنى الموتى — عبادنا البشر — فما يضريك ؟ أليس فى
يديك ألف فرصة للبطش بهم والانتقام منهم ؟ أربح عليك يا نبتيون ،
وصل ملاذك ، فإنك لست عبداً لأحد ، قال نبتيون : « جوف يا رب
السحاب إنه ليس أحب إلى من أن أبطش بهم كما أشرت ، ولكنى
لا أخشى إلا تحديك لى دائماً بغير حق ، وإنى أرجو أن أعصف
بسفيتهم فى دأماي^(١) اللجى حتى لا يحملوا ضارباً فى البر والبحر مثل
أوديسيوس مرة أخرى ، وإنى مقتف آثارهم الآن ، فضارب فلهم
اللعين ، فساحره فى الحال إلى طود عظيم ينهض بروقيه أمام مدينتهم حتى
ليحجبها عن كل سارب فى البحر فلا يراها أحد أبداً ! ، فقال جوف
يحبيه : « هلم يا أخى فاصنع ما بدا لك ، وافعل فعلتك التى رسمت ،
ولیکن ذلك حينما يقتربون من مدينتهم حتى يرى أهل شيرا ما يحل
بسفيتهم لتسكون لهم آية ! » . وانطلق مززل الأعماق فى أثر الفياشين
حتى إذا كانوا قاب قوسين من الشاطئ أرسل يده تحت فلهم
فضر بها ضربة هائلة أرسلتها فى الهواء وهوت بها إلى اللج ، ثم تركت
مكانها جبلاً عالياً أشم ، ولوى عنانه إلى أرحاء ملسكه الرحب .

(١) الدأما البحر العظيم

ووقف الفياشيون - ملوك البحار - على شاطئ البحر مسبوهم
دهشين يسأل بعضهم بعضاً : من ذا الذى أرسى هذا الجبل الهائل مكان
سفيتهم تلقاء المدينة حتى ليحجبها عن أنظار السفن العابرة في اليم ؟
والتفت الملك وكان واقفاً بينهم فقال : « يا للآلهة ! لقد ذكرت نموءة
قصها على والدى فيما غبر من الزمان ... فلقد ذكر لى أن شعبنا المجيد
مأذون له من نبتيون أن يحمل الناس من كل فج ، من ضل سبيله منهم
إلى بلادهم مهما تناءت . وقد ذكر أيضاً أن سفينة من سفننا بعد إذ ترد
من رحلة لها إلى بلد رجل غريب نازح ، ستغرق في اليم ويبسق مكاسها
جبل عظيم شاهق يحجب شيرا عن البحر ... وها قد تحققت النبوءة ،
فهلوا نقرب لإله البحار نبتيون باثنى عشر عجلاً جسداً تكون أعظم
عجوانا وأغلاها قيمة ، عسى أن يرثى لنا فيكشف عنا هذه الغمة ولا
يحول بين البحر وبين مدينتنا هذا الطود الكبير الراسى ، وتفزع زعماء
الفياشين وبادروا إلى عجولهم فجزروها باسم نبتيون ، وتسكبوا حول
مذبحه فصلوا له ، وسبحوا بذكره ... أما أوديسيوس فقد هب من نومته
وهو لا يدري أين هو ، ومع انه كان ينام الذ النوم فوق شاطئ بلادته ،
فإنه لم يعرفها لطول ما شطت به النوى ^(١) ولأن مينرفا السكريمة ، سليلته
جوف العظيم ، كانت ألقت حوله ظلالاً تحجبه عن أعين المارة مخافة
أن يعرفه أحد منهم قبل أن تلقنه من حكمتها ما هو ضرورى له في حالته
هذه .. كأنما أرادت ألا يستبينه أحد من مواطنيه ولا من أصدقائه

وذويه حتى يبطش البطشة الكبرى بالخطاب الفساق الذين استباحوا
 عرضه واستحلوا بغير الحق زاده وخيره، وعمر واكالشياطين داره. لذلك
 موته مینر فاکل شیء فی عینی أودیسیوس، فالطرق مستقيمة مستطيلة
 والموانئ رجة مترامية، والجبال ذاهبة فی السماء، كالذوح الباسق يطاول
 الجوزاء، وكل شیء ليس بماعهده البطل فی بلاده.. ووقف یقلب عینه فی
 المشاهد المحدثه به، ثم تهدمن أعماقه، وبسط كفيه إلى السماء. وضرب بها فی
 برم على نخذه، وأنشأ یقول: «ویلاه علیّ وألف ویل اى شعب من
 الشعوب یقیم هذه الأرض یاترى؟ أأجلاف ظلمههم، أم أطهار أخیار یخبتون
 للآلهة؟ لیت شعری أين أخی هذه الكنوز والأحرار؟ وی ابل أیان
 أذهب أنا؟ لعمری لقد كنت أوثر ألا أنال شیئاً منها من هؤلاء الفیاشیین
 علی أن أكون قد حللت بأرض رجل ذى نخوة وذی نخیزة من ملوك الأرض
 غیر الكینوس هذا، فكان یرسلنى آمناً سالماً إلى بلادى ماذا أصنع
 یاربى؟ أأترك هذه الثروة الطائلة هنا؟ أأدعها فریسة حلالا لغيرى من
 الناس، وأهیم فی هذه البطحاء علی وجهى؟ وأأسفاه اأهكذا یغررون بی
 فیلقونی فی شاطىء غیر شاطىء بلادى، وقد وعدوا أن یهبطوا بی مرفأ
 إیثا كا الامین؟ اللهم یا جوف العظیم، یا من إلیه یجار أبناء السبیل
 والمهاجرون والمساكين؛ انتقم لی یارب الأرباب من هؤلاء الخونة المبطلین
 ولكر... یجدر بی قبل كل شیء أن أحصى أذخارى لأرى هل سلبنى
 منها هؤلاء اللصوص شیئاً؟» ثم راح یحصر كنوزه، فسا وجد شیئاً
 منها ناقصاً أو غیر موجود، وزاد ذلك فی أشجانه، فأخذ یندب حظه.
 ویبکی علی ما لقی من زمانه، ویذشح نشیجاً مؤلماً لهذه الهجرة الطائلة

عن أوطانه، وجعل يروح ويغدو على سيف البحر المضطرب، وحيداً أمعنى
ويرسل دموعه وزفراته حتى بدت له آخر الأمر مينرفا في صورة راع صغير
غض الإهاب عجيب الشياح جميل المحسنا، كأبناء الملوك، ملتفعا حول
عنقه ومن فوق صدره بشفيف^(١) صفيق مطوى حولها طيتين وفي قدميه
نعلان متواضعتان، وفي قبضته حربة ناعمة لامعة... وكانت مفاجأة
سارة فرجى عنها أوديسيوس نخطا خطوات عاجلة إلى الشاب وراح يسأله:
«مرحباً أيها الغُرَّانق^(٢) الجميل القديس أول إنسى ألقاه هنا، فبحق
هذا عليك أن تحمى وتحمى أذخارى هذه، وألا تلحق بأينا أذى
إنى أتوسل إليك كما لو كنت أتوسل إلى أحد الآلهة أن تصدقنى فيما
أسألك عنه: أية بلاد هذه؟ وأى قوم يعيشون فيها؟ أهى جزيرة آهلة،
أم حدود من بلاد مترامية؟ أخبرنى بأرباك أيها الفتى».

وقالت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين تجيبه: «أيها الغريب
اللاجئ كم أنت ساذج وكيف تسأل عن هذه البلاد كما لك لست من
أهلها؟ إنها بلاد ذات ذكر فى المشارق والمغارب، ومنها وإليها تصدر
الركبان إلى كل فج، ثم هى ليست يهماء^(٣) مجهولة، بل هى جنة مأهولة،
زاخرة الخيرات موفورة البركات، ففيها أنضر سهول القمح وأبهج
عرأس الكروم، وأخصب المراعى الخضر الحافلة بقطعان النعم والشاء،
تسقى من ماء معين، وأنهار وعيون... هذه يارجل إيثاكا... إيثاكا
المباركة، التى استطالت شهرتها، واستطار ذكرها حتى ملأ الخافقين،

(٢) الشاب الجميل الحيا

(١) الثوب الرقيق

(٣) صحراء مضية

وجاوز طرودة ذات المجد ، التي لا تبعد شطآنها من أحياء .
وشاع البشر في نفس أوديسيوس لما سمع الراعي الجميل يؤكد في
لهجة قاطعة أن هذه البلاد هي إيثاكا الموعودة ، ومن السرور أعصافه لما
رأى من زهو الشباب وافتخاره بها ... بيد أنه مع ذلك راح يتجاهل ،
ويبدي عدم معرفته لهذه البلاد ، ويحاول أن يخدع الفتى عن نفسه ،
وما يخدع إلا نفسه هو .. قال : « أجل ... لقد سمعت عن إيثاكا في
أقصى البحار ... والناس يعرفونها حتى في كريت التي وصلت منها اليوم
بعثادي هذا ، تاركاً فيها أبنائى وذوى رحى ، فاراً بنفسى من القعة
الهائلة التي فعلت ... يا ويح لي !! لقد قتلت العداء المعروف أرسيلون
أيدويهين العظيم الذي لم يكن يباريه في سرعة عدوه أحد . لقد حدثت
نفسه أن يسلبني ما غنمت من كنوز طروده وأسلابها وما حصلت عليها
إلا بعد قتال شديد ولظى حرب ، وركوب أهوال في ذلك اليم ... وذاك
لأنى أبيت أن أقاتل تحت لوائه ، أولواء سيده ومولاه ، بل قدت فيلقاً
من الجنود فظفرت وانتصرت ، فكبر عليه هذا ، وحفظهالى ، وأضمر
في نفسه الغدر ، فلما عدنا أدرأجنا إلى أرض الوطن ، حاول أن يسرقني
كنوزي ، فأقصده^(١) برحى فأرديته ، وكان معه زميل له شرير فذبحته .
واستعنت عليهما بدجى الليل ودُجستته ، ثم هربت تحت أستار الظلام
بأحرازي إلى الشاطئ ، حيث حملتنى سفينته فيأشيه رجوت ملاحيا أن
يهجروا بنى إلى شاطئ بيليا ، أو إلى مرفأ إيليس ... لكنهم وأسفاه
اضطروا إلى الإرساء هنا لأن ريحاً عاصفاً قسرتهم على ذلك ، فوصلنا

(١) رميته برحى .

هنا برغمنا فى جنح الليل البهيم ، ولقينا عناء عظيماً فى النزول بالمرفأ
الأمين ؛ ومع شدة حاجتهم إلى الطعام ، فإنهم لم يستأنوا ، بل تركوا
وحدى ، وأبحروا على عجل ، بعد إذ نمت على الشاطئ من الإعياء ، وبعد
إذ حملوا إلى هنا متاعى ... وهم الآن فى طريقهم إلى سيدونيا ...
وهأنذا وحدى هنا ، لا أعرف أيا ن أذهب ، ولا أين أمضى !! .

وسكت أوديسيوس ... ولكن الراعى الشاب الجميل أخذ يتحول
فى فتون وسحر إلى صورة خلافة أخرى ... لقد أصبح امرأة حسناء
هيفاء ... وهامى ذى ... تلك المرأة الحسنة الهيفاء ... تبدو فى صورة
مينرفا — ربة الحكمة — التى اقتربت من البطل فى تبسم وظرف ،
وأخذت تعبت بلحمته الكثة الشعثاء فى دلال وسخرية ، وراحت
بدورها تجيبه : « مرحى أوديسيوس ... مرحى مرحى !! ما احسب
أن أحداً — أحداً من الآلهة — يفوقك فى مكرك وبراعة حيلتك !
يا ابن ليرتيس !! أما آن تقلع عن مراوغاتك التى حذقتها مذكنت
بافعاً ، وعن توشية الأحاديث الملفقة التى حذقتها واشتهرت بها فى
العالمين ؟ ولكن ... تعال ... ليدع كلانا ما يحاول أن يزوق به كلامه ،
فكلانا بارع فى ذلك صناع ... أنت بفصاحتك . ودقة فهمك وطريف
حيلتك بين الناس ؛ وأنا بحكمتي وقوة تديرى بين الآلهة ... وما أحسبك
تجهل مينرفا ابنة جوف الأكبر ، التى كانت رائدك ورفيقك فى كل
ما حاق بك من مكروه ... فقد كنت أقذف الشجاعة فى قلبك فى
مواقف شدتك . كما كنت اثير الحمية فى أفئدة الفياشين الذين وصلوا
بك إلى هنا ، وهأنذا طويت إليك فداغد الرُحْب لأخلو ساعة بك ،

ولأن لي حديث نصح معك ، بودى أن أحضرك إياه ... وقبل هذا ينبغي أن تخبي* كنوزك التي أسبغت عليك بمشورتي ... ثم إنى حدثتك عما يتحيفك من أرزاء ، وما يدبر لك من كوارث تحت سقف بيتك ، ونصيحتي أن تحتمل ما يصيبك أول الأمر بقلب جليد وصبر ثابت وطيد ، واحذر أن يعلم أحد ، رحلا كان أو امرأة - بوصولك إلى إيثاكا وحيداً شريداً لا حول لك ، كما وصلت ، بل اصمت كلما حاول أحد أن يتعرفك ، واحتمل الأذى كلما امتدت به يد إليك ، . وقال أوديسيوس ، وقد أسقط في يده : « لله درك ياربة ! ما أبرعك في تغشية العيون وتضليل الأبصار ، والتشكيل في أى صورة شئت ! بيد أنك برغم ذلك حليلة رحيمة كعهدى بك دائماً ؛ ألا كم نصرت أبطال أخايا المذاويد ، وأظفرتهم بأعدائهم في ميدان طروادة ... ولكى إن أنسى مذ أقلع أسطولنا من مياه تلك المدينة ، بعد سقوطها في أيدينا أنك لم تظهرى لنا قط ، ولم تبادرى مرة إلى إنقاذى من إحدى الرزايا التي كانت نحيق بي والتي كنت أحتملها بقلب حديد . وصبر شديد ، حتى رثت الآلهة لخالى فجعلت لي منها خرجاً وأنقذتني إلى بر فياشيا ؛ حيث أثرت في صدرى النخوة ، وأوليتني الشجاعة ؛ وكنت دائماً دليل ورائدى ... ولسكن ... أصدقيني بأبيك يا ابنة جوف ، هل وصلت حقاً إلى إيثاكا ؟ أم أنا في صُقع سحيق عنها وإنما أنت تسخرين منى وتعبينين بي ؟ أصدقيني بأبيك ياربة ، هل هذه بلادى العزيزة إيثاكا ؟ هل هى حقاً ؟ ، وقالت ذات العينين

الزبرجديتين تجيبه : دائماً حذرهم يا أوديسيوس ، وإلى الأبد يملأ
 الوسواس صدرك ، برغم ما أوتيت من حكمة وتيان ، ورجاحة
 فكر وسلامة جنان ! بيد أنك معذور يا صاح ، إذ أى رجل يتشوف
 لرؤية زوجه وأبنائه ولا يتحرق شوقاً للقياسم بعد هذا السفر الطويل ،
 والبعد الممض ، والأحوال الجسام الجمّة ؟ غير أنه أفضل لك ألا تعلم
 شيئاً ولا تسأل عن شيء حتى تلمس بنفسك مقدار ما تكمنه لك من
 الحب تلك الزوجة الوفية المخلصة التى ذهب شبابها عليك حشرات ،
 والتى ذرفت دموعها من أجلك آناء الليل وأطراف النهار طوال تلك
 السنين الباكية الحزينة الموحشة . . . إلى لم أتركك يا أوديسيوس كما
 تظن ، بل كنت أعلم أنك راجع دون ماريب إلى بلادك ، وإن فقدت
 كل رجالك ورفاق سفرك الطويل الشاق ... غير أننى أشفقت أن أثير
 حنق نبتيون ، عمى وشقيق أبى ، الذى يحز الأسى فى قلبه من فعلتك
 التى فعلت بعين ابنه السيكلوب ... ولكن هلم ... إلى سأقطع شكك باليقين ،
 وسأدلك على علائم تؤكد لك أنك فى إيثاكا ... فهذه هى ميناء فورسين
 حكيم البحار ، وهامى الزيتونة الكبرى عند رأس المرفأ وعلى مقربة
 منها ذلك الكهف المقدس الإلهى الذى تأوى إليه عرائس البحر المعروفة
 باسم النيباد ، وقد طالما كنت تجزر القرايين والأضاحى باسمهن عند
 وصيده ، وهالك جبل نيروتوس وأولئك غاباته الشجراء ... ثم رفعت
 ربة الحكمة الغشاوة عن عينيه فعرف دياره ولم ينكر شيئاً منها ، وهكذا
 شاءت العناية أن يشهد البطل المسكدود بلاده الحبيبة مرة أخرى ،

وهكذا خر أوديسيوس جاثياً يقبل ثرى الأرض المقدسة ، ثم رفع يديه يصلى لعرائس الماء كساق دأبه ويقول : « يا عرائس البحر ، يا بنات جوف الأعظم ، لقد قنطت قبل هذا من أن أرا كن ، فها أنذا أعود إليكن بألف نذر وألف تحية وسلام . . . وككن القرابين الغوالى إذا مدت أختكن ميزفا الحكيمة فى أيامى واركب رجولة ولدى ومعقد أحلامى » .

وقالت ابنة جوف تؤيده : « تشجع يا أوديسيوس لا طائل لهذه الوسوس التى تعذبك ! هلم ! البدار ، البدار ! لننخى هذه الكنوز فى أغوار ذلك الكهف السحيق لتسكون فى مأمن من عبث عابث ، ثم هلم أدبر الأمر معك ، وانطلقت الربة فى ظلمات الكهف تتكشفه بينما حمل أوديسيوس أذخاره فوضعها حيث أشارت ميزفا ، ثم حملت بيديها الجبارتين صخرأ عظيماً فأحكمت به غلق المدخل الرهيب . وجلسا عند أصل زيتونة إسقة ، وشرعا يرسمان الخطط ويحكيان التدبير لهلاك الخطاطب الفساق المعاميد ، فقالت ميزفا : « أوديسيوس ، يا ابن ليرتيس المجيد ، هلم فأعمل فكرك الآن فى الوسيلة التى تبديد بها أعداءك الذين لا يستحيون ، أولئك الخطاطب الذين استبدوا بأسرتك طوال أعوام ثلاثة . واستباحوا حماك ، وتكالبوا حول زوجتك كل هذه السنين يغرونها بالوعود ، ويزخرفون لها الأماني ، ويحسنون لها كلمة الفسق ، وهى ماتز داد إليك إلا تحرقاً ، وماتز قأدموعها من أجلك ، فتحتال لهم ، وتعيد هذا وتوشى المنى لذاك ، معللة نفسها بعودتك لتسحقهم جميعاً ! » واستعبر أوديسيوس قليلاً وقال : « أوه اكأن القضاء الذى أسكت نأمة^(١)

(١) أسكت نأمة أى أماته .

أجائون يكاد يحق بي أنا الآخر في صميم داري ! ولكن ... وى !
أضرع إليك أينها الرمة أن تشيرى على وتنصحى لى وتلقينى كيف أنار
من هؤلاء الطغاة ؛ وأتوسل إليك أن تقذفى فى قلبى الشجاعة كما قدقتها
فيه تحت أسوار طروادة ، فإنى بعونك أدوخ المئين من أعدائى ،
وما دامت يدك فوق يدى ، فإنى مستأصل شأفتهم جميعاً ، قالت ميسرفا :
« اطمئن يا أوديسيوس ، سأكون معك وإن لم يمتد إلى طرفك حتى
تغتالهم أجمعين ، وحتى تطيح رؤوس أكثرهم على أرض قصرك ...
ولكن تعال ، ألق بالك إلى ، إنى سأغير من صورتك ، وأحور من
شكلك حتى لا يعرفك منهم أحد ؛ فهاتان الوفرتان ^(١) تستطيلان حتى
تغطيا كتفيك وحتى تتصلا باللهة ^(٢) ، وسأدثرك بدثار مرقع رث يشير
التقرز فى نفوسهم فلا يمدون أبصارهم إليك ، وسأحدث أورا ما حول
عينيك تزيد فى تنكرك ، حتى ليحسب من ينظر إليك من أعدائك
أنك وأهلك بعض المساكين الذين لا يفتأون يضربون فى الأرض ...
على أنه ينبغى أن تلقى راعيك الأمين (إيبومايوس) الرجل الوفى الذى
لا يزال يخلص لك ، وبني لابنك ، ويؤثر بأصفي وده زوجك ...
فاذهب إذن إلى جيبيل كورا كس المطل على نبع أريشوزا ، تجد قطعانك
ترعى العشب الحلوثمة . وتسقى من السلسبيل المجاور ؛ وتجدراعيك
الشيخ يتشوف إلى رؤيتك ، فحيه واجلس إليه ، واسأله عن كل ما تريد
أن تعرف من أنباء بيتك وأهلك وعقارك ، وتلبث معه حتى أعود
إليك بابنك من أسبرطة . . ابنك تليماك الذى ذهب يذرع الرحب

(١ - ٢) الوفرة ما بلغ شحمة الأذن من الشعر واللثة ما أم بالملك منه .

سائلا عنك ، متحسسا أخبارك حيث حل ضيفا كريما على الملك منلوس ،
الذى أرسله إلى ليسديمون ليرى هل لا يزال أبوه حيا يرزق ؟ ، قال
أوديسيوس : « وا أسفاه عليك يا ولدى ! ولم أيتها الربة المحيطة بكل
شيء لم تخبريه أنتى حتى أرزق وأنتى لا بد عائد إليه ، فكنت كفيته بلاء
الرحلة في تيه البحر ، بينما هؤلاء السكلاف يستنزفون ثروته وماله ؟ ،
فقلت تجيبه : « لا تأس على ولدك هكذا يا أوديسيوس ، لقد أرسلته
أنا ثمة يمشد الشرف وينشر ذكره بين الناس . . . إنه لا يلقى عنتا هناك ،
بل هو ينعم بالرعاية في قصر أتريدس ! واعلم أن فريقا من خطاب
بنلوب يتربصون به ، ويتربصونه في طريقه ابتغاء أن يقتلوه قبل أن
يبلغ أرض الوطن . . . ولكن لا . . . خاب فألهم . . . إنهم لن يمسه
بأذى حتى تسكون الأرض قدرويت من دمائهم ، وغيبوا جميعا في
بطونها ، أولئك السفلة الذين يستحلون زادك وعتادك الآن ، ثم
مستته بعصاها السحرية فبدت عليه بدوات الكبر ، فهذا جلده قد تغضن ،
وهاتان وفرتاه ولمته قد استطالت حتى بلغ شعرها قدميه ، وهما هي
ذى تضفي عليه الدثار المرقع الرث ، وهما هي ذى تحدث الأورام حول
عينيه وتزوده بمزق قدرة علق بها التراب والسخام^(١) وهما هي تضفي
عليه بعد ذلك جلد ظى قديم غليظ وتدفع إليه إبعكازة طويلة يتوكأ
عليها ، وتمده بمزود^(٢) تدلت منه أوشية فيسحة ، وأحيط بسيور من
جلد عتيق . . .

وافترقا . . . فهو إلى حيث يلتق راعيه . . . وهى إلى حيث تلقى
تليهاك في مملكة ليسديمون .

(٥) الفهم أو ما يعرف بالعامية بالهباب

(٢) خرج

مسح السراعى

وسلك سبيله فى طريق وعر مخوف بالأشجار الباسقة إلى مأوى
صديقه الراعى الشيخ الأمين ، فوجده جالساً وحده فى مدخل الحظيرة
الشاسعة القائمة وسط المرج المعشوشب النضير . ولقد سورها يومايوس ،
إذ سيده غائب فى أقصى الأرض ، بسور عظيم ضخم من حجارذ قوية
نحتها من محجر قريب ، وجعل على السور فروعاً من قتاد وشوك وجذوعاً
من سنديان ، حتى صارت أمتنع من عقاب الجو ... كل ذلك دون أن
يساعده أحد ... ثم قسمها اثني عشر زراً^(١) جعل فى كل منها خمسين
خزيرة كنازاً ... أما دُكران الخنازير فقد تركها سائبة فى الخارج
ليرسل منها إلى العشاق المعاميد ما يأكلون منه وما يرغبون ... وقد بقى
منها بعد تملك الأعوام الطوال ستون وثلاثمائة . وربضت لدى الباب كلاب
أربعة كسباع البرية ، تلحظ الحظيرة بأعين كالجمر ، وجلس الراعى يعمل
لنفسه فعلاً من جلدثور مدبوغ ، بينما انطلق خدمه ومعاونوه الأربعة
يعملون ويدأبون هنا وهناك . وكان رابعهم على وشك أن يترك الخطائر
إلى المدينة ، حامل اللحم خنزير حنيذ يذهب به برغمه إلى الخطأب الفساق .
ولمحت الكلاب أوديسيوس فأهرعت إليه ، وظلت تعوى وتنبح ، وترغى
وتزبد ، وأوشكت أن تفتك به ، لولا أن هب يومايوس فكسر شرتها

(١) الزرب : الزريبة للغم

بما رماها به من الحجارة ، ولولا أن ترك وديسيوس عكازه يسقط من يده لأن الكلاب لا يغيظها إلا أن يُمسك لها أحد عكازاً . . . قال الراعي : « أيها اللاجيء العجوز سلبت الخطيرة واحدة ! وكانت هذه الكلاب قد مزقتك إرباً ، وكانت قد لحقت بي سبة لا تبيدا ألامكم ترسل على الآلهة من كروب ! وكم ترميني به من آلام ! أنا ، هذا العجوز الهالك ، الذي أمضى الحزن ، وشفني الأسى من أجل سيدي ومولاي ! هاأنذا أسمى قطعاه وأرعاها لينعم بها غيره ، بينما هو نازح غريب يحوب الآفاق ويشتهي كسرة يتبلغ بها ، إن كان لا يزال حياً يرزق ! أوه ! تعال أيها الصديق ، هلم فاتبعني إلى داري أطعمك ما تيسر ، وأسقك كفايتك من الخمر ، وتخبرني بعدها من أنت ، ومن أين أقبلت وماذا وراءك ! » وانطلقا ، وقدم إليه الراعي الكريم حشيشته التي كان يجلس عليها ، والتي اتخذها من جلد عنز حشاه بالقش ، وشكره أوديسيوس : ودعا له بما يحب وبكل ما تصو إليه نفسه . فقال الراعي يحبه : « أيها الصديق ليس أمقت إلى من أن أذود لاجئاً إلى داري وإن يكن أرث منك حالا ، لأن أبناء السبيل جميعاً هم ضيوف زبوس رب الأرباب وأنا مع ذلك أعتذر إليك إذا لحظت أن زادي قليل وأن حال رقيقة . فقد مضى زمن العز والعيش الواسع المخفرج وأصبحنا نعانى القل والفاقة والعيش المتكد تحت إمرة هؤلاء الرؤساء الأصاغر . آه يا مولاي يا زين الحياذ ومؤدب الناس أين أنت وأين أيامك وخيرك الوفير ؟ ليتها دامت . وليتك ظلمت فعشنا في كنفك . . . وليت هيلين وكل من في بيت هيلين فداؤك . . . هيلين

التي قتلت سادات هيلاس^(١) بمسّ البحر و امع أجائمنون لينيلوه النصر في
ميدان طر وادة^(٢)، ثم لم دثّره وذهب إلى الزرب الأول لجاء بخنزيرتين
سميتين فذبحهما و سلخ جلديهما ، وجعلهما إزباً إزباً ؛ ثم أشعل ناراً
عظيمة فسوى على جمرها السفافيد المثقلة باللحم، وجاء بالشواء فوضعه
امام أوديسيوس، ثم نثر عليه من الدقيق، وأحضر زق الخمر، وجلس
قبائته وقال : «هلم يا ضيفي العزيز فكل وارو... لا تؤاخذني إذا رأيت
الشواء لا سميناً ولا حنيذاً، فكل سمين وحنيد يذبح أولاً فأولاً و يرسل إلى
الخطّاب السفلة الذين لا يرعون في الآلهة إلا ولا ذمة، ولا يخافون سماءً
ولا بشراً.. يا لله من هؤلاء الفجرة... ألا يلبون شعثهم ويغيرون بخيلهم
ورجلهم على بلد قاص فيشربوا بأسلاب الغزو و سخط الآلهة؟ أم تراهم
أوحى إليهم بموت مولاهم فهم ههنا قائمون ما يريمون، ولزاده آكلون
ومن خمره شاربون، حتى فرغت الجرار، وخوت الدار، وضؤل الزرع
وجف الضرع! أبدأ ماملك أحد مثل ماملك مولاي! لقد كانت ثروته
تعدل ما يملك عشرة أو عشرون أميراً، ولا أزال أذكر بما ملكك يداه
اثني عشر قطيعاً من الأنعام كانت ترعى العشب في مروج الشاطىء^(٣)
المقابل، وكثيراً من قطعان الأغنام وأرعال^(٤) الخنازير وأسراب الماعز،
عليها أجر، وخدم ورعاة لا يحصون، ورجال يخلصون يزرعون في حقوله
الشاسعة ويحصدون، ورجال يجلبون من قطعانه كل كمناز للذبح...»

(١) اليونان وتسمى أخايا أيضاً .

(٢) لعله شاطىء آسيا .

(٣) جمع رميل ويجمع على رعال أو أراويل وهو في الأصل للغيل والبقير .

نأما أنا . . . فقد عهد إلى بهذه الأفعال^(١) التي ترى ، أطعمها وأغني بها ، و . . . وأأسفاه ، وأرسل إلى الخُطَّاب كل يوم بخيارها ،

وصمت الراعي بينما كان أوديسيوس يصني ويلتهم طعامه ويفكر ألف فكرة ، ويدبر ألف تدبير لسحق هؤلاء الخُطَّاب المفاليك . حتى إذا انتهى ، قدم إليه يومايوس كأسه دهاقا ، فتقبلها وشرب ما فيها وقال : « ترى ماذا كان اسم سيدك أيها الصديق ؟ لابد أنه كان مشهوراً ذا ذكر ، لما وصفت من واسع ثرائه وسمو جاهه وبسطة ملكه . لقد غلت إنه ذهب إلى طروادة مع أجائمنون ، فهل تتفضل فتذكر لى اسمه عسى أن أقص عليك من أنبائه ؟ لقد ذهبت أنا الآخر ثمة ، وسافرت في بلادشتى ، ومحال ألا أعرف العطاء الذين جاهدوا مع أجائمنون . فأجابه الراعي : « وأأسفاه أيها الأخ العجوز ! أبداً لا تنظلي الأنساء الملفةقة عن مولاي على زوجه أو ولده ، فكم من جواب آفاق مثلك ؛ محتاج إلى لقبات أو سر وال ، قد لقي الزوجة المسكينة فلفق لها قصصاً مكشوباً عن رجلها ثم دلت الأيام على كذبه وزحرفه ، والزوجة في كل ما تسمع تذرف الدموع وتصدع الآهات كأحسن ما تصنع زوجة وفيه من أجل زوجها الذي قضى في بلد بعيد . وأكبر ظني أنك تظمع في كساء تخامه عليك هذه الزوجة المفسودة^(٢) الرءوم ، فأربع عليك ، فالرجل قد قضى ، وليس بعيداً أن تكون كلاب البرية وسباعها قد اغتذت به أو أنه قد غرق فأكله السمك ، ولفظت عظامه على سيف البحر لتذرونها الرياح ، تاركاً وراءه قلوباً تأسى عليه . أحنُّها عليه

(١) جن رعبيل أى قطيع من الماشية أو الغنم . (٢) المصابة المرزأة المحرونة .

قلبي . ثالثة ماوددت أن أرى أبوى اللذين غادرتها منذ أحقاب كما
أتشوف اليوم إلى رؤية هذا الرجل ... آه يا أوديسيوس ! أين
أنت ... إنك مهما شطت الغوى وشحطت^(١) الدار فلن أبرح أذكرك
وأسبح باسمك وأوقرك بما أحسنت إلى وعنيت بشأني ، يا من فراقك
عندى آلم لى من فراق أعز إخوتي وأشقائى ! ،

وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق لم تياس من عودة
مولاك هكذا ؟ ولم يخارك الشك فى أن رجوعه محتوم لاريب فيه ؟
إذن فأنا أقسم لك قسماً لا أحث فيه إنه لعائد لا محالة ، ومعاذ الآلهة
أن أقسم وأؤكد الإيمان لأنال القميص الذى ذكرت أو الدثار الذى
أنا فى شدة الحاجة إليه ، بل ليبق القميص والذثار حتى يتحقق قسمى
وتبريمنى فأتسلمهما منك ، فإنى أمقت السكاذب الحانث فى يمينه كما
أمقت أبواب الجحيم ، والله على ما أقول وكيل ... إطمئن إذن يا صاح
وثق أن أوديسيوس لابد عائد هذه السنة إلى إيثاكا بل ربما عاد هذا
الشهر ، ولن يمضى شهر آخر حتى يكون قد ثار لعرضه سن أعدائه وبطش
بهم جميعاً ، أولئك الفجرة الأشرار الذين جسروا على استباحة حماه ،
ولإهانة زوجه ، وعدم المبالاة بولده ! ، وسخر الراعى وقال : « أهكذا
تقسم وتؤكد القسم يا صاح ؟ أبداً لن تنال الرهان أبداً ، فقد أودى
أوديسيوس ولن يعود بعد ... هلم هلم ، تحسّس^(٢) كأسك الرويتة ودع هذا
الحديث فإنه يحزننى ويثير شجونى ... خل قسمك ، وليقدم أوديسيوس
فى خيالك أو فى الحقيقة ، فأنا وزوجه وأبو ولده ... كلنا نشتهي ذلك

وتتمناه على الآلهة ... يا ويح لك يا تليماك الحبيب ! لقد كنت أرقص
 طرباً كلما رأيتك تنبت كما نبت أبوك ، وتشب على الفضائل التي شب
 عليها ! أين أنت ؟ لقد ذهبت إلى ملك بيلوس تتحسس أخبار أبيك ،
 وها هم الحطّاب يترصدونك ويترصدون بك ليغتالوك في الطريق .
 ألا طاشت أحلامهم ، وحماك جوف الأعظم من مكرهم ، وحفظك لبيت
 أرسسياس يا أعز الناس ... ؛ ولكن تعال أيها الضيف الكريم ... قل
 لي بربك واصدقني في كل ما تقول : من أنت ، ومن أين أقبلت ، وفيم
 قدمت ؟ وما بلدك ؟ وأين يقيم أبواك ؟ وأي سفينة حملتك إلى شاطئنا ؟
 فلعمري إنك لن تدعى أنك وصلت إلينا سائراً على قدميك !! ، فقال
 أوديسيوس يجميه : « سأقص عليك من أنباء التي لا يأتها الباطل ما لو
 لبثت عندك عاماً بين هذه الخمر وذاك الطعام ، بينما يكمد الآخرون من
 أجلنا ويمجدون ، ما فرغت من قصصها عليك ... فهي أنباء باكية وآلام
 متصلة ، شاءت السماء أن أقاسمها ، وأن أجمع غصصها ... إذن فأنا ابن
 كاستور هيلاسيد أحد سرة كريت ، من سرّيته المحبوبة التي كان يعزها
 كزوج . ولم يكن أبي يفرق بيني وبين إخوتي من زوجه ، بل كان
 يولينا حبه على السواء ، وكان الناس يمجّلونه كأحد آلهتهم لثرائه الواسع ،
 وحسبه الضخم ، ولأعماله الناجحة ؛ فلما مات أقسم أبناؤه كل ما ترك ،
 وكان نصيب منزلي متواضعاً ، ومالا كثيراً ، وزوجة غنية ذات مال
 وجمال . ولم يحاول إخوتي أن يدعوني^(١) أو يأكلوا تراثي ، لما كنت عليه
 من كريم الخصال وحميد الفعال ، وجمال المنظر ووسامة المظهر - لا كما

ترانى الآن - وأأسفاه على ما فات من نضارة الشباب! تالله لن تستطيع ، ولن يستطيع أحد ، أن يحدد كم شقيت وكم بُليت ، وكم من الآلام والضنك وأضرار الحياة تحملت ؟ فلقد كنت لا أُرهب الردى . وكنت دائماً أخوض خبار المعامع فى حتى مارس وميزفا فأشك قلوب الأعداى وأبهر القادة والزعماء بجلائل الأعمال ... ولم يكن من دأبى أن أشغل نفسى بأكلاف البيوت ومشاغل الحياة المعيشية الدنيا، التى هى بالأحداث والغلمان أولى ، بل كنت مشغولاً أهدأ بركوب البحار وخوض غمار الوغى ، وملاعبة الأسنة . وما إلى ذلك مما جعلته السماء غراماً وفرحاً لى ، وضراماً وفزاعاً فى فؤاد سسواى - والناس كما تعلم فيما يعيشون مذاهب .. ولست أرسل القول على عواهنه ، فلقد قدت إلى طراودة تسعة جيوش ظفرت بنفيا القما قبل هذه الحرب الضروس الأخيرة بينها وبين هيسلاس ... ولقد حزت الثراء الجهم والغنى الوافر من جراء هذه الحروب ، فأصبحت بين شعب كريت المفضل المبجل ... ثم كانت الحرب الأخيرة التى قتل بسببها مئات من السادة الصناديد من رجال الإغريق ، فاختبارونى أنا وصاحبى إيدومين قائدین للأساطيل ... ثم حاربنا حول طرودة تسع سنين حافلات مُثقلات وفى العاشرة سقطت المدينة فى أيدينا ، وعدنا أدراجنا نطوى اليم لا ندرى ماذا خبأت لنا المقادير ؛ ومن ثمة بدأ جوف يرسل صيبياً^(١) من الرزايا فوق رأسى ، حتى إذا وصلت إلى كريت سالماً لم ألبث طويلاً هناك ، ولم أمتع النفس بالأهل والوطن إلا شهرأ واحداً ، ثم أفلعت فى نخبة من رفاقى بأسطولنا إلى مصر بعد أن أولمت لهم وقربت القرابين

وقد أرسلت العناية لنا ريحاً جرت بسفننا رُمخاء كأنما أبحرنا مع تيار
نهر لا جبار ولا عنيد . ولم يحدث لأى من جوارينا سوء حتى بلغنا
شطآن مصر فى اليوم الخامس ، واتخذت سفننا سبيلها فى النيل عجباً ..
ثم حدث ما لم أود أن يحدث . إذ سطا رجالى بعد مُخلف فى الرأى
وشجار بينهم عنيف على حقول الفلاحين فاستاقوا أنعامهم وسبوا
نساءهم ، واسترقوا أطفالهم ثم ذبحوا رجالهم ... بيد أنهم لم يسلبوا مع
ذاك من شر المصريين إذ استيقظت المدينة على صراخ الجرحى
وأنين القتلى وتصويت النساء فأقبل أهلها كالجراد ، بين فارس وراجل
وكل يحمل السيف البتار أو الرمح السممرى ، فأعملوا فينا ضرباً ونقتيلاً
واستنقذوا السبي كله ، وشفوا سحر^(١) صدورهم منا ... أما أنا ...
فيا ليتنى قتلت فيمن قتل واسترحت من هذه الدنيا التى جرعتنى
ضعف هذه الآلام بعد ! لقد كنت أشهد رجالى يهونون إلى الأرض .
وأعلم أن جوف قد أنزل هذا البلاء بهم جزاء لهم وفاقاً فلما
رأيت أننى لا محالة شارب بالمكأس التى شرب بها رفاقى ، ألقيت سيفى
وجريت أعزل من السلاح إلى حيث الملك الكريم ، فركت بين
يديه ، وقبلت الأرض إجلالاً له ، وبكيت ما شاء جوف أن أكنى .
ثم سألته العفو والمغفرة ، فرق لى ، ورثى لحالى ، وأمر بى فأخذنى
فى جملة خدمه إلى المدينة . وقد رام رجاله أن يقصدونى برماحهم لولا
أن صدم مخافة من الله الذى آمن اللاتدين به ، المستدرين بظله . ثم لبثت
فى أهل مصر سبع سنين هائناً سعيداً محبوباً من الجميع وحدث فى السنة
الثامنة أن قدم إلى المدينة رجل فينيقي جواب آفاق ، ما زال بى حتى

أقنعني بالفرار معه إلى بلاده، وأغراني بأن له ضياعاً وأملاً كاملاً ،
ف فعلت ، ولبثت معه حو لا بأكمله ، ثم حدث أن كلمني بعد هذا الحول
في رحلة لا أعرف إلى أين ، كانت أكبر الظن للسطو والقرصنة ،
أو على الأقل لأباع في بلد قصي بيع الرقيق ، فينتفع بشمى ...
ورحلنا ... و لكن عاصفة جبارة هبت علينا وتلاعبت بنا ، وعبست
السماء وكبح الدأما^(١) وتمرد من تحتنا الماء ، ثم أرسل جوف صواعقه
على السفينة فقصمها ... وغرق الملاحون جميعاً ... وأكرمى الله
العلى اللطيف فبعث إلى بقلع السفينة الأكر فتعلقت به ، ولبثت
الصب^(٢) تقذف في نحو الجنوب أياماً تسعة ، وفي ظلام الليلة العاشرة ،
دفعتنى على شطآن تسپروتيا حيث أكرم مشواى ملكها العظيم البطل
فيدون ، وعنى بشأنى . وذلك أن ولده رآنى طريحاً على الشاطئ أكاد
أموت من البرد والجوع ، فحملنى إلى قصر الملك حيث ردت إلى
الحياة وأعطيت دثاراً وصداراً ، وخصصت لى عرفة فسيحة ذات
أرائك .. وهناك سمعت عن مولاك النازح ، البطل أوديسيوس ، ورأيت
بعينى رأسى وقد ذكر لى عن فضل الملك وإكرامه مشواه ، ما برهنت
عليه أعماله ؛ ثم أرانى أوديسيوس كنوزه من الذهب والنحاس
وطرف الحديد التى جمعها فى أسفاره ، التى تكفى للنفقة على
أسرته عشرة أحقاب ... وكان الملك يحفظها له فى غرف كثيرة فى
قصره إعزازاً له وتسكريباً ؛ وذكر لى أنه ذهب إلى ددونا النامة بين
أحضان الحور والسنديان ليستوحى كاهن جوف الأكبر عما إذا

كان خيراً له أن يذهب إلى بلاده متسكراً ، أو في صورته الصريحة الحقيقية بعد هذا الغياب الطويل عن أهله . وقد أكد لي الملك أن المركب الذي سيحمل أوديسيوس إلى بلاده — إيثاكا — معد في المرفأ ولولا أني أبجرت قبله لشهدته بعيني يركب الفلك ، ذلك أن فليكا آخر للملاحين من جزيرة لشيوم كان راسياً في الميناء ، فأمرهم الملك أن يحملوني معهم ويذهبوا بي بأقصى ما يمكنهم من السرعة إلى الملك أكاستوس . ولكنهم وأسفاه تألبوا عليّ في عرض البحر ، وتأمروا بي ونزعوا صداري ، ونضوا^(١) دناري ثم انتهزوا فرصة المد فأرسلوا بي إلى شاطئ إيثاكا . بعد أن ألبسوني تلك البرة القبيحة التي ترى . ولكني لأقاوم أدنى مقاومة ربطوا ذراعي وساقى وشدوا وثاقى في السارية فلم أجد حراكاً بيد أن الآلهة رأفت بي وحلت وثاقى ففقدت بنفسى في المساء وسبحت إلى الشاطئ حيث وجدتهم يعدون عشاءهم ويلتهمونه سراعاً وقد اختبأت في الأدغال الكشيفة فلم يروني وهالهم ألا يجدوني حيث شدوا وثاقى ، فذهبوا يبحثون عني حتى إذا لم يبقوا لي على أثر ، أفلعوا عجولين ، ونجاني الله منهم ، وساقى إلى الرجل الصالح الطيب لذي وصل حيائي وأكرم مشواي فتبسم يومايوس وقال : « تالله لقد أثرت في فؤادى مقاتلك أيها الضيف الكريم ، وأشجاني ما لقيت من أهوال ! ولكنك كما يبدو لي لم تكن جاداً فيما رويت من أنباء أوديسيوس فلم أيها الأخ وعليك من سيما النبيل وتحايل الفضل ما عليك ، تلفق مثل هذه الترهات المضحكات ؟ أما والله إنه إن يكن قد نجا من الموت في ساحة طروادة بما ألب عليه

من سخط الآلهة أجمعين ، فأكبر ظني أنه قد غدا جزر السباع وكل نسر
 قشع .. والاسفاه عليه ! ألا ليتته قتل في سبيل بلاده في حرب عوان
 يحمي في وغاها بيضة الوطن ! إذن لبكاه جميع الإغريق ، ولا جمعت
 هيلاس كلها تتنافس في صنع كبينات قبره ، وتخليد ذكره ، ولأورث
 ولده المجد والخلود ! ها أنذا يا صاح ثاو في هذا المكان ، لاصق بذلك
 البيت العتيق ، يفد على في كل آنة غرباء مثلك ، يروون لي القصص ،
 ويلفقون الأحاديث عن مولاي ، فبعضهم يبكيه ويتحسر عليه ،
 وبعضهم يوشى الأكاذيب ليغنى بعض الرغد^(١) ، وينال بعض العطاء ،
 حين أقدمه للملكة الحزينة الكاسفة ، بنلوب ! ولعمري ما انطلت على
 يوماً أحاديثهم ، ولا خدعت مرة بماروقوا وزوقوا ! ! أفتحسبني أصدق
 ما زخرفت أنت الآخر عن أوبة مولاي مثقلاً بأحمال الذهب من كريت ،
 واهماً أنني بهذا أبالغ في إكرامك ، وأحرص على التلطف بك ؟ لم
 تصنع هذا أيها الرفيق بعد أن ترفقت بك الآلهة ، وهدتك إلى شاطئنا ؟
 أما والله إنني إنما أكرمتك حباً لجوف ورهبة من بطشه ولما جاش في
 صدرى من الشفقة عليك والرتاء لك ، والتألم من أجلك . « وقال
 أودسيوس يحبيه : « لشد ما أوتيت قلباً أفعمته الوسوس ، ونفساً
 ساورها الشكوك أيها الشيخ ! هبها أنباء ملفقة ، فما يميني التي أقسمتها لك
 إذن ؟ تعال ! هلم . نتقاسم يميناً تكون آلهة الأولمب عليها شهداء ، إنه إن
 آب مولاك إلى بيتك هذا في أقرب ما تظن من الزمان . فيكون لي عليك
 صدار ودثار أصلح بهما شأنى حين أعود أدراجى إلى دلشيوم . . .
 فإن لم يؤب كما عاهدتك فتجتمع أنت ورجالك وعمالك وتمذفروا بي

(١) العطاء .

من رأس قلة عالية سامقة يخشى أحقر الآفاقيين أن يترعب عليها، وأجابه راعي الخنازير : جميل والله أيها الغريب اللاجئ ! تكون ضيفي ، وتؤاكلني وأؤاكلك على مائدتي . وتطمئن إلي ، وتأتمني ، ثم أقذف بك من حالي ؟ جميل والله هذا ! وتضيع صلواتي ونسكي لدى جُوف العلي صه ! هلم هلم ، العشاء يا صاح ! لقد آن وقت العشاء ... البدار قبل أن يدهمنا عمالنا فيزحموا المائدة ولا تجد لك مكاناً بينهم ، .

وهكذا تشقق الحديث بين الرجائين ، ثم وصلت رجال الخنازير وأهرعت إلى حظائرهما حيث ارتفع قُبابهما^(١) وعلت ضوضاؤها ... وهتف الراعي بأحد غلمانه فأمره أن يحضر واحداً من أئمنها لعشاء الضيف ولعشاء الرعاة ... « ... أفما نستحق واحداً منها مما تلتهم بطون غيرنا الذين ينعمون بشار كدنا ونصبنا ؟ » .

وجيء بخنزير جسد ، وأجيجت النيران واتقد الجمر ، وصلى يومايوس للآلهة ودعا لمولاه بالخير ! وتمنى له العود أحمد العود ، ثم أهوى بشاطوره على عنق الحيوان نحر يتلبط^(٢) في دمه ، وسلخوه بعد ذلك . وهم به يومايوس فقطعه ، ووضع إرب اللحم على صبغ الشحم ، وثر من الدقيق على كل ذلك ، ووضع الجميع في الجمر ، وكلما نضج شيء وضعه الغلمان على المائدة ، حتى إذا فرغوا تولى الراعي العجوز توزيع الأنصبة فجعل لاسن مايا^(٣) سبعة أسهم ، ولعرائس الماء سهماً واحداً ، وجعل لكل من عماله نصيبه بعد أن أتحف أوديسيوس بأجزل الأنصبة جميعاً ، ثم كان يمدده بعد ذلك بإمدادات جمّة ١١ مما أطلق لسانه له بالشكر

(١) القبايع بالضم صوت الخنازير . (٢) يتلبط . (٣) هرمنز .

وعليه بالثناء... ورد عليه الراعي في أدب وافر: «إن الله هو مانح كل شيء يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويعطي ويسلب، له الملك، لا شريك له». ثم أدوا صلاتهم الخمرية فأهرقوا المدامة للآلهة، وكذلك صنع أوديسيوس، وهمّ ميسولوس مولى يومايوس وخادمه الذي اشتراه بماله - فوزع الخبز، ولبث يخدم ويسقى، ويحى ويروح، حتى إذا فرغوا نظف المائدة وأعاد كل شيء إلى مكانه، وانصرف القوم إلى مضاجعهم ليناموا ليلة ليلاء ممطرة شديدة القر، عظيمة البرد، ونام أوديسيوس قريباً من مضيفه، ولم يكن عليه من الغطاء ما يقيه هول القرس^(١) فلفق هذا الحديث للراعي الشيخ ولمن نام معه من عماله: «لله ما تصنع خمركم بالألباب يا قوم! لقد أوشكت أهدى وأنتفض وأملأ شديك بالضحك... ولولا هذا القر لقمتم فرقصت، ولكنني محدثكم حديثاً من أحاديث الشباب فيه هذيان وفيه ثروة، وفيه من حميا سلافكم ما فيه. ألا ما أحلى أيام الشباب وما أروعها لورجعت!! إن لها لصدى في نفسي يتردد، وإنى ما عشت لن أنسى تلك الليلة القارسة الشاتية التي قضيتها في صدر الشباب وريعان الصبي مع صديق أوديسيوس ومنلوس في كين تحت أسوار طروادة، في مستنقع آسن ذى قصب، نرقب من عدونا فرصة تظفرنا به وتنصرنا عليه، مقنعين في الحديد والزرد^(٢)، صابرين لمسا يصفعنا به بوريس^(٣) من ريح عاتية وبرد، ويسفعنا به من قر وبرد، حتى انعقد الصقيع على دروعنا، وكدت أنا

(١) القرس البرد الشديد جداً.

(٢) لابسين دروع الحديد.

(٣) رب ريح الشمال أو الصبا.

اجهد ويجمد الدم في عروقي ، لأنني وأسفاه استهنت أول الأمر بما أذرت به الحال من هذا المآل ، فخرجت في عدتي وسلاحي ، ولم ألبس معطفي ولم ألتفع ريطتي^(١) ، بينما قد احترز رفاقي فتدثروا بكل ثقل... وخفت ألا أصبر لهذا البرد فتكون القاضية ، فهتفت بأخي أوديسيوس : « أدركني يا ابن ليرتس النبيل فقد أشفيت على الهلاك من ذلك الزمهرير ! أدركني بأربابك فإنني قد استخففت بالفصل الذي نحن فيه فلم أحضر معي معطفاً ويكاد يقتلني البرد ويهرؤني الصقيع » . وأسكتني أوديسيوس خشية أن يسمعنا أحد فلا نقلت من الموت ، وقال لرفاقه : « أيها الإخوان ! رأيت رؤيا وبودي لو يذهب أحد إلى أجائمنون فيطلب لنا مَدَدًا فلقد بعدنا عن الأساطيل ، ولسنا بخير لما ترون من قلتنا ، وانبري لها أندريمون خلع معطفه وأطلق ساقيه للريح ... وأشار أوديسيوس الخبيث إلى ، فلبست المعطف واستدفأت به ، وحمدت الآلهة « أفليس فيكم أيها الأجاويد رجل رشيد ، فينزل لي عن معطفه أتق به هذا البرد الشديد وأنا في مثل سنى وأنتم في ميعة شبابكم ؟ ألا تفعلون ! لتكن لكم هذه اليد على تفضلا أو تأدباً » وقال يومايوس بحميه : « لا عليك يا ضيفنا العزيز ... إياك لن تشكو برداً ولا تقصيراً عندنا... وليس لدى كل منا إلا دثاره وصداره ومعطفه ، وليس لدينا منها كثير نباهي به . واسوف يعود تليماك بن سيدنا ومولا نافي خلع عليك من الملابس ما يسرك ويهيجك ؟ ولكن رويداً فسأ كفئك عادية القر برغم هذا ... وبرغم ما غزت في

(١) الریطة تشبه الكوفية .

حديثك ولمزت ١١ . ثم نهض فجمع شيئاً كثيراً من فراء الغنم وجلد الماعز فجعله ركماً بالقرب من المدفأ ، ثم جعل عليها ظهارة^(١) من الصوف ، فصلحت بذلك أن تكون لأوديسيوس وسادة وثيرة ليس بها من بأس ، نام فيها فاستراح ، والتحف بفراء آخر ، وبات ليلته والابتهاج يغمر نفسه لما رأى من حرص راعيه على ذكره ، وحنينه للقياء وعنايته بقطعائه . أما الراعي العجوز الشيخ ، فكأنما أثرت فيه مقالة أوديسيوس فهب فألقى عليه سلاحه ، وأضفى على كاهله دروعه ، بعد أن خلع ، وأتزر بجلد عنز ، ثم أجلس بازيه الباشق على كتفه الضعيف ، وحمل حربته التي يذود بها الناس والسباع عن رعاله ، وانطلق في العراء ، حيث جلس على صخرة مشرفة على السهل ، وذاك ليحرس القطيع النائم ... غير عابئ بقرس الريح ولا وحشة الليلة الليلاء ...

(١) ظهارة الفرائش ونمطه ما يفرش عليه كالملاء .

عودة تليماك

ثم رُفِتْ مِينرًا رَفْتين أو نَحْوهما ، فَكَانَتْ فِي وَادِي لَيْسِدِيمُون
الْخَصِيبِ حَيْثُ حَلَّ تَلِيمَاكُ ضَيْفًا كَرِيمًا عَلَى الْمَلِكِ مَنُوسَ ، وَحَيْثُ
وَجَدَتْهُ يَتَقَلَّبُ عَلَى فِرَاشِ السَّهْدِ وَالْأَرْقِ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغْمُضَ عَيْنَيْهِ
مِنْ هَوْلٍ مَا يَفْكَرُ فِي أَبِيهِ . . . بَيْنَا نَامَ مِنَ الْمَلِكِ نَسْطُورَ مَلَأَ عَيْنَيْهِ
نَوْمًا هَادئًا عَمِيقًا عَلَى سَرِيرٍ مُقَابِلَ لِسِيرِ الْفَتَى الْمَحْزُونِ .

وَوَقَفَتْ الرِّبَّةُ عِنْدَ رَأْسِ تَلِيمَاكٍ وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ لَهُ : دِلَامُ تَظَلُّ
هِنَا فِي مَهْمَا جَرَكُ بِأَقْصَى الْأَرْضِ نَائِيًا عَنْ وَطَنِكَ يَا تَلِيمَاخُوسُ ؟ أَوْ هَكَذَا
رَضِيتَ أَنْ يَأْكُلَ الْعِشَاقُ الْفَسَاقُ تَرَائِكَ وَيَذْهَبُوا بِنِعْمَاءِ السَّمَاءِ عَلَيْكَ ،
ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَتُوبَ إِلَيْهِمْ مِنْ تَطَوُّافِكَ بِالْآفَاقِ بِقَبِيضَةٍ مِنْ هَوَاءٍ ، وَخِيبةٍ
مِنْ رَجَاءٍ أَهْلُمْ هَلُم ! سَلِ الْمَلِكُ أَنْ يَأْذَنَ لَكَ فِي السَّفَرِ مِنْ فُورِكَ فَقَدْ أَلَحَّ
جَدُّكَ وَأَخْوَالُكَ عَلَى أَمْكٍ فِي أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنَ الْأَمِيرِ يُونِيمِ ، لِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ
مِنْ مَهْرٍ ضَخْمٍ ، وَتَقَدِّمَاتٍ وَافرةٍ ، أَضْعَافَ مَا وَعَدَ الْآخَرُونَ ... هَذَا
فَضْلًا عَمَّا بَوَشَّكَ أَنْ يَسْلُبَ مِنَ الْقِسْطِ الْعَزِيزَةِ عَلَيْكَ مِنْ بَيْتِكَ ، الَّتِي
تَنْقُصُ مِنْ هُنَا لِنَزِيدَ فِيمَا هُنَاكَ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَبُّ مِنْ هَذَا إِلَى فُؤَادِ الْمَرْأَةِ ،
وَهِيَ سَرْعَانِ مَا تَنْسَى أَطْفَالَهَا مِنْ زَوْجِ شَبَابِهَا وَرَفِيقَ صَبَابِهَا مِنْ أَجْلِ
زَوْجِهَا الثَّانِي الَّذِي تَوَدُّ لَوْ تَهَبَهُ كُلَّ شَيْءٍ . فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ إِذْنِ ، وَعَدَّ
أَدْرَاجَكَ إِلَى بِلَادِكَ لِتَحْفَظَ تَرَاثَ أَبِيكَ يَنْفَعُكَ حِينَ تَكُونُ لَكَ زَوْجَةٌ

صالحة وذرار أجاب ببركة السماء ورعاية الآلهة ... ثم خذ حذرك يا تليماك ، فلقد اختبأ زعيم العشاق في ثلة من رجاله بين ساموس وإيثاكا يتربصون بك ويتصدونك لينتالوك قبل أن تصل إلى شاطئ الوطن ... وإن فألمهم لحائب ، ولن يفعلوه حتى يهال تراب الموت عليهم جميعاً ... ألا فارحل يابني في ظلام الليل ، واجنسب سفينتك أن تسلك سبيل ساموس ، وابتعد ما استطعت عن الجزائر القريبة منها ، وسيرعك بعض الآلهة ، ويسخر لك ريحاً رخاءً تسارع بك إلى بلادى . فإذا بلغت أول الشاطئ الإيثاكي فانزل إلى البر ، ولتسلك الفلك سبيلها من دونك ، ولتذهب أنت إلى يومايوس راعي قطعانك الذى يحبك فأرسله إلى أمك كي تقرر عينها بأوبتك . « وما كادت تفرغ حتى زفت ^(١) إلى الأولمب . وهب تليماك فأيقظ رفيقه من نومه قائلاً : « هلم بيزاستروس ! هلم فأسرج الخيل ولنرحل من فورنا ! » وقال له ابن نسطور يجيبه : « هلم إلى أين يا صاحبي ؟ كيف نخبط في هذا الليل الدامس ؟ ألا نصبر حتى تشرق ذكاء ، وحتى يلقاك الملك فيخلع عليك ويحسن وداعك ، لتظل ذكر اه الحسنة ماثلة إلى الأبد في روعك ؟ »

وانبلج الصبح ، فنهض منسـلوس الماك من نومه العميق ، ويم شطر الغرفة التى نام فيها تليماك ورفيقه . وما كاد تليماك يلبس في غبشة الفجر صورة الملك حتى هب مسرعاً ، وأضفى عليه طيلسانه الفاخر ، وأترز فوقه بمزراح آخر ، ثم دلف نحو الباب فلقى الملك ثمة وقال له : « بورك الملك

(١) زف الطائر أسرع في طيرانه .

وتعالى جده ! تالله لقد آن لى أن أعود إلى إيشاكا ، وبودى لو أذن
 الملك بذلك ، فقال الملك : « إنا لا نستطيع أن نحجزك إذا كانت
 رغبتك أن تشد رحلك يا تليماخوس ؛ وإنه ليس أشق علينا أن
 يقيم ضيف لدينا برغمه ، أو أن نعشجه على الرحيل من عندنا . . .
 بيد أنه يحسن أن تنتظر قليلا حتى نهيء لك أنفر الهدايا وأعز اللثى
 وحتى نعدّها لك فى عربتك ، وسأمر ندامى فيعدون لنا فطوراً
 يليق بوداع ضيف كريم عزيز مثلك ، لا بد له من أكلة حافلة تصبر
 لسفر طويل يزمره . فلو أن سفرك هذا كان خلال هيلاس ، وكنت
 من أجله ستجتاز أرجوس شرقاً لغرب ، إذن لسافرت معك ،
 ولجرت بك مدائن شتى ، ولأهرع إلينا عمال الأقاليم يقدمون إلينا
 الهدايا والتحف ، من صحائف الذهب وركائز الإبريز وكل كأس
 ثمينة ، ومن كل دابة مطهّمة وجواد كريم ، وأجاب تليماك فى أسلوب
 الفطين الخنر : « مولاي أتريدس ، منسلوس العظيم ! تالله إنه لآثر
 إلى أن أرحل لساعتى ، فلقد تركت ورائى بيتاً لم أدعه فى صيانة
 أحد ، وحطاماً لست آمن عليه أحداً . . . وأخشى يامولاي أن أقضى فى
 رحلتى هذه وراء أبى ، فلا أكون قد أ بقيت على نفسى ، ولا راعيت رائه
 الذى تركه لى » وأمر الملك خدمه فهبأوا الخوان ، وزودوه بما بقى من
 عشاء أمس ، بعد أن أضرم رئيسهم إيتون ناراً أسخن عليها ما ينبغى أن
 يكون منها حاراً . . . وتوجه الملك إلى غرفته ، فلقى فيها زوجه وولده ؛
 فتناول كأساً من الذهب الخالص ، ودفع لولده بدلها من الفضة ؛ أما

الملكة فنهضت إلى خزانها فأحضرت ساجاً^(١) عملت فيه يدها الصناعر
 فزخرفته وزركشته حتى بدا كسماء التعتت فيها نجوم ... وعاد ثلاثهم
 إلى حيث ينتظرهم تليماك وكلمه الملك فقال: «ذاك تذكارى إليك يا ابن
 أوديسيوس بودى لو تقبلته ، وهو كأس عجيبة من صنع فلسكان أهداها
 إلى البطل فيديم ملك سيدون^(٢) حين حملت عليه ضيفاً ؛ هذا وأنا أدعو
 لك أن يكذلك جوف فى رحلتك بعين الرعاية ، وأن يكتب لك السلامة
 والتوفيق ، ثم قدم إليه الكأس العظيمة وكذلك فعل ابنه : أما هيلين
 فقدمت إليه الساج ، وتيسمت عن فم أنضر من أقحوانة ، وقالت له : «وأنا
 أيضاً أدعو لك يا بنى ، وأقدم إليك سدوساً^(٣) من أنفوس الديباج حبذا
 لو جعلته قنينة تذخره لك أملك حتى تقدمه بدورك لعروسك ليستة
 زفافها إليك ، وكان لكلماتها فى نفسه نشوة ، فأخذ الطيلسان وناول ابن
 نسطور الذى عنى به ووضع بمكانه من العربىة . ثم يمموا المائدة
 الكبرى ، وصبت الماء على أيديهم جارية ذات حسن وأناقة
 وظرف ، وأخذوا بعد ذلك فى فطورهم ، بينما وقف ابن الملك يدهق
 الكؤوس ويشرب الخمر ، حتى إذا فرغوا نهض تليماك ورقيقته فسلبا
 وودعا ، وركبا العربىة الفخمة المثقلة بأثمن الهدايا ، وتناول الملك
 كأساً من الخمر وسار حتى دنا من الخيل : فصبها صلاة للآلهة
 من أجل الراحلين وقال : «لكما الصحة والصفاء أيها الشبان
 اليافعان . تحياتى إلى نسطور أخى الذى كان يرعانى كأحد أبنائه تحت
 أسوار طروادة ، فأجابه تليماك : «لاغرو أيها الملك ، فسقص عليه آية

(١) الساج الطيلسان . (٢) سيدون هى صيدا . (٣) هو الساج أيضاً .

كرمك وعظيم سخائك . . . وأرجو لو وصلت إلى إيثاكا فلقيت أبي
أوديسيوس ثمة ، إذن لقصصت عليه هو الآخر ما غمرتنا به من حفاوة
وكرم وعطف ! ، وما كاد ينتهي من كاسته حتى بدا عن يمينه نسر عظيم
يحمل في مخالبه إوزة كبيرة بيضاء ، وقد حلق في الهواء ، وجرى خلفه
الخدم والحشم من أهل المدينة ، يمد أن النسر فاتهم جميعاً ... وقد زعج
الملأ الواقف لتوديع تليماك ، وبدا الهلع في وجه يزاstratos ، فسأل
الملك فقال : « ليتفضل الملك فيحدثنا عن هذه العلامة إذا كانت من
أجلنا أو من أجل مولانا ، ولكن الملك لم يجر جواباً لفرط دهشه .
فلما لحظت حيرته هيلين زوجته ، تسكمت فقالت : « أيها الملأ اسمعوا
وعوا ، فإني أحدثكم كما علمتني الآلهة ... تالله إن هذه لآية ، فكم أغلب
ذاك النسر أولئك الناس ، وذهب بتلك الإوزة البيضاء ، فهي له ،
فكذلك يعود أوديسيوس من تجواله وطويل ترحاله إلى إيثاكا ،
فيبسط بأعدائه الذين استباحوا عرضه وعشقوا زوجه ، ويخلو له وجهه
بنلوب ، وانتفض تليماك من شدة ما أثرت فيه كلمات الملكة فقال :
« ألا حبذا أن يتم هذا ! اللهم يا جوف المتعال حقق النبوءة أعبديك ،
واكتب لأني السلامة أخيت لك ، واكتب لي أن أعود إلى بلادى
فألقاه ثمة تسكن لك صلاة دائمة وذكر متصل يا إله السموات ! ، ثم
حيّا الملك ، وألهب الجياد فانطلقت تهب الرحب . . .

ولم يزل على سفر طوال يومهما ، حتى بلغا قصر ديوكليس مع
مغيب الشمس ، فضيّفهما وباتا ليلتهما عنده ؛ وما كادت أورورا تنضّر

جبين الشرق بالورد حتى هبا مسرعين ، وودعا مضيفهما الكريم ،
وواصلوا رحلتها . . . وكان ابن نسطور قد أخذ بأعنة الخيل فجعلها
تنساب حتى لسكانها تسابق الريح . . . ولما بلغا أبواب بيلوس قال تليماك
لصاحبه وهو يحدثه : « أنت عذيرى يا أعز الأصدقاء إذا سألتك أن
تصل بى إلى السفينة من غير أن تتوجه إلى بيتكم للقاء أبيك ، فقد يكبر
على أن أرفض نُزُلَه ، وأستأنى بذلك عنده ، فى وقت أنا فى أشد
الحاجة إلى العودة إلى الوطن . . . على أننى سأحفظ لك فى أعماقى ذكرى
خالدة لا تمحى ، زادتها هذه الرحلة الحزينة جمالا ، وعقد أواصرها
ما بين أبويننا من الود ، وما بيننا من اتفاق السن ، وصفو المودة وجميل
الإخاء ، وتردد ابن نسطور أول الأمر ، بيد أنه لم يستطع إلا أن
يلبى رجيسة تليماك ، فثنى أعنة الخيل إلى الشاطئ حيث كانت تنتظره
الفلك ، فنقل إليها متاعه ، ثم ودعه صديقه وعقرت القرابين باسم
مينرفا ، وصلى لها الجميع وسبحوا سبحا طويلا . . . وإنهم لسكذلك ،
إذا شاب طويل مفتول العضل يتقدم إلى تليماك ، فيخبره أنه قاتل
آبق^(١) ، وأنه يلوذ به ، وأن اسمه تيوكليمين ، وأنه يرجوه فى أن يسافر
معه . فبش له وبش ، وأخذ سلاحه فالتقاء فى السفينة ، وأذن له فى
الركوب ، وجلس الرجل مع تليماك عند مؤخر السفينة ، فى حين كان
الملاحون يهيئون القلاع ، وينشرون الشراع ، ثم أقلعت الفلك ،
وأرسلت مينرفا بين يديها سحسجاً تدفعها فى رفق ، وتطوى تحتها الماء
فى حدب . وكانت الشمس تتوارى بالحجاب ، وكان الليل يلقي سدوله

(١) ضرب صفحا عن قصة هذا الرجل لبعدها عن الموضوع .

فوق الكون . . وما هي إلا عشية حتى مرت السفينة بفيريا ، وبمدن غيرها ، وجوف في كل ذلك يحرسها ويرعاها .

هذا ما كان من أمر تليماخوس الفتى . . . أما ما كان من أمر أوديسيوس وراعيه ، فقد كانا يلتهمان في هذا الوقت طعامهما ، وما كادا يفرغان من ذلك حتى أحب أوديسيوس أن يرى نفسه إذا كان الراعي قد ضاق به ذرعا فينطلق من لدنه ، أو هو كريم ذو نخوة ونخيرة^(١) فيبقى عنده ، فنهض يقول : « أيها الراعي يومايوس . . . وأتم أيها الأصدقاء الرعاة . . . اسمعوا وعوا . . . تالله إنني لأخشى أن أرهقكم بضياقتي أو أثقل عليكم بلبثي عندكم طويلا ، فرجائي إذا انفلق الإصباح أن يقودني أحداكم إلى المدينة لأستجدي وأتكشف ، فلن أعدم فيهم من يتفضل على بيلغة^(٢) أو كسرة أو جرة ماء . . . ولسوف أيمم شطن بنلوب وعسى أن أستطيع لقاءها لأبلغها أنباء أوديسيوس ، فإذا لم أستطع فلن أعدم عملا في خدمة العشاق ، لأنني والله المحمود ولي من أولياء هرmez رسول السماء ونصير الضعفاء ، ولن أضيق بتكسير الخشب ، أو إضرار الحطب ، أو حمل الكاس والطاس ، أو القيام على الشواء . . . أو ما إلى هذا وذاك من عمل الفقراء البائسين » واهتز يومايوس إشفافاً وقال : « أيها الرجل ماذا تقول ؟ أتجازف بنفسك فتلقى بها إلى التهلكة وسط هؤلاء الناس ؟ من أنت أيها الفقير حتى تحسبك تقدم الخمر لهم أو تخدمهم ولهم خدم شباب غرائيق ، وندامى كالسكواكب نضرة وجمالا . . .

(٢) البيلة اللقمة من الطعام .

(١) مروءة

وَحَسَمَ يَلْبَسُونَ أَحْسَنَ الْوَشْيِ وَأَخْرَجَ الْحَرِيرَ وَالْدِيَابِجَ . . . لتبقى معنا
أيها الشيخ فلن نضيق بك ، وحين يعود سيدي تليماك فإنه يكسوك
ويسبق عليك ، ويبحثك مكرماً معززاً أنى شئت . . وشاع البشر في
أعطاف أوديسيوس فقال : « شكراً لك يا يومايوس ألف شكر ،
وجزاك الله عنى أجزل الخير ، بما كلفيتني شر السؤال وذل الاستجداء
وليس شراً منهما على نفس أبيّة قاست الأهوال ولا تزال تقاسى ...
بيد أن لي مسألة عندك بودي لو جلوتها لي : ألا يزال والد أوديسيوس
حيّاً يرزق ؟ وهل لا تزال أمه بخير ؟ أم أنهما اليوم من أهل الدار
الآخرة ؟ لقد غادرهما أوديسيوس يوشكان أن يطرقا باب هيدز ،
فهل عندك من أخبارهما شيء ؟ » . قال الراعى : « وما لي لا أصدق
أيها الشيخ ؟ إن ليرتس — أبا مولاي — لا يزال على قيد الحياة ...
لكنها حياة شاقة أئنة صلت ظهره ، وأنفدت صبره ، وهو ما يفتأ
يضرع للآلهة أن تخلصه منها بالموت . . . إنه قد فقد أحسن آماله حين
فقد حامى شببته الذائد عن شيخوخته ، ولده أوديسيوس ، وقد عجل
له الشقاء موته ، وحياته هو من بعده ، فهو ما بيني وبينك
يُساوئ نفسه حسرات عليه . . . أما أمه فقد قضت من أسى وحزن
وطول بكاء ، قضاء ما قضى مثله صديق ولا عدو ! إنني حزين عليها
يا صاح ، بل أنا أفقدها كأعز من أمي لأنها نشأتني صغيراً ورعتني
كبيراً ، وكانت تحبني كهجة ابنتها ستيمني التي تزوجت أحسن زيجة في
ساموس من كفاء مهرها أحسن مهر وأغلاه . . . أبداً لا أنسى أنهم
ألبسوني أحسن اللباس ، وأعطوني نعلين جديدتين ، فرحاً بزواجهما .

ثم أرسلوني إلى الحقل ، ولكنهم لم ينقصوا من محبتي ... لقد عاشت مولاتي بعد أوديسيوس معيشة شقية كلها آلام ، وكنت أراسيها وأعزيها ، ولكنها ما انتفعت قط بعزاء ، ولا استروحت إلى سلوة ، حتى ماتت ، وهأنذا أبكيها كلها ذكرتها ، وقلّ أن أنساها ، على أني أحمد السماء على ما أولتني من خير ، وأسبغت على من نعم هي حسبي وحسب الضيف الذي يعيشاني ... على أني أعذر مولاتي وسيدتي نلوب إذا لم أر منها عطفاً على ، لأنها في شغل بحالها وسط هؤلاء الأوغاد المعاميد ... وهي بالرغم من ذلك تولى خدمها المقربين منها نصائح غالية تنفعنا جميعاً ... ثم هي لا تنسى أن تنفخ الكشپرين منهم ما يفرحون به من آلاء وأعطيات ، غير ما يأكلون وما يشربون . . . وكأنما أراد أوديسيوس أن يتهكم عليه ويستخر به فسأله عن بلده ووالديه ، وعن القوم الذين أخذوه عنوة ، وفي أي سفينة جاءوا به ، وبكم باعوه لأهل أوديسيوس ، فقال الرجل : « أيها الصديق أعرفني أذنيك ، وارشف خمرك ، أقص عليك قصي ، فالليل طويل ، وفي جُنْحُه يحلو السمر ، وليس أشهى من أن يرويَ ذو أشجان ، وأنتم أيها الإخوان ، من كان منكم في حاجة إلى النزم ليصحو مبكرًا فليذهب ولينعم بالكرى ... ثم أحسبك سمعت أو عرفت جزيرة سيريا التي عند أورتيجيا ... إنها جزيرة صغيرة ، لكنّها غنية بأغنامها وماشيتها وقحها وأعناها ، كما اشتهرت بهوائها العليل ، ومناخها الجميل ، وصفوها وطيب رباها ^(١) ... لذلك لا تعرف أبدان أصحابها الأوصاب ^(٢) ، بل يُعَسَّمرون حتى يأتهم

أبوللو^(١) فيصمهم بسهامه ، وتعجل أرواحهم إلى هيدز ، ويقسم
أرض الجزيرة أهل مدينتين عظيمتين، كانتا تخضعان لسيطرة أبي الزعيم
العظيم ستزيوس أورميند . . . وحدث أن أرسط في شاطئنا سفينة
فينيقية محملة بالطشرف والتشحف وبلعب الأطفال ، من صناعة الفينيقيين ؛
وحدث أن كانت في بيت أبي جارية قسيمة وسيمة ذات حسن وذات
دلال ، كانت تقف على سيف البحر لبعض شئون المنزل ، فرآها بعض
ملاحى المركب واستطاع أن يخدعها بكلام معسول ذى طنين وذى
رينين ؛ ثم سألها من هى . ومن أى البلاد أقبلت إلى هذه الجزيرة وكان
الحديث يمزج ألفاظه بنظرات الأبالسة ، وغمرات الشياطين ، وابتسامات
الغزل ، فانقادت له ، ضعيفة كبنات جنسها إذا نصبت لهن شرار الهوى ،
وجذبتهم أحابيل الغرام ، وقد أخبرته الغادة أنها من سيدون المشهورة
بصناعة الصلب والنحاس ، وأن أباه أريباس الفلاح ، وأن بعض
القرصان قد اختطفها حين كانت عائدة أدراجها من حقله ، وباعها
إصاحب تلك الجزيرة بأجنس الأثمان وقد أغراها الملاح بالعودة معه
إلى بلدها على فلكه ، وبالفرار من حياة الرق والعبودية للقاء الأهل
والأحباب والأبوين المثرين اللذين كانا لا يزالان حين يرزقان . . .
فاستحلفته المسكينة إذا كان جاداً فيما قال ، خلف لها ، واستقسمته
إذا كان أميناً غير ذى غرض أو لبانة ، فأقسم لها ؛ ثم تعاهدا على
ذلك وقالت له : « والآن فلا يذكر أحد من أمرى معكم شيئاً لأى
من أهل المدينة ، حتى لا يفشو السر ويعلم به صاحبي ، فيكون فى ذلك

(١) تضيف بعض النسخ ديانا — وهذه أول مرة نرى فيها أبولو يقوم بوظيفة عزرائيل
فى الأدب اليونانى ، لأنها وظيفة هرمز (مركورى) خاصة (د — خ)

وبالى ووبالكم وهلاكى وهلاككم . . بل امضوا فى بيع بضاعتكم وشراء ما يلزمكم ، ثم إذا عزمت أن تفعلوا فابعثوا أحداكم إلى بقصر صاحب الجزيرة ، فإني مرضع ابنه ، وهو الآن يحبو ، بل يدرج ، وإني محضرتة معى فإنه سينفعكم ، بل تستطيعون بيعه فى أحد البلاد ببعض المال ، وسأحضر معه كل ما تستطيع يدى أن تحمل من آنية وأكواب من خالص الذهب وغالى الفضة ، مما يخف حمله ويغلو ثمنه ، وعادت البائسة إلى قصر أبى . . . ولبت الملاحون عامهم كله فى مرفئنا يبيعون ويشترون حتى إذا حال الحول أو كاد ، حضر واحد منهم إلى بيتنا يبيع بنية^(١) من ذهب وكهرمان ، فالتف حوله وصيفات القصر ثم حضرت أمى فاشتريت بضاعة الرجل الخبيث ، الذى استطاع أن يومى إيماءته المتفق عليها إلى مرضعى فلما انصرف من فى القصر من أضياف ، وذهب الخدم إلى شغلين قادتنى مرضعى التعسة من يدى فمرت بى فى غرفة الزائرين ، حيث كانت أكواب الشراب لا تزال على المائدة فدست منها ثلاثة فى ثيابها ثم ذهبت بى - وأنا طفل لا أدرك - إلى المرفأ ، حيث ركبت معها فى سفينة الفينيقيين ، فأقلعوا ساعة الغروب ... ودفعتنا ريح عاصف طيلة ستة أيام ، وفى صبيحة اليوم السابع ، أرسلت ديانا سهامها مسمومة إلى صدر المرأة - مرضعى - الآبقة - فماتت لساعتها - ووضعوا جثمانها فى سآب^(٢) ثم قذفوا بها فى اليم ، طعمة غير سائغة للأسماء ،

(١) بوزن سفينة ولا تشدد ، هى (الباقة أو السكولة) .

(٢) السآب والسآب وعاء كبير للزيت أو الخل وهو الزق ولم نجد مرادفا لكلمة (برميل)

المعروفة فاستعملناه (دخ) .

ورحت أنا ، لفرط حبي لها ، أبكيها وأُغْوِل من أجلها ... ثم دفعتهم
الريح والموج إلى شاطئ إيثاكا ، حيث ابتاعني صاحبها العظيم ليرتيس ،
وبقيت فيها إلى اليوم ، وألم أوديسيوس لما قص الراعي وتوجع ،
وواساه بكلمات طيبات . . . « فلقد وصلت في رعاية جوف إلى سيد
رحيم ورجل بر ، كغفل لك الهناءة والحياء الهادئة ... أما أنا ، فلا أزال
موكلاً بفضاء الأرض أذرعه ، وبلد ألبسه وآخر أقلعه » ... ولما ينأما
طويلاً ، فقد قطع حديثهما جبل الليل . . . أما ما كان من أمر تليماك
ورجاله ، فقد وصل ملاحوه سالمين إلى الشاطئ الإيثاكي ، وأرسوا
ثمة ، وربطوا حبالهم في أوتاد المرفأ ، ثم اجتمعوا إلى فطورهم فأكلوا
وشربوا ... فلما فرغوا أمرهم تليماك أن يذهبوا هم إلى المدينة ، « ... أما
أنا ، فذاهب لبعض شأن في المراعى القريبة وسأعود قبيل الغروب ؛
وفي الغد ، سأستقيم سلافة الأوبة التي تذهب عنكم وعشاء هذا السفر »
ونفض تيوكلمين (الشباب الآبق) فاستأذن في الذهاب بالبشرى إلى
والدة تليماك ، ولكن تليماك قال : « كلا يا تيوكلمين ، لا أريد أن تعلم
أى بقدمى اليوم ، فابق مع رجالى هؤلاء حتى لا تقع أبصار الخُطَّاب
المناكيد عليك ؛ وإن شئت فاذهب إلى أحدهم ، يوريماخوس ، فهو
أعظمهم قدراً وأنهم ذكراً ، وهو الذى يحاول جاهداً الزواج من
والدتي ، والجلوس على عرش أبى ، فاربط حبالك بحباله ... أواد
يا أرباب السماء ! حنانيك يا جوف ! بعداً لهذا الزواج ، وبعداً لمن
يحملون به ! ، وما كاد يفرغ من حديثه حتى بدا إلى يمينه بازى باشق —
هو من غير ريب رسول أبولو الأمين — وقد أمسك في مخالبه حمامة

مبيضاء ، فظل يُدوّم ويرنّق حتى إذا كان بين الفلك في البحر وتلياك
 في البر نشر خوافيها^(١) في الجو ، فنزلن بالقرب من تلياك — وهنا —
 تكلم تيوكامين فقال : « تالله إنها لآية من السماء يا سيدي ، إنك ابن أعظم
 من في هذه الأرض ، وإن يبتك أعرق بيوتها ، وستظفر كما ظفر
 آباؤك ، وشكره تلياك ، وتمنى لو صدقت نبوءته . ثم أوصى به أعظم
 رجاله وأخلصهم له — كليتيوس — فاهتزت أريحية الرجل . وواعد
 أن يكون له كسيده (تلياك) حتى يثوب . . . وسلم تلياك — ومضى
 للقاء يومايوس ثم أقبلت السفينة بمن عليها إلى المدينة .

(١) الخوافي أكبر ريش في جناح الطائر والمقصود هنا الريش كله .

أوديسوس يلتقي تليماك

لقد كانت هذه أمة الفجر الساكنة الجميلة حينما هب يومايوس وضيافته من نومهما ليلبساً ثيابهما وبعداً فطورهما ، وليرسل الراعي عماله وراء قطعانه النائمة في السهل العصامت الوديع . . . وحينما أقبل تليماخوس أهرعت إليه الكلاب تلحس ثيابه وتلعق قدميه ، وتهتز من نشوة وطرب لأنها رأتها بعد طول الغياب . . . وقد لحظ أوديسيوس ذلك فقال يتحدث إلى الراعي : « يومايوس ! هذا أحد معارفك أو الأوداء إليك مقبل . . . لشد ما تملقه الكلاب التي أوشكت من قبل أن تعقرني ! إنها لا تنبح ولا تسكشر ، بل تقعى في إثره ذليلة ! ، وما كاد يفرغ من حديثه حتى كان ولده واقفاً أمامه في رحبة الدار . وما كاد يومايوس يلحظه . حتى هب من مقامه مسبوها مرتبكا ، وحتى انقضت الأكفوس التي كان يمزج فيها الخمر من يديه . . . بيد أنه ذهب إليه يقبله ثم يقبله ، ويبالغ في تقبيله ، كأبٍ مشوق لقي ولده فجأة بعد بضع سنين من مرارة البعد وألم الفراق ! ثم قال يكلمه : « أواه تليماخوس ؟ أهو أنت يا نورعيني ؟ أنت نفسك ؟ أو قد عدت ؟ تالله ما كان يحظر بخلدى أنك عائد من سفرك بعد الذي دبّروا لك ! هلم يا حبيبي ! تعال يا بني ! فلقد عادت روحى من سفر سحيق برؤيتك . . . تعال تليماخوس فما أندر ما تزورنا هنا لطول اشتغالك بالمعاميد المتناكيد ! » وقال تليماك يحنيه : « أجل

أيها الصديق ؛ غير أنني أتيت لأسألك عن أمي ! ألا تزال مخلصه لذكرى
أوديسيوس ، قائمة على عهده ، أم أنها هجرت مهاده لتقع في شرك من
شراك العناكب المكددة بها ؟ ! ، وأجابه الراعي فوصف له ما تلقاه
الأم المحزونة من الضنى والحزن . وما تذرّف من الدموع في جنح
الليل لما يرميها به الحداث . . . ثم دخل تليماك بعد أن أخذ الراعي
حربته ، فنهض أوديسيوس ليخلى لولده مقعده ، فأبى تليماك . . . لأن
المكان فسح ، ولأن يومايوس يستطيع أن يعد لنا مقعداً آخر . . .
فوالله لتجلسن أيها اللاجئ الكريم ! . . . وهياً الراعي لسيدته مقعداً
من الحشائش الغضة والحلفاء الرطبة جعل عليها مروة كبيرة بما عنده ؛
وجلس تليماك . . . وأحضر يومايوس فطوره في أطباق من أطباق أس
وشيثاً من الخبز والخمر ؛ ونشر الصحف على الخوان أمام مولاه ،
وأخذ الثلاثة يلتمهونها أكلة مريئة هانئة . . . حتى إذا فرغوا ، توجه
تليماك بالحديث إلى راعيه فقال : « بمن ضيفك يا أبتاه ؟ ومتى وصل
إلى إيثاكا وكيف ؟ وأي الملاحين حملوه إلى شاطئنا ؟ » . قال الراعي :
« والله يا بني ما أستطيع أن أخفي عنك ما قال ؛ فهو يدعي أنه من نسل
الأمائل الإجماد من أمراء كريت ، وأنه طوّف في الآفاق ، وسافر
في البلاد ورأى من المدن ما لا عين رأّت . . . وهو يقول إن فلاناً
قبرسيا قد حمله إلى شاطئنا قيل أن تحمله رجلاه إلى كوخى هذا . . .
ولكن . . . لم هذا ؟ ولم أتولى أنا الإجابة ؟ إنه أمامك وأنا أدع أمره
لك . فاصنع به ما تشاء ؛ إنه لائذ بك ، قاصد بابك ، وأحسب أن له
حاجة عندك ! » وبدا الأم في محيا الشاب فأجاب : تالله لقد آلمنى حديثك

أيها الأب يومايوس ! أنت تجعله لائذاً بي قاصداً باني ، وأنت تعرف من حالى ما تعرف ، وتعلم أننى مُمرزاً بهذه الطغمة ، مشغول بالدق التى لا أستطيع أن أدفع عنها إصر هؤلاء الانجاس المناكيد . الذين طال لبثهم حولها ، وتوقفهم بسببها ، حتى لا خشى أن تضيق بهم فتختار مرغمة أفضلهم بعلاها . أو أكثرهم عطاء وأوسعهم ثراء . . . بيد أننى أوثر أن أمتحه دثاراً وصداراً ، ونعلين ، وسيفاً جسراً ، ثم أرسله إلى أى أقاليم العالم شاء ، فى حمايتى . . . وإن أحب ، فليبق فى ضيافتك أنت ، وسأرسل إليه ما هو حسبيته من طعام وشراب خشية أن يرهقك ، أو أن تضيق به . . . أما أن يصطحبني إلى القصر الذى تعلم من أمره ما لا يعلم ، فذاك ما لا أرضاه له . . . فقد يغمره أحد بكلمة ، فيجرحه ، وأجرح أنا بسببه ، وأنت لا يخفى عليك أننى صغير لا أستطيع مهما أوتيت من الشجاعة أن أرد عادية الأوغاد ، وتولى أوديسيوس الإجابة فقال : « أوّه أيها الحبيب الطيب القلب ! لشدة ما تتمزق نياط قلبى لما سمعت من أمر هؤلاء الخطاب الأشقياء الذين يستبيحون منزل فتى كريم مثلك ولكن قل لى ، إذا أذنت أن أتتكلم فى هذا الشأن : هل عن رضى منك لصقوا به ذلك فما يريعون ^(١) ؟ أم برغمك أيها العزيز ؟ أليس لك إخوة يستندونك ويشدون أزرک فتطاردهم من بيتك ؟ أو اه لو عاد لى شبانى الآن أو اه ! وآه لو عاد الآن أوديسيوس ! تالله لو أتى فى حالك هذه لآثرت أن أمتشق سيفى فى وجوههم فإما أن أظهر بيتى منهم ، وإما أن أخرج قتيلاً بينهم فلا تقع عني على ما يصنعون ، ولا أرى إلى عيبتهم وعيبتهم بكل ما فى منزل أبى من خير

ومير^(١)، السنين الطوال ! ، فقال تليماك : ليس سرأ أيها اللاجيء
السكريم ما بيني وبين قري ، وليس منهم من يضمر لي عدوة أو يطوى
جوانحه لي على حقد ... أما الإخوة والأشقاء فليس في أسرتنا من
رزق هذه النعمة ، بل هذا دأب عائلتنا منذ القدم : ذلك أرسنسياس
لم ينجب غير ليرتيس ولم ينجب ليرتيس غير أوديسيوس ، وهذا لم
ينجب غيري ... أنا ... ، هذا المرزأ المحزون الموجه القلب ...
من أجل ذلك طمع هؤلاء الطامعون فينا وتكالبوا على بيتنا من كل
فج ، فأقبلوا من ساموس ودلشيوم وزاكتوس وأطريف إيتاكا ،
ومن الجزائر الكثيرة المنتثرة في هذا البحر ... كل يرغب في أن
تكون أمي له من دون العالمين زوجة برغمها ، فهم مقيمون لا يريمون ،
آكلين ناعمير ، يستنفدون غلة ما ترك أوديسيوس . آتين على كل مافي
بيته وخزائنه ، ويشكون أن يأتوا على أنا الآخر ! ، ثم أمر يومايوس
أن يذهب إلى القصر فيخبر أمه بعودته سالماً من بيلوس : فذكره
يومايوس بجده الضعيف الشيخ الذي امتنع عن الأكل والشراب منذ
أن رحل تليماك يسأل عن أبيه ... وذلك مما أضواه من الهم ، واستأذنه
في أن يمر عليه فيخبره بعودة مولاه حتى يطمئن هو الآخر . ولكن
تليماك أمره بأن يذهب من فوره إلى القصر فيخبر والدته ... وانطلق
يومايوس ... وكانت مينرفا تنتظر ذهابه لتبدو لأوديسيوس في صورة
حسناء ذات وقار وحسن سميت . وقد أخذت الكلاب بروعة مرآها
فتكبيكت في أحد أركان الحظيرة ، وراحت توقوف وتهر^(٢) بما شدها

(١) المير الطعام .

(٢) الوقوفة صوت الكلاب إذا خافت والهدير صوتها إذا أنكرت شيئاً .

من منظر مينرفا ، وقد لغت فعلها أوديسيوس فهب مسرعاً إلى ربة
الحكمة التي قالت له : الآن ينبغي لك أن تكشف نفسك لولدك فتقفه
على حقيقة الأمر ، ثم تذهب معه إلى المدينة وفي قبضتك الموت الزؤام
تُجَرَّعه صاباً ويحموماً^(١) للعشاق . وسأكون دائماً معك ، وسأشرف
على المعركة بنفسى ، ولمسته بعصاها السحرية فارتد إلى صورته الحقيقية ،
وعاد إلى السكوخ في حلتة الضافية التي كانت عليه من قبل ... فلما رآه
تليماك شُده وفسرق^(٢) وقال له : « أيها النازح الغريب ماذا أصابك ؟
لقد تبدلت أيما تبدل ! خبرنى أرجوك وأتوسل إليك ، أأنت إله
كريم فنعقر لك القرايين ونذبح من أجلك الأضاحى ؟ ، قال أوديسيوس :
« ليفرخ روعك يا بنى فما أنا إله ، إن أنا إلا بشر ، وإن أنا إلا أبوك
الذى ذهبت تدرع الدنيا من أجله والذى بسببه غصصت بكل هذه
الآلام ، وصبرت للؤم هؤلاء الناس ! ، ثم ضم إليه ولده وطفق يقبله
ويذرف دموعه على خديه ! بيد أن تليماك لم يصدق وراح بدوره
يقول : « أبى ؟ لن تكون مطلقاً أبى ! بل أنت إله تنزل من السماء
ليعبث بى ، وليزيدنى شقوة وأشجاناً ! أى بشر يستطيع أن يصنع
ما صنعت . وكنت منذ لحظة عجزاً محدودب الظهر مجعد الوجه غائر
العينين ، تلوح فى مزق وأسمال ، ثم تخرج هنيئة وتعود فى هذا البدن
الفيئان وذاك المظهر الفتان الذى لا يكون إلا للآلهة ؟ فقال أبوه :
« أى بنى أنا أوديسيوس ، ولن يرجع إليك أوديسيوس آخر سواى !
اطمئن فقد صنعت مينرفا ما رأيت بأبيك ، وما صنعتها أنا بنفسى ،

(١) الصاب المر واليحموم الحميم المغلى الذى يقطع الأمعاء . (٢) خاف

إنها ربة ولها القدرة على كل شيء ، ففي وسعها أن تظهر من تشاء في صور شتى ، وليس هذا على أثينا^(١) بعزير ، وأحس تليماك ما كان يشيع في كلمات أبيه من حرارة وإخلاص لا يصدران إلا عن قلب أب ، فانطلق يبادل والده عنفاً بعناق ، ودمعاً بدمع ، وقبلات بقبلات ، ثم سأله كيف عاد إلى الوطن بعد كل تلك السنين الطوال ، فقص عليه قصته باختصار ثم قال له : « ولكن حدثني أنت عن أمر أولئك الخُطَّاب الأوغاد ما عددهم ، وهل نستطيع كلانا أن نقف لهم فنظفر بهم ؟ » فأجاب تليماك : « أبتاه ! لقد سمعت الشاء على شجاعتك وسعة حيلتك وجليل حكمتك في كل ملحمة وبكل نقع ... ثناءً يلهج به فم الدنيا جميعاً ! بيد أنه ينبغي ألا نجازف هذه المجازفة التي لا نعرف ماذا وراءها ... إذ ماذا يصنع اثنتان بعشرين ومائة من خيرة صناديد إيثاكا وما حولها ؟ الرأي أن نذكر في أنصار يشدون أزرننا ويكرون عونا لنا » فقال أوديسيوس وهو يبتسم : « وما قولك يا بني في اثنين الله — جوف العلى — ثالثهما . ومينرفا نصيرتهما على القوم الظالمين ؟ أإذا كان هذان معنا ، أفنحتاج إلى عون آخر ؟ » فقال تليماك « أجل ... تعالى جوف وجلت مينرفا ... إن لهما لأيدياً فوق أيدي الناس لأنهما يحكان من فوق عرشهما الممرد فوق السحاب ، في الأرض وفي السماء على السواء . » وقال أبوه يزيده طمأنينة : « وسيكونان معنا في الحسبة^(٢) حين يجدجدها ... فإذا كان الصباح فاذهب إلى القصر واختلط بالخطاب وسيقودني راعيها الأمين إلى هنالك ، متنسكراً في صورة الشحاذ الفقير الذي رأيت ، فإذا فرطوا^(٣) على فلا تأس ، حتى ولو كان فرطهم

(١) أثينا هو الاسم اليوناني لمينرفا . (٢) ساحة المعركة . (٣) ساء أديهم .

بالضرب والسباب... ويسرن أن تحتمل وتصطبر ، فإذا زادوا فاصرف
عني أذا هم بكلمة طيبة حتى يحكم الله بيني وبينهم حين يحين حينهم...
واحذر أن تخبر أحداً بعودتي حتى ولا أبى... بل على الأخص أمك
بنلوب أو هذا الراعي يومايوس... إذ ينبغي أن نستعين على أمرنا
بالكتمان حتى نعرف أصدقاءنا ونخبر أعداءنا ، وطمأنه تليماك وأكد
له كل شيء... ثم وصل يومايوس إلى بنلوب فأخبرها بعودة تليماك ،
وذاع النبأ بين الخطاب فذعروا ، لفشل مؤامرتهم ضده ، وانتشروا
خارج القصر ، واعزموا أن يبعثوا نفرأ منهم بهذا النبأ إلى الطغمة التي
ذهبت تتربص بالفتى لتقتله إذ هو عائد من ييلوس... ثم اجتمعوا
يمكرون السيئات ، ويدبرون قتل تليماك حين تتيح فرصة أخرى .
وكان ميدون قريباً منهم فاسترق سمعهم وطار به إلى بنلوب التي هالها
ما مكروا وما دبوا ، فذهبت في جميع وصيفاتها إلى رحمة القصر ،
حيث اجتمع أعداؤها إلى شياطينهم ، فصاحت بزعيمهم أنطونيوس
من وراء حجابها قائلة : « أنطونيوس تبت يداك يا ألام الناس ! أنت
يا من يدعوك التقى الصالح وأنت أسفل مما يظنون طوية وأخبث
سريرة ! كيف حدثتك نفسك بهذا التدبير السيء فترسم لأشرارك قتل
ولدى الذى لم يعد لي في الحياة رجاء غيره ؟ إلا أنه ضعيف بنفسه ؟
ألا فاعلم أنه قوى بالله الذى ينتقم لعباده من الظالمين ! أيها اللئيم أبعث
هذا تجزى جميل اوديسيوس الذى حال مرة بين أبك وبين أعدائه
معرضاً نفسه للمهلكة ، ولولاه لظفروا به . ولولا أن قتل منهم من
قتل وصرع من صرع لعجلت روحه إلى نيران هيدز ونس القرار ؟
أفلم يكفك ما تأكل بغير حق من زاده ، وتعبث غير عابء بعتاده ،
فترسم لأشرارك غيلة ابنه ؟ »

وانبرى يوريماخوس يهدىء من ثورتها ويطمئنها أن أحداً من العالمين لا يستطيع أن ينال تليماك بأذى مادام حياً يدب على قدمين... وكان يتكلم برغم ما كان ينطوى عليه قلبه... لأنه كان من أكبر المتآمرين على حياه ابنها العزيز الحبيب... وبعد أن توارت أورورا عاد الراعى إلى حظائره يدب على عكازه؛ وكانت مينرفا قد لمست أوديسيوس بعصاها السحرية فعاد إلى صورة الفقير الشحاذ وعادت إليه من قه وأسماله، فوجد سيده وضييفه الفقير يعدان عشاءهما. ولما لمح تليماك قال له: «ما وراءك يا يومايوس الصالح؟ أعلمت عن الطغمة التي تأخرت في ساموس تتربص بى شيئاً؟ فأجابه الراعى: «تألقه لا أعلم لى بشيء يا مولاي، فأنا لم أتنظر طويلاً فى المدينة لأتسقط الأنباء، لأنك أمرتني أن أرتد على عجل؛ بيد أننى لحت مركبا يطوى البحر إذ أنا عائداً، وبدخل المرفأ، وفيه من العدو والعدد ما يبهر النظر ويخطف البصر. وأحسب أنهم هم الأمراء الذين تعنى، غير أننى لا أجزم بهذا».

ونظر تليماك إلى والده مبتسماً، محاذراً أن ينبته الراعى إلى شيء.

* * *

أوديسيوس فى قصره

ونظرت أورورا جبين المشرق بالورد، وخضبته بالشفق، فهب تليماخوس من نومه الهائى الهادى الموشى بالأحلام. فلبس وانتعل، واخترط سيفه ثم قال لراعيه: «أبها الأب الصديق، إني متوجه إلى

المدينة لألقى أمي ، فأكبر الظن أنها لن يرقأ لها دمع ولن تخفست لها آهة حتى تراني ... أما هذا اللاجئ ... فرأى أن ينطلق إلى المدينة فليسأل الناس وليطرق الأبواب ، وإن يعدم إذا تكفّفهم أن ينال رزقه ويحصل على لقمة يتبلغ بها ... إن لدى من المتاعب والمشاق ما يشغلني عن كل جواب آفاق ... إمض به إلى المدينة إذن ؛ فإذا آلمه هذا ، فهو حر ... إني رجل لا أعبأ أن أقول الحق ، فنهض أوديسيوس ليقول : « سيدي ! إني لم أبغ أن أثبت هنا ، فليس لشحاذ فقير مثلي أن يلتبس رزقه في الحقول والغيطان ! بل إني منطلق إلى المدينة ولست مقعداً أو ضعفاً فلا أقوى على عمل يؤجرني عليه أحد أمرائها ... تفضل أنت فاذهب لطبيبتك^(١) ، وسأمضي أنا مع خادمك حين تتمتع^(٢) الشمس قليلاً ، فأنا كما ترى رجل شيخ ، وأخشى أن يقتلني برد الصباح وصقيعه ، وليس ما يحفظني منهما إلا ما ترى من مرق مضى أصلمها وبقى رقعها ، .. وانطلق تليماك فبلغ القصر ، ولقى أول من لقي مرضعه يوريكليا ، حيث كانت وأتراها ينشرون فراء على كراسي وحالات مبعثرة في الردهة ... فلما رأته عجبت إليه ورحبت به وسلمت عليه ، وانطلقت الدموع من عينيها فانعقد لسانها وانحبس منطقها ، ثم اجتمع الجوارى يقبلن تليماك ويحدقن به حتى لفتن نظر الأم المعذبة المحزونة المطلة من إحدى شرفات القصر ، فأهرعت من عل وأخذت في حضنها المحب الرحيم أعز الأبناء ، وأمطرت جبينه وخديه بالدموع والقبل ، ثم جعلت تقول له : « أوقد عدت إلى الوطن يا نور عيني !

(١) لحاجتك أو لشأنك

(٢) ترتفع

تليماك ! تالله لقد وقر في قلبي أنني إن أراك بعد إذا أبحرت إلى بيلوس
برغمي ، وعلى غير علم مني ، لتسقط أنباء أبيك . . . ولكن . . .
خبرني يا بني ماذا عساك سمعت . ، فقال الفتى : « أماء ! لم تعودين
بذا كرتي إلى عبوس الحياة وقد أفلت من الموت ؟ أولى لك ثم أولى أن
تضني عليك من أغفر أثوابك ، ثم تصلي للآلهة أن تهني لنا يوم انتقام
عادل لا يبق ولا يذر ! » بيد أنه ينبغي أن أذهب الآن لألقى ضيفاً
كريمًا عزيزاً جداً على - عزيزاً جداً على يا أماء ! - حضر معي في
سفيتي أمس ، وقد أرسلته مع من يُضيفه عنى حتى أعود فأضيفه أنا
نفسى ، وذهبت بنلوب فصلت طويلاً للآلهة ، وانطلق تليماك فلقى
تيوكليس وعاد معه إلى القصر ، وجلسا يتحدثان ، بينما أحضر أحد
الخدم مائدة حافلة بألوان الطعام وأطيب صنوف الشراب ، فوضعها
أمامهما . . وأقبلت بنلوب جلست لدى الباب تنسج ثوبها الذي
لا ينتهى . فلما فرغا من طعامهما أقبلت فقالت تخاطب تليماخوس :
« يبدو لي أنك إن تقص على الآن ما سمعت من أنباء أبيك يا تليماخوس ،
وأوتر إذن أن أصعد فأضطجع في فراشي الذي أبلله دائماً بدموعي
منذ فارق أوديسيوس ، فإذا انصرف الأوغاد المعاميد وفرغت من
شغلك بهم فاحضر إلى لتقص على من أنبائه . » ولكن تليماك قال :
« أماء ! لم لا أقص عليك ما سمعت وما سافرت إلا لأطمئنتك وأطمئن
نفسى ؟ لقد سافرت إلى بيلوس وحظيت بلقاء نسطور الذى هش لي
وبش وفرح بكأنا أنا ابنه الذى اقتنعه طويلاً وعاد فجأة إليه ؛
غير أنه لم يذكر لي عن أبى قليلاً أو كثيراً لعدم علمه بشيء من أنبائه ،

ولذلك بعثني مع واحد من أبنائه إلى ملك أسبرطه لآسأله عن أبي . .
وقد لقيني منلوس فأحسن لقائي وأكرم مشوأي ، ورأيت فيمن رأيت
زوجه هيلين الحسنة المقتان التي شبت بسببها حروب طروادة ،
والتي لقي من أجلها أبطال الإغريق أنسكى ألوان العذاب . . . ولما سألتني
الملك فيم قدمت ، نبأته بأبناء العشاق المعاميد . ووصفت له ما يجرون
على بيت أبي من الخراب ، فأرغى وأزبد ولعنهم أشد اللعن . وتوسل
إلى الآلهة أن ترد إليهم أوديسيوس فيبطش بهم ، ويعيد إليهم صوابهم
ثم قص على ما سمعه من أحد أرباب الماء — پروتيوس — الذي أخبره
أن أبي لا يزال حياً يرزق في إحدى الجزائر النائية ، وأن عروساً
من عرائس الماء تحجزه عندها في تلك الجزيرة برغمه . لأنها تحبه
وتتمواه ، وأنه لا يجد سفينة يشوب عليها إلى الوطن . . . هذا يا أماء
كل ما علمته عن أبي من الملك منلوس ، وقد أذن لي في العودة فأبت
في رعاية السماء وحفظ الآلهة . وكانت بنسلوب تصغى وثورة من
الحنن تحتاح نفسها ، واطلى من الوجد يفتك بقلوبها فلما فرغ تليماك ،
التفت تيوكليموس المتنى إلى السيدة الرؤوم فقال : « يا زوج أوديسيوس
أعيرني سمعك ! إصغى إلى فساتنبا لك ! إن انك هذا لم يسمع عن
أبيه أى نبأ يقين . . . أما أنا ، فقد بدت لى أمارات وشهدت في السماء
علامات . . . وحال أن تكذب علامات السماء . . أقسم بحورف العلى
رب الأرباب ، وأقسم بهذا البيت بيت أوديسيوس ، أن زوجك هنا ،
وفي إيثاكا . . . وهو يعلم كل صغيرة وكبيرة من أنباء الخطاب وخبائاتهم ،

وإنه ليدبر لهم عقاباً هائلاً لن يفلت أحداً منهم ١١، وسكت المتنبي ...
وأقبل الخطاب من أعينهم فخلعوا عباءاتهم ، ثم نشطوا إلى الشاء والخنازير
فجزروا لطماعهم ...

هذا ما كان من أمر تليماك وأمه ، وما كان من أمر العشاق . أما
ما كان من أمر أوديسيوس فقد مضى في "طريق إلى المدينة" بخطى متعثرة
والراعى بين يديه ، وعلى كاهله حقييته ، وفي يده عكازه ، وكلما لقيهما
أحد صغر خده ، وشمخ بأنفه ، تقززا من منظر هذا الشحاذ الفقير
القدر ... ثم أتيا إلى نبع يتفجر في الطريق فيستقي الناس منه ، وقد
بسقت من حوله أشجار الحور والسنديان . وترقرق الماء فوق الحصباء
كاللجين (١) يتدحرج من حميد (٢) أكة هناك ، أقام الصالحون فوقها
مذبحاً لعرائس التاب حيث يتقدم الناس بنذورهم ويعقرون إضحياتهم ...
وقد لقيها هناك راعى ماعز الملك - ملاتيوس - يسوق قطيعاً من
أسمن مايرعى لأجل ولائم الخطاب ... ولقد كان ملاتيوس هذا من
أذئابهم ومتملقهم . وكان يصنع كل ما يحبه إليهم ويضمن له عطفهم .
فلما رأى الفقيرين وأحدهما زميل له ، انطلق يعوى ويصخب ، ويسب
ويستخر ، ويغمز الرجلين غمزاً شديداً موجعاً ، حتى غلا الدم في رأس
أوديسيوس : « إئتسَملا (٣) أي هذان المسخنان ! طاعون يجتاحك يراعى
الخنازير القدر ! حقاً إن الطيور على أشكالها تقع ! كلب يقود آخر ... إلى
أين ؟ إلى حيث يلتقط فتات مواندنا . عجبا ؟ ألا تطلقه معي إلى المزارع ينظف
الزرائب ويحمل العلف ويحرس الغلة ويشرب ما شاء من اللبن الحارز (٤)

(١) الحصاء الحصى واللجين سائل الفضة (٣) جانب . (٣) تنجاعن الطريق

(٤) شديد الحموضة والخيض الذي استخرجت زبدته .

والخفيض ، ويكسو عظامه المعروفة بإهاب من اللحم؟! ولكن هيهات القدر
بلدت طباعه فلا يصلح لعمل شريف! وهكذا ظل الراعي الشرير يبق
من هذا البذاء ، وركل أوديسيوس آخر الأمر ركلة قوية في ساقه ،
فلولا ما حرص عليه الملك من كتمان أمره لحطمه بسببها ، ولمسح به
ظاهر الأرض! ولقد هاج هائج يومايوس فدعا آلهته لتنتقم لرفيقه
الضعيف، وطلق يقول : يا عرائس هذا النع المقدس اسمعي بحق ما عقر
لك أوديسيوس وباسم ما ضحى أن ترديه إلى بلاده لينتقم من أمثال هذا
الوغد الزنيم الذي لا يحسن إلا أن يملق أعداء مولاه ، وإلا أن يغشى
رحابهم ، بينما قطعانه سائمة في المرج لا راعي لها ولا حفيظ! فصاح الراعي
الوفح : دهاه! أجيبني يا عرائس دعاءك لك الأمين؟ أو اه لو أستطيع أن
أحكم في فلك أحد هؤلاء السادة فأبيعك ببيع الرقيق في بلد سحيق! أ
أوديسيوس ماذا أيها المهم القدر أودى أوديسيوس ولن يعود إلى الحياة قط.
وبودى لو ألحق به ابنه تليماك!!... قالها وانطلق حتى بلغ القصر وغشى
مجلس الخطاب فيطر فهم بما حدث له مع راعي الخنازير.. أما أوديسيوس
وأمينه فقد سارا رويدا حتى أتيا بوابة القصر فلبثا عندها... وتناول
أوديسيوس يد الراعي وقال: يومايوس! لا ريب أن هذه سراى الملك،
أنظر! ها هي ذى الحجرات يتلو بعضها بعضاً ، وهاك الرحبة الكبرى
ذات العماد وذات الأبواب... وإني أحس أن هناك أضيافاً اجتمعوا
لوليمة ، وهذا قتار اللحم يملأ خياشيمي ، وإرنا القيثارة يجبل في أذن،
فقال يومايوس بحبيبه : وأنت ذكى شديد الذكاء! إنه هو المكان بعينه،
والآن ، هل تذهب أنت وحدك فتستعرض الأمراء ، وتعود ، أم تنتظر

حتى أذهب أنا فأختطف نظرة إليهم: على أنك يجب ألا تتلبث هنا
فقد يراك بعضهم فيؤذيك ويطردك من هنا شر صرعة ، وقال أوديسيوس
« بل انطلق أنت وإني منتظرك هنا ، فإذا لمكني أحد أو لكرني
أو ركاني ، فلشده ما أحتمل هذا وذاك ، وهل هو إلا بعض ما احتملت
في حروب الطويلة ؟ » وبينما هما يتحدثان ، إذا كلب كبير رابض يقف
بجأة فيمصص بذنبه وينصب أذنيه ، ويحدق بصره في أوديسيوس ،
ويظل مسحوراً ذاهلاً ! آه ! إنه الكلب العزيز أرجوس الذي ربه
الملك قبل أن يرحل إلى طروادة ... لقد أهمل أمره فهو رابض مكثداً
في حماة من الروث والقذر والقمل أمام بوابة القصر ، كالشاعر نهجوز
الذي يمتزج ذكرياته ! لقد عرف صوت مولاه برغم السنين الضوالة .
فبكى ، وهر ، وأرسل الدموع حراراً تسقى صدغيه ! وقد تأججت في
قلبه الحيو أنى ثورة من الحزن الطارىء المفاجيء فلم يقو أن يذحف لمسح
بلسانه قديم مولاه ... وقد لحظ أوديسيوس ما أصاب كلبه العزيز فكبر
هو الآخر تأثراً ، وسجل هذه الآية من الوفاء للحيوان على الإنسان !
وأشاح بوجهه عن الراعي حتى لا يدرك ما بعينه من دموع . فلما مسحها
بكمه قال يحدث يومئذ : « أليس عجيباً ومؤلماً معاً يا صديقي أن يتركوا
هذا الكلب الذي تبدو عليه سماء الليل فوق هذه الحكومة من الروث ؟
ألا يكون أفعده الضعف عن متابعة الصيد؟ وقد يكون إبقاؤهم عليه من
أجل منظره وحسن سمته ؟ » فأجاب الراعي : « أوه . بل أيها الرفيق !
أما والله لو شهدت في إثر مولاه أوديسيوس لعجبت نعصم قوته وشده

جبروته! أبدأ لم يخلق الله وقتئذ كلباً أتبع لصيد ، أو أقوى حاسة شم منه ، وأبدأ لم يكن عندنا كلب كآرجس هذا الرابض يساقط نفسه أنفساً! إنه يبكي مولاه الذى قضى وتركه من ورائه لإهمال الوصيفات وقلة اكتراشن ... أما عبيد هذا القصر فهم كالوصيفات حذوك النعل بالنعل ، فهم لا ينشطون لعمل كما ينشطون وسيدهم بينهم ، ثم هم قد فقدوا بالعبودية وذلة الرق نصف آدميتهم ورجولتهم !! ، ثم مضى أوديسيوس نحو صديقه وخذن صباه ، فبكى وذرف دموعه ، وكذلك فعل الكلب ... ، حتى مات ولكن بعد أن رأى سيده تارة أخرى !! ولمح تليماك راعيه فأوماً إليه ، وأخذه جانباً ، ثم أمده بنصيب جزيل من طعام الوليمة .. وبعد لحظات أقبل أوديسيوس فى صورة الشحاذ الفقير ، وجلس على الأرض ، فأرسل إليه ولده شيئاً من اللحم والخبز مع مع يومابوس ، وأسر إليه أن يرسله بين الأمراء يتسكف ، وبالأحرى ليتعرف ، فالبا فوغ من طعامه هضر فسار بينهم يسأل هذا ويحذق فيه ، وينصرف إلى ذاك ويحذجه^(١) ، ويمد يده من أجل لقمة كما يصنع الشحاذون ، وقد رثا له كثيرون فأمدوه بلقعات ومضغ من اللحم ، إلا أنطونيوس ، فقد استهنأ به وبمن أحسن من الأمراء إليه ، وغيرهم بأهم يتصدقون بما ليس لهم ، ثم هاج وماج ، ورفع كرسياً أو شك أن يحطم به رأس أوديسيوس ، وأمره أن ينصرف فلا يعكر عليهم صفوهم أكثر مما فعل ؟ ! واسكن الكرسى صدع كتف الملك ، وأعفى رأسه : ووقف أوديسيوس كالصخرة

(١) يرمقه بنظرة خاطفة

لا يتحرك ولا ينبس بنبت شفة... ولكن ألف ألف فكرة سوداء كانت تسكظ فؤاده وتزحم تفكيره... ثم مضى مجلس حيث كان من قبل، وهتف بالخطاب في صوت جهوري فقال: «سادتي الأمراء اسمعوا! تالله لو أنها ضربت في حرب بين كفتين لما حملت لها موجدة في نفسي... ولكن أنطونيوس رأى من سلطان الجوع والضعف ما جرأه وأثار خيخته^(١)... وأنا مع ذلك أترك جزاءه لله، وأضرع إليه جل ثناؤه أن يقبضه قسلا أن تزف إليه عرسه! وكأنما خجل الخطاب مما فعل أنطونيوس فجعلوا يلومونه ويتلامون فيما بينهم. قال قائلمهم: «من يدري؟ ألا يحتمل أن يكون أحد آلهة السماء جاء ليسلونا... والويل لك يا أنطونيوس إذا صدق حدسنا... ألا تعلم أنهم طالما يتنزلون فيغشون مدننا في صور الشحاذين ليروا بأعينهم ما نأفك^(٢) وما نمين^(٣)؟، ولم يبال بهم ولم يأبه لما قالوا... وكان تلميخا خوس يتميز من الغيظ. ويُسِر في نفسه أوجع الألم لما نال أباه من الضرب، بيد أنه غلب غضبه، وحبس في أعماقه، كما حبس في عينيه وأبلا من الدموع... وكانت بنلوب تطلع من شرفتها وترى ما حل بالرجل من إبداء، فهتفت بيومايوس أن يرسله إليها كيما تسأله عن أوديسيوس، لما يبدو عليه من أثر السفر وجوب الآفاق. قال الراعي: «أجل يا مولاتي، إنه رجل من كريت، وقد خاض ألف مكروه قبل أن تحمله الصدفة إلى بلادنا؛ ثم هو محدث ساحر الحديث طلي الرواية، حتى لينقلب سمع من يصغي إليه بأشد ما يستطيع منشدا

(٢) يأك يصنع الإمك ويعين أى يكذب.

(١) طبيعته.

مطرب أن يفعل ! وكلما طال حديثه لذت طلاوته ، وكثرت حلاوته ، فلا تمله أذنان ، ولا يضيق به مصغ إليه . . . وأعجب ما ذكره مرة لى أنه رأى أوديسيوس وعرفه فى أبيروس . . . بل يزيد فيؤكد أن مولاي عائد أدراجه إلينا ، حاملا معه كنوزاً من الذهب ، وأذخاراً لم تر العين مثلها ولم تخطر على قلب بشر ! ، فتهدت بنلوب وقالت : « انطلق إذن فأحضره ، ودعه يتحدثنى بما روى وجهاً لوجه ، وسأهبه صداراً ودثاراً إذا توسمت فى قوله الحق ، وآنست فى روايته الصدق ،

و ادعى أوديسيوس أنه يخشى أن يحوز وسط الأمراء مرة أخرى ، وفضل أن يلقي الملكة فيتحدث إليها إذا جن الليل بجانب المدفأة ووافقت الملكة ، وصوبت رأى الرجل ؛ وكان الوقت أصيلاً فقصد الراعى إلى تليماك وأستأذنه فى الانصراف إلى حظائره ، فأذن له ولكن بعد أن أمره بالتزود لعشائه ، ففعل يومايوس ، ثم مضى ليسهر على خنازيره .

أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ

وبينما كان أوديسيوس جالسا يزددرد طعامه إذا شحاذ ضخيم الجسم شائه المنظر يدخل فجأة ، فيلتفت إليه جمهور العشاق . ويعرفون فيه الفقير إيروس ، المشهور بنهمه الذى لا يوصف ، وبإقباله الشديد على أرداد ألوان الشراب . . . وكانت له عليهم دالة ، وليس فى الجزيرة كلها من يحمله . . . فلما لمح أوديسيوس جالسا يتبلغ بلقياته نظر إليه نظرات المحنق وقال له : « انحرف عن الباب أيها العجوز القذر وإلا جررتك من عقيبك . . . ولو أننى أترفع عن مقاومة أمثالك ! ! » وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق إني ما آذيتك ، وإن فى المكان لمنسعا لسكينا . . . أرجو ألا تتيرنى أكثر مما فعلت وإلا فلا يغرنك هرمى وتقدم سى ، فتالله لأرينك كيف أضربك ضرباً تقول منه الهامة اسقونى ! إجنح للسلم هو خير لك ! وأصغ إلى نصيحى ، وإلا فلن تدخل قصر الملك أوديسيوس بعد اليوم . . . » وغيط الشحاذ إيروس وقال : « اسمعوا ماذا يهرف هذا الشره المخرف ! ألا ما أشبهه بزوجة حمقاء تثرثر أمام كانون ! تالله إيخيل إلى أن أنقض عليه فأنفض ثناياه ! هلم أيها الرجل ! استعد للقاء ، وليشهد السادة كيف أمثل بك ؟ » وبقه أنطونيوس وقال : « أيها الأصدقاء اشهدوا ! إن إيروس يتحدى هذا الفقير ، والفقير بدوره يتحداه ، فهلم نجعل حولهما حلقة لنرى إلى هذا العراك المضحك ! » وسكت أنطونيوس ، وتككب الأمراء

حول الرجلين ضاحكين عابثين ، ثم التفت إليهما أنطونيوس وقال .
 « اسمعا إذن ؛ ههنا كعكات ليس أجود منها . . . ولها خالصة لمن يتفوق
 منكما على قرنه ^(١) . . . ولمن فاز أجر عظيم . . . إنه سيجلس معنا
 في جميع ولأئمتنا منذ غد ، ولن ندع أحداً من الشحاذين يضايقتنا بعد
 هذا اليوم ، وتخابث أوديسيوس وقال : « ياسادة ! من الظلم أن يتبارى
 رجل عجوز ضعيف مثلي مع هذا الهولة . . . ولكن الجوع يدفعني إلى
 البطش به مع ذاك .. بيد أن لي رجاء ألا يساعده أحد على ، فيلصقني
 مثلاً أو يلصقني حينما أكون مشغولاً به ، فقامموه ألا يفعلوا . وتقدم
 تليماخوس ابنته فقال : « أيها الرجل ، إذا وسعتك أن تفاضل هذا الزميل
 فلن تخشى من هؤلاء رهقاً . . . إني مضيفك ، وليس أحب إلى
 أنطونيوس ويوريماخوس من أن يشهدا هذا اللقاء الفذ بينكما ، ثم إن
 أوديسيوس شمر عن ساعديه ونخذه ، وكشف قليلاً عن صدره ،
 عامداً ليظهر الأمراء على عضله المسكتنز وقوته الخارقة . . . وقد صدق
 حدسه ، فقد بهت العشاق ونظر بعضهم إلى بعض يقولون : « واهجاً !
 أي عضل وأي ساعدين ونخدين يخفي هذا الرجل تحت أسنانه ومنزقه
 البالية ؟ مسكين إيروس ! ماذا يبقى منه بعد هذا اللقاء ؟ » أما إيروس
 فقد انتفض واقتشعر بدنه مما عراه من الذعر ، ولكن الخدم لم يتركوا
 له أن يفر من اللقاء الذي دعا هو إليه ، بل شمروا له عن ساعديه
 ونخذه كما فعل غريمه ، ثم جروه إلى الحلقة برغمه . . . وود أوديسيوس
 أن يبطش بالرجل فيحطمه بأول لكمة ؛ غير أنه أثر ألا يفعل خشية

أن يكشف العشاق من هو ... فلما امتدت الأيدي تصنع الدفاع وأقبل وأدبر . وكر وفر . ثم أهرى على أذن الرجل بضربة سحقته عظامه ، وطرحت على الأرض ... ولبت المسكين لا يبدى حراكاً من هول ما حل به ، بيد أن أوديسيوس جره من عقبيه إلى ساحة القصر ، ثم عرج به نحو جدار كبير حيث سنده إليه ، وجعل في يده عكازه وقال : « لبت هنا ولا تغش منازل الملوك بعد ، وذد بعصاك الخنازير السائبة ، فذلك خير من أن تصيب بها الغرباء أمثالي . . . فإن عدت إلى مثل حماقتك فلن يصيبك إلا شر مما رأيت » وتركه وانثنى إلى حيث كان . فوجد العشاق يضحكون حتى يكاد يقتلهم الضحك ... وهتفوا له : « ثم قالوا : « حقق الله آمالك ، وأنا لك أمانيك أيها الغريب اللاجئ » ، بما خلصتنا من هذا الشحاذا النهم الملاح » وسمع أوديسيوس دعاءهم وابتهل إلى الآلهة أن تستجيب له ثم وضع أنطونيوس بين يديه كعكة كبيرة ، وزوده أمفينوموس بخمر وخبز صلباً له في كأس كبيرة من ذهب ، ودعا له بخير . وآنس فيه أوديسيوس طيبة ودماثة خلق فقال له : « هيه ! هلم أيها العزيز أمحضك نصيحتي وأحدثك عن تجاربي ... ألا ما أضعف الإنسان ! إنه إذا ما مسه ضر دعا الله فإذا كشف عنه الضر فإذا هو مقتصد ناهٍ بجانبه كأن لم يمسسه ضر . فأنامثلاً لقد كنت في عنفوان ضباى أعيت في الأرض مغترأ بقوتي وقوتي ، حتى أسقط الكبر في يدي فقيئت إلى أمر السماء ، ولكن بعد أن كتب على الشقاء ، وهكذا أولئك الأمراء الذين غرتهم الأمانى وأصلهم جبروتهم فأقاموا بهذا القصر غارين آمنين لا يظنون أن له

صاحباً قد يفاجئهم بعودته فيستأصل شأقهم ويذهب بريحهم ... وإني والله أيها السيد لأرى أنه عائد ليس من هذا بلد ، وأنه عائد قريباً ، فتقبل أنت نصيحتي ولا تقم معهم ، بل انطلق إلى بيتك وأهلك ولا تستأذن^(١) حتى يذهبك معهم فيحطمونكم أجمعين ... » وشرب أوديسيوس ، ودفع الكأس إلى الأمير الشاب الذي بدت عليه أمارات الهم بما قال الرجل ، ولكن ... وأسفاه ! لقد كتب عليه الشقاء ، فلم يصغ لنصيحة أوديسيوس .

وبدا لينلوب أن تذهب في بعض وصيفاتها فتخطر بين الخطاب ليروها ، ولترى ماذا يكون ... وقبل أن تفعل ألقت عليها مئزرها ناعساً وأمنةً ، وبدت لها في الرؤيا كأنما تعطيها لشيء عجيب ، ثم إن الربة أضفت عليها رواء كرواء الآلهة ، ونصرتها بنصرة الشباب والجمال ، فربا جسمها واستطال ، وزانت له لعبة عاجية وسناء ... فلما هبت من نومها ، فركت عينيها متعجبة ، وشدهتها تلك الغفوة الطارئة التي جلبت لها السعادة في دنيا من الهموم ... وتمنت لو أراحها الموت من حياة اتصلت فيها أشجانها وباعدت بينها وبين إلفها بمفاوز من الآلام والأحزان ... وانطلقت في سرب من وصيفاتها فأشرفت على العشاق وقد ضربت بخنجرها الشف على وجهها المتألق الناصع ، فذهل الملاء ، وزاغت أبصارهم ، وأحسوا أن شيئاً يخلع قلوبهم ، فما منهم إلا من تمنى أن يكون صاحب هذا الجمال الرائع والحسن الباهر ، والفتنة المتقدة ... ونهض يوريماخوس فقال يخاطبها : « يا ابنة إيكاروس .

(١) ولا تتأخر

بوركت ! تالله لو رآك كل من في هيلاس لاجتمعت حولك قلوب
غير ما من العاشقين ، ولأقبلوا من كل فج فازدحموا حولك ههنا . في
ذلك القصر العتيد ! ، فقالت بلوب : « يوريماخوس ! تالله لقد ذهب
الآلهة بجألى الذى تصف يوم رحل عنى زوجى أوديسيوس فيمن
رحل إلى طروادة ... وما أنس لا أنس ما قال لى وهو قابض على يمينى
يودعى : « زوجتى ! إن أكثر من ترين من هذا الجيش لن يعودوا
إلى ديارهم ... فى طروادة محاربون صناديد ، وملاعب أسنة لا يشق
لهم غبار ، وذادة ورماة ! وإنى لأأدرى ماذا يكون من أمرى هنالك ،
ولذا ، أكل إليك كل ما أودع ورأى ، وإنى موصيك أول ما أوصيك
بأبى وأمى ، فاعنى هذا كأحسن ما كنت تعنين وولدكما معك ، فإذا شب
ولدى وترعرع ، فلك أن تتركى هذا القصر إن شئت ، وتزوجى بمن
تختارين من الآكفاء الأنداد ، هذا وإنى أرى أن هذا اليوم العصيب
قد حان ! ولكن وأسفاه ! إنكم اجتمعتم هنا لتأكلوا وتشربوا
وتمشوا وتعشوا بكل ما ترك صاحب القصر ... وكنت أضنكم تقيمون
فى منازلكم وترسلون إلى هداياكم لتكبروا عندى ولا تهزل مكاتسكم
لدى ... ألا ساء ما تزرون ، .

وتبسم أوديسيوس من قولها ، ووثق من إخلاصها ، وعجب من
شدة ما سحرت ألباب الخطاب وما أخذتهم به من حزم .. أما
أنطونيوس فقد أجابها بقوله : « أما هدايانا يا ابنة إيكاريوس فلا
أحب إلينا من تقديمها إليك ... على أننا لن نريم^(١) عن هذا القصر
حتى تختارى لنفسك بعلاً يكون كفضلاً لك ، وأيد الخطاب ما قال

(١) لن تنصرف .

قائلهم ، فهنضوا ليحضروا هداياهم ، وسرعان ما عادوا يحملونها ...
وتقدموا بها إلى بنلوب ، فهذا ثوب ثمين من قائم^(١) موسى الذهب
تزيينه اثنا عشر زراراً ذهبياً ... وهذا عقد من محليات خرزاته بقطع
من السكرمان الحر ، وتلك أساور من ذهب ومشتوف كثيرة
وأقراط^(٢) . وعادت بنلوب ومن خلفها وصيفاتها يحملن الهدايا
واللهي ... وأخذ الخطاب كدأبهم في القصف واللهو والعبث
والغناء ... حتى أقبل الليل ، فقدم الندامى بمجامر من نحاس بها وقود
يشتمل ، وطفقن يلقين فيها من الند والرند والعود ذى العرف . وطفق
البخور يعبق في أرجاء الهو الكبير ... وهنا ... نهض أوديسيوس
وتوجه إلى البنات يقول : أيها العذارى أولى يكن ثم أولى يكن أن
تذهبن إلى سيدتكن فتسليهن وتواسيهن ، وسأقوم بالنيابة عنكن على
هذه النار حتى ينصرف الخطاب ... ولن يؤذنى أن أقوم عليها
حتى مطلع الفجر . ولن أضيق بجمعهم مهما عبثوا بي ، فأنا رجل
ذو تجارب . فتضاحكن به ، وقالت ميلانتو التي هى أجملهن وأقلهن
احتشاماً وهى تعبت به : ماذا أصابك الليلة أيها النازح الغريب ؟ انطلق
إلى حداد المدينة فتم فى دكانه ، فهذا خير لك من أن تسهر ههنا وتثرثر ..
هل غاب صوابك يا شيخ لأنك ظفرت بالشحاذ إيروس ؟ أربع^(٣)
عليك ، فقد تبثليك السماء بمن يبطش بك كما بطشت به ، ويطردك
من هنا .. ورشقها أوديسيوس بعينه وقال : أسكتى يا هناه^(٤)
والله لأحدثن بما حدثت الأمير تليماخوس فليقطعن لسانك ،

(١) القائم نوع من أنواع ثياب الفراء . (٢) الشنوف والأقراط (الحلقان) لأذن المرأة .

(٤) الهناة الداهية .

(٣) ضعتاؤ .

وليمز قن جسدك^(١) . وذعر العذارى وورلين هاربات ، وقام أوديسيوس على النار وجعل يلحظ. العشاق وفي قلبه ضرام . وما تبقى يفكر في ألف خطة للانتقام منهم والبطش بهم . . . ولم تشأ مينرثا أن تهى هذا الشقاء الذى ضربته على أوديسيوس ، بل تركته يستهزئ به الخطاب . ويسخر منه يوريماخوس ، فيضحك الخطاب إذ يقول : « ما أظن إلا أن الآلهة قد أرسلت إلينا هذا الرجل ليكون حاملاً مشاعنا وحامى قبسنا . . . أنظروا إلى رأسه النحاسى ، أليس يصلح أن يكون مشعلاً يضىء لنا؟ ثم التفت إلى أوديسيوس وهو يقول : « إذا استأجرتك لنسوج^(٢) مزرعة لى بعمدة من هنا وتغرس بها أشجاراً ، على أن أطعمك وأكسوك وأفقدك مالا ، فإنك نرضى ؟ ولكن لا . . . إني لأظنك تسرق منها طواعية لغرائك وخبث جباتك فتنتطلق إلى المدينة لتستجدى وتتسكف . . . »

وتحاثب أوديسيوس وقال يحبيه : « يوريماخوس ! تأله إنه ليس أحب إلى من إن أباريك في فلاحته في يوم من أيام الربيع ، حين يطول النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ، على ألا يذوق أحدنا طعاماً ولا يسيغ شراباً . . . أو أن يعهد إلى كل منا بأربعة أفدنة من أرض جبوب^(٣) ، وثورين حنيزين وذوى خوار ، في ذلك اليوم . ل ترى أينما يصمد لحرثه ويفلح أرضه . . . بل إني لأتمنى ، إذ نحن فى هذه الأرض ، أن يدهمنا عدو بخيله ورجله . وتكون لى درع سابعة ، وخوذة من من نحاس ، ورمح فى يدى ، ل ترى كيف لا يحول الجوع بينى وبين أقرانى ، وكيف أضرج بدماهم الأرض ، وأتركهم فى البرية جزر^(٤) السباع وكل

(١) تجعل لها سياجاً أى سورا (٢) صلبة . (٣) طعام .

نسر قشعهم ... أيها المشكعُ الوقح ... والله لو أن أوديسيوس رب هذا البيت قد فجأك الآن لضاعت عليك الأرض بما رحبت . . أنت أيها المغرور المتعاطل الذي غره أن يكون شجاعاً بين قو^(١)كي لا حول لهم ، وجئن جنون يوريماخوس ، وأخذ مستكماً ثقيلاً وقذفه شطر أوديسيوس ، ولكن البطل افتتل بعيداً وسقط المتكأ على الساق المسكين ، نخر إلى الأرض يشن ويتوجع ... وغيظ الخطاب أيما غيظ ؟ وعلا لخطهم ، وودوا لو يسحقون أوديسيوس . لو لأن تقدم تليماخوس وحال بينه وبينهم وهو يقول :

« يا سادة إني كصاحب هذا القصر ، لا أستطيع أن أطرد الرجل منه بعد إذ أويته وضيئتمته ... والرأى أن تقطعوا سمركم هذا وتذهبوا من فوركم إلى منازلكم حتى يتصرم^(٢) الليل ، . . . وأيده الأمير أمفيثيوس ، ووقفوا جميعاً فاحتسوا السكاس الأخيرة ثم انقلبوا إلى منازلهم ... وفي نفس يوريماخوس من الهم ما تنوء بحمله الجبال ...

المرضع العجوز تعرف أوديسيوس

وهكذا خلا الجو لأوديسيوس وولده ، فقال يحدث تليماك : « أيا بني : ينبغي أن نحبي أسلحة القوم في مكان حرين ، فإذا سألوك عنها فقل لهم إنك تحفظها لهم حتى لا تتأثر بالدخان والغبار وتقلبات الجو ، وامتثل تليماك ، ودعا المرضع العجوز يوريكليا فقال لها : أماه ليقرأ الوصيفات في مضاجعهم حتى أنقل أسلحة أبي إلى مكان حرين فقد تراكم عليها الوسخ وأتلفها الدخان ، وقالت يوريكليا معجبة : « أجل يا بني ، إنه

(٢) ينفضى .

(١) حتى .

ينبغي أن تغني بكل ما يتعلق بأبيك وبكل ما ملكك يداك ... ولكن قل لي ... من يحمل لك المصباح حتى تنقلها إلى حرزها ؟ ألا أدعوهم فيحملنك لك ا ، وشكرها تليها ، وذكر لها أن الرجل الغريب سيحمله . وأهرعت يوركليا إلى داخل القصر ، وهب أوديسيوس وولد يميلان الخوذ والدروع والرماح ، وبدت ميزفا الكريمة تحمل بين أيديهما مصباحاً ذهبياً كان يشع سناء عجيبياً ، ونوراً لم تقع عيناً تليها عن مثله . فقال لأبيه وقد أخذه العجب : أبتاه ا ما هذا النور المنعكس على الجدران والعمد والقوام والعوارض حتى ليكاد يحملها تلتب ا أبداً ما رأيت مثل هذا أبداً ... لا بد يا أبي أن إطلاً معنا هنا ا ، وقال أبوه : وأخرن عليك اسمائك^(١) يا بني ، واملأ قلبك بما ترى ، فإنه من نور السماء . وهذا دأبُ الآلهة ... والآن ، لتصعد أنت فلتنم ملء عينيك كي تستريح .. أما أنا ، فباق هنا ، لأنه لا بد لي من أن أكلم أمك وخدمها .

وانطلق تليها إلى مخدعه ، وأقبلت بنلوب وأقبل في إثرها سرب من خدمها فأعددن لها عرشاً مردأ من ذهب وعاج استوت عليه وأسندت قدميها العاجيتين إلى متكأ جميل ، فبدت كإحدى الآلهة . وجلس أوديسيوس على كرسي صغير بُثَّتْ عليه فروة غليظة ، ثم كلمته الملكة فقالت : ، والآن أيها الغريب الكريم قص علي من أفتائك وخبرني من أنت ، ومن أي البلاد قدمت ، فقال أوديسيوس : أيتها الملكة تعالى جدك^(٢) وصالح حالك ... إن لك في العالمين لذكر أعبق كالعطر ، واسماً كريماً ليس لملك عظيم يحكم أمة عظيمة بالعدل وتجزيه بالحنّة ..

إني يا مولاي قد رجل كثره الزمان ، وعسفت به يد الحدثان ، فإذا سألتني ما اسمي وما بلادي ، فإنك تثيرين في أعماقي ذكريات عنيفة تدمي فؤادي ، وتفجر الدموع في مآقي ، فأعفيني أيها الملكة من ذكر ذلك ، فإنه ليحزنني أن أجلس بين يديك باكياً متصدعاً مهموماً ... ، وبدا الألم على وجه بنلوب وقالت : « أواه أيها الغريب ما أفسى ما ذبلت حياتي وذوت زهرتي منذ رحل زوجي المحبوب إلى طروادة ، تاركاً لي الهم ، ومخلفاً لي الحسرة ! ألا ما أفسى ما يحن قلبي إليه ، ولشد ما يخفق من أجله ! لقد أسلبنى بعباده ليليل أليل^(١) من الآلام ، فما أدري منذ فارق كيف أهدأ أشفى مسكين مثلك ، ولا كيف أبش لأحد من العالمين ... وهؤلاء الأمراء اللؤماء الذين تسكبهوا حولي يريدون ليرغموني على اختيار أحدهم بعلالي من دون أوديسيوس ، ولا أدري كيف أذودهم ، ولا أعرف السبيل لدفع أذاهم ... لقد مكرت بهم طويلاً ، ولكنهم مكروا بي السيئات ، فلا أدري كيف أنقذ نفسي منهم ؛ وهذا أبوأي يريد أني على هذا الزواج البغيض إلى ، وهذا ابني قد شب ، وهو يضيق بخطائي ذرعاً ، وإن في صدره حرجاً منهم لأنهم يهلكون ثروته ، ويعيشون في قصره ، ويخوضون في عرض أبيسه ... ولكن ... حدثني بأربابك من تكون ، ومن قومك ، وأي بلاء من الدهر شردك عن وطنك ... تكلم أيها العزيز ولا تحزن ، . وأرسل أوديسيوس آهة عميقة ثم تكلم فزخرف حديثاً طويلاً موشقاً ، ولفق قصة حزينة متقنة ، وذكر للملكة أنه رجل ممرزاً من جزيرة كريت كانت له نعمة

(١) مظلم شديد الظلام .

وكانت له سعة من العيش ، وذكر أبويه وأهله والحياة الواسعة المخففة
التي كانوا يحياها ، وذكر أنه عرف أوديسيوس أول ما عرفه حين
غرقت به الفلك وقذفه الموج على الشاطئ الكريتي ، فهرول إليه
وتلطف به وأخذه إلى داره حيث أكرم مشواه واحتنى به أبواه ...
ولم يكند أوديسيوس يفرغ من حديثه حتى تفرقت الدموع في عيني
بنلوب ، وانطلقت تبكى على زوجها الذي لم تدرك أنه جالس إليها يحدثها
ويوشى لها أطراف الكلام . وتأثر هو من بكائها فكادت عيناه تفيضان
بالدمع ، لولا أن ملك حاله ، وهيمن على عواطفه ، فحبس العبرات
التي أوشكت تهمل بأجفان من حديد ... ثم أرادت الملكة أن تمتحنه
إن كان صادقاً فقالت : « وهل تذكر أيها العزيز ماذا كان يلبس يوم
لقيته ؟ تستطيع أن تصفه لي ، وتصف رفاقه الذين صحبوه في هذه
الرحلة المشؤمة ؟ » وتخابث أوديسيوس فقال : « مولائي ! ليس من
اليسير على شيخ كبير مثل أن يذكر أحداث ما قبل عشرين عاماً ...
بيد أنني سأحاول أن أرسم لك الظلال الضئيلة التي لا تزال تنطبع من
صورته في رأسي .. أذكر يا مولائي أنه كان يلتفت شوب أرجواني
موشى بالذهب ، وقد رسم فيه بالذهب أيضاً كلب صيد معروف يحمل
في برطيله^(١) ظيأمر قظاً . وأذكر أنني رأيت قيصره ولمسته ، فلا أذكر
أنتي لمست في حياتي أنعم ولا أرق ولا أثنى .. وكان يسعى بين يديه
مشير أكبر منه جسماً وسناً ، ذو كتفين مستديرتين وشرة سنجابية
وشعر مفلفل ... وكان أوديسيوس يوقره ويحمله أكثر مما كان
يجل سائر أصحابه ،

(١) عن ثعلب عن ابن الأعرابي أنه لم يلبس أو شفته ولم يذكره صاحب القاموس .

وصمت أوديسيوس ، وبكت بخلوب فاستخرطت (١) في البكاء ،
ثم قالت : « لشد ما كنت أرثى لك أيها الغريب النازح الجوّاب ؛ أما
الآن فإنّي أحترمك وأعطف عليك ، بل أحبك ؛ تالله لقد صنعت له
هذا الثوب بيدى ، وأنا التي وشيته بالذهب ! وأأسفاه عليك أوديسيوس !
إنك ان تعود إلى يا حبيبي ! بعددأ ليوم نزلت فيه عن وطنك إلى هذا
البلد اللعين المشؤوم . . . طرودة ! ، وهش أوديسيوس وقال :
« خفنى عنك يا مولاتى ، ولا تتلفى قلبك بطول هذا البكاء . ثم لماذا
تياسين من أوبته وقد سمعت عنه أخباراً سارة حين كنت في أيروس ؟
لقد مات عنه كل أصحابه ، ولقد غرقت سفينته في أعماق اليم بغضب
صبته الالهة عليه ؛ بيد أنه نجح مع ذاك . وهو الآن سليم معافى يوشك
ان يصل إلى إيثاكا بخير . وأنا لا أرسل ما أقول حديثاً ملغفاً . بل
أحلف عليه وأقسم بأغلظ الايمان أنه سيصل إليكم في عامكم هذا . . .
بل ربما كان بينكم قبل أن يتم القمر دورة هذا الشهر ١١ » . فتأوهت
بنلوب وقالت : « ويك أيها الضيف ! تالله إن قلبي ليكذب ما تسمع
أذناي ، وإنه لا يصدق أن صاحبي عائد يوماً إلى إيثاكا . . . ولكن
هلم . . . إني سأمر وصيفاتي فيغسلن قدميك ويعطينك ثياباً وكسوة .
وسيتن لك فراشاً وثيراً هنا . فإذا كان الغد فستجلس مع تلميذك على
مائدة الأمراء ولن يحسر أحد منهم أن يكلمك كلمة أو أن يمد يده
إليك بأذى ، وشكر لها أوديسيوس وقال : « مولاتى لقد اعتدت
أن ألتحف السماء إذا نمت ، وأن أفترش الغبراء ، ولن تمسنى وصيفاتك .
فقد يذعرن من خشونة قدمى . . . ولكن إذا كان فيهن واحدة مخلصة

شربت من كوؤوس الزمان مثل ما شربت من محن وآلام ، فلا بأس
أن تغسل لى قدمى ، على أن تكون عجوزاً حيزبونا ٤١ ، وسرت
بنلوب وقالت تجيبه : « أبدأ ما علمت أحزم منك ولا أوفر ذكاء
وعقلا أيها الضيف الكريم . لك ما سألت ، فإن عندنا خادماً أمينة
طاعنة فى السن كانت موكلة بمولاي أوديسيوس إذ هو طفل تغسله
وتسهر عليه ، وهى التى ستغسل لك قدميك ... يوريكليا ... يوريكليا...
أقبل فاسهرى على هذا الرجل العجوز الذى له مثل سنك وتجاريبك ...
إن له سحنة كسحنة أوديسيوس وسما كسيمائه .. إغسل قدميه وقدى إليه
كسوة تليق بضيف حل ببيتنا ، وكأنما هاجت ذكرى أوديسيوس شجون
المرأة فترق الدمع فى عيניה الملوذتين^(١) وقالت : آه يا أوديسيوس
لشد ما ينزع فؤادى إليك ويخفق لذكراك ! تالله لم أر رجلاً أخت
للألهة كما أخت وضى لها كما وضى ... ومع ذلك فقد ناموا جميعاً
عنه لم يتاذنوا برجوعه إلى وطنه ! ومن يدري ؟ فقد تكون نسوة
تعبت به كما عبت نسوة هذا القصر بهذا الرجل ... هلم أيها الضيف
الكريم ، لا أحب إلى من أن أغسل قدميك كما أمرت مولاتى ...
أوه ! يا للعجب ! ! لماذا ينجذب إليك قلبى هكذا ! يا للآلهة ! ! أبدأ
ما رأيت من أضياف هذا البيت العتيق أشبه بأوديسيوس منك صورة
وصوتاً وخطراً^(٢) وتأثر الملك وأنشأ يقول : وربما
يا أماء ! لقد قال مثل ما قلت كثيرون ممن رأوني ورأوا أوديسيوس ،

(١) البارزين كاللوزتين . (٢) اهتزازاً وعنفواناً

وذهبت يوريكليا فأحضرت طسّاً (١) به ماء؛ وانتهز أوديسيوس
انشغالها عنه فابتعد عن الموقد . لأنه ظن أن المرأة قد ترى الندوب
التي بقدميه ، الباقية ثمة من عضّة خنزير برى كان قد بطش به في حادثته.
فتكشّف ما حرص هو عليه من كتمان أمره . . . بيد أنها لمست
النسّبة (٢) الكبرى في ساق سيدها إذ هي تغسلها .. وكانت الظنون
قد ساورتها لما سمعت من صوته ، واستذكرت من صورته . فلما
تحسست الندبة زاغ بصرها . وحملت جثّة في وجه مولاها وسقطت
يدها من غير وعى فانقلب الطس النحاسي محدثاً صوتاً مُرّاً مدوّياً . . .
وسال الماء . . . وانحبس الدمع والمنطق في عيني العجوز ولسانها ،
ثم عاجلت المفاحاة الساردة الحزنة في صدرها . . . وصرخت تقول :
« أنت ! هو أنت ! والله إنك لأوديسيوس . . . لقد عرفتك . . .
هذه هي النسّبة التي أحدثها الخنزير بساقك ! لقد لمستها بيدي ! »
وأهرعت العجوز مذهولة نحو بنلوب لتزف إليها البشرى الهائلة . . .
ولكن مينرفا كانت أسبق منها . . . فقد سحرت عيني بنلوب وسمعها . . .
وعجل أوديسيوس إلى العجوز فأطبق بكفه على فمها وقال . « يوريكليا !
اصمتي ! أنا هو ! ولكن اصمتي ! إن كلمة واحدة منك تقضي على !
لقد غدتني ونشأتني في حضنك صغيراً ، فمهل تكونين نكبتني وشاحدة
سكيني كبيراً ، وبعد أن وصلت إليكم بعد يأس وقنوط من عودتي ؟
اصمتي ! غلّي لسانك بسلاسل وأصفاد فلست أريد أن يعلم أحد

(١) الطس بالفتح والطست والطسة (الطشت) الذي يغسل فيه (قاموس) .

(٢) أثر الجرح القديم .

أنتى هنا... وإلا... فتألقه لن أرحمك - ولو أنك مرضعى -
يوم يجد الجد ! .

وارتعدت يوريكليا ، وقالت تجيبه : « أى بنى الم تكلمنى هكذا ؟
أتشك فى ثباتى وحفاظى ! إطمئن يا بنى ، فساكون أصمت من الحجر
الصلد ، وأستر لسرك من الحديد ! » فخدجها أوديسيوس وقال « اصمتى
إذن ، ولا تفسدى تدبيرنا ، ولتترك جميعاً على الله ! » وذهبت فأحضرت
ماء آخر ، وأخذت فى غسل رجله العظيمنتين . فلما فرغت ضمختهما
بأنفخ الطيوب ، ووقفت تقلب عينها فى مولاها بينما كان هو يربط
لفائف على ندوب ساقه . وأخذ أوديسيوس كرسيه وجلس قريباً من
الموقد تلقاء بنلوب التى شرعت تحذنه وتقول : « أيها الضيف . ما أرى
بأساً فى أن أسألك إذا كنت أبقى هنا مع ولدى أو أختار أحداً من
أولئك الأمراء فيكون لى بعلا... على أن رؤباً رأيتها لا تزال
تضطرب فى خلدى ولا أعرف كيف أعبرها ذلك أننى كنت أقتنى
عشرين إوزة بيضاء ، وكنت أحبها وأرعاها بنفسى ، فرأيت فيما يرى
الناسم نسرأ قشعاً انقض عليها من الجو فافترسها جميعاً بينما كانت تأكل
طعامها من المعلق الذى أعدته لها... ولما رأى النسر شدة حزنى
والتىاعى على أوزى ، وقف على نتوء قريب ثم أنشأ يكلمنى ويقول :
لا تحزنى يا ابنة إيكاريوس على الأوز فإنه يمثل عشاقك الخطأب
الفساق... أما أنا فأمثل زوجك النازح الذى سيعود من سفره
جفاة فيطش بالطغمة العاتية التى استباح قصره ، وولغت كالكلاب
فى عرضه... ألا يا ابنة إيكاريوس اسعدى ! » واستيقظت من نومى

مسيبوهة ونظرت إلى إوزى لأطمئن عليه فوجدته سالماً . . . فهل
تستطيع أن تعبر عن تلك الرؤيا أيها العزيز ؟ .
فقال أوديسيوس : « أيتها السيدة الفاضلة . . . لقد فسر لك الرؤيا
زوجك بلسانه . . . وهي تعنى غير ما قال . . . إنه قادم وشيكاً لاريب . . .
وإنه حامل إلى خُطِّابك العشاق منايهم » .
وإنشأ قلت بنلوب ثم قالت : « أبدأ . . . إن هي إلا أضغاث أحلام !
إذا كان غد فإنى ذاهبة إليهم فذاكرة لهم شرطاً إن استطاعوه نالنى
أقواهم فذهبت من فورى إلى بيتى ، وتركنت كل هذا القصر الذى دخلته
زوجة لخير زوج ، ليكون حليماً جميلاً يزخر به لى الماضى . . . وذلك
أننى شارطة عليهم أن يحملوا قوس أوديسيوس فيصيبوا بها غرضاً
يخترق السهم إليه اثني عشر (دنجلا)^(١) فإن أصابه أحدهم فإنى له » .
وهش أوديسيوس وأيد فكرتها « لأن واحداً منهم لن يستطيع أن
يوتر قوس أوديسيوس قبل أن يحضر أوديسيوس فيحطمهم جميعاً !! »
وأشارت بنلوب إلى خدمها فأعددن لأوديسيوس مِتْكَاً وفرشاً
وثيراً . . . وذهبت هى لتدرف في مخدعها دموعاً من بلور .

(١) لم نجد فى العربية — أب لم نعرف — مرادفاً لمخود القوس أو العجلة ، فأجرتنا
هذه اللفظة لشيوعها بين الصناع .

نذير من السماء

طفق أوديسيوس يتقلب في فراشه على أحر من الجمر ، وطفق
رأسه يغلي كالقدر ، بل يقور كالتنور بطائفة نائرة صاخبة من الأفكار
والوساوس ، وهو لا يدري ماذا يصنع بهذه العصبة أولى القوة من
أولئك الخطاب المفاليك ، وهو وحده ، ومهما يكن شجاعاً صنديداً
فقد يتسكأثر الذباب على الأسد فيقتله ...

وهبطت من السماء مينرفا اللطيفة في صورة حسناء هيفاء بمشوقة
القد بارعة القسمات ، فجعلت تواسيه وتطمئنه وتبشره بأن الأولمب كله
من ورائه فلا يخاف ولا يأسى ...
ويقول لها :

— « هذا حسن أن يكون الأولمب ، وتكوين أنت ياربة الحكمة ،
من ورائي حتى أنتصر على أولئك الجبارين ... فكيف لا أخشى أن
يهب من ورائهم قباتلهم وذرايرهم واللاتذون بهم يثأرون لهم فيحل بي
بطش شديد ؟؟ » فتقول مينرفا : « الذي يحفظك منهم غداً يحفظك من
غيرهم بعد غد ، ولو جمعوا لك جحفاً أضعافاً ... فلا عليك أيها
العزیز ... خل عنك الوساس إذن ... ونم ملء جفنيك ... واترك
للسماء قيادك فهي حسيك ... » قالت هذا وزفت^(١) في الأثير اللانهاي
إلى أولمب ، تاركة وراءها القصر العتيد بمن فيه من نواام وغير نواام ...
مسكينة بنلوب ! لقد كانت هي الأخرى شاردة اللب ، موزعة

(١) طارت وارتفعت

القلب ما ترقأ لها عبرة^(١)، ولا تغنى لها عين، ولا يقر لها قرار .. لقد
لبثت ليلها كله تنشوق إلى أوديسيوس وتبكي عليه، وتستذكر أيامه،
وترثى لهذا القتي اليافع تليماك؛ ثم تدعو الموت كي يخمد أنفاسها،
ويؤفر عليها أحزانها .. ولكن المنايا نوافر لا تستجيب لدعاء أحد ..
وهبَّ أوديسيوس عند مطلع الفجر فانطلق إلى المذبح الكبير حيث
جثا متضرعاً لهفاناً، يسبح باسم زيوس العلي ويصلي له ويهتف به أن يجعل
له علامة يطمئن قلبه بها، وليعلم أن كبير الآلهة لا يزال يحميه ويكفؤه، كما
كلاؤه في شدائده في البر والبحر ... وكان أوديسيوس يركب صلاته بأظهر
الدموع وأحرها، وكان سيد الأولمب يصغى لدعائه من علياء السماء، فما
إن فرغ الملك المحزون حتى أرسل زيوس في الأرجاء زلزلة عظيمة مدوية
رجّت أصداءها جنبات القصر الساكن، وأحياد الجبال الشاخنة ..
وكانت خادماً بأثمة تسهر طوال ليلها عاملة في طاحونها ناصبة. فلما وقرت
في سمعها الزلزلة ذعرت وروعت، وأزاحت طرف الستر لتتأمل إلى السماء
فلم تجد فيها سحابة واحدة، بل وجدت مشرقة بتباشير الصباح، مضيئة
بنور ربه .. فجعلت تجأر إلى الله وتقول: « زلزال وليس في الأفق
سحاب .. أما والله إنه لندير، أما والله إنها لغضبة السماء على هؤلاء
المناكيد ... القساة .. الذين يقسروني على هذا العناء وذلك النصب
طوال الليل كأني من حديد .. يا جئوف العلي ... إن يكن ما سمعت
حقاً، فإني أسألك بحق أسمائك أن يكون هذا الدقيق آخر ما يأكلون
من زاد هذه الدنيا .. »

وتبسم أوديسيوس من قولها وتوسم فيه وفي تلبية السماء خيراً له .
 وشاع في أعطافه شعور قدسى باقتراب ساعة الانتقام... وكانت الوصيفات
 الأخريات يوقدن نار المدفأ في الردهة الكبرى، بينما رز تلياخوس من
 مخدعه مخترطاً سيفه، ورحمه يحتمل من خلفه، حتى إذا بلغ وصيد الباب
 الكبير هتف بالرضع العجوز يوريكليا يقول: «كيف حال الغريب
 النازح يا أماء؟ بودي لو أنكن عثمتن به كما يذبحني، لأن والدتي على
 ما جلست عليه من خير ولطف، لا تهش لأمثاله من النازحين الغرباء،
 وقالت يوريكليا تجيبه: «يا بني لا تتريب على والدتك من هذا السبيل
 فقد احتسى ضيفك من الخمر مل، بطنه، حتى لقد أبى أن يذوق طعاماً
 بعد، وقد أبى إلا أن ينام على فراش خشن في الردهة الكبرى، ولا
 أدري لماذا تشبث بهذا». وأطلق تليماك إلى المدينة يتبعه كلباه. ثم أقبل
 الراعي يومايوس يسوق بين يديه ثلاثة خنازير كنانز من أسمن قطعانه،
 وما أن رأى أوديسيوس - الشحاذ الفقير في حسبانه - حتى قصد إليه،
 ولبت يسأله عما لقي من الخطاب العشاق - فذكر له أوديسيوس
 ما كان من وقاحتهم... وبينما هم كذلك، إذ أقبل الراعي السفهية،
 سليط اللسان ميلانتيس وهو يحذو قطعانه وماعزه، وطفق كدأبه
 يسب أوديسيوس ويرسل عليه وعلى يومايوس مانزح به فنه من شتائم،
 تحرشاً بالرجل الشحاذ الفقير، ولكن أوديسيوس لم يحرك ساكناً...
 وأقبل راع آخر يقود بقرة صفراء، يدعى فيلو تيوس، فوقف عند زميله
 يومايوس يسأله عن صاحبه الفقير الشيخ، وكأما راعته ملاحه وحسن

سمته : « إن له سياء كسياء الملوك برغم أسفاله ومزقه ا » ، ثم صافح
أوديسيوس وقال له : « مرحباً أيها الأب ا خفف الله عناءك ووضعه
عنك وزر ما تشكو ... يا للساء ا إن مرآك ليفجر الدموع في عيني
لأنك تذكرني بمولاي أوديسيوس الذي وكل إلى رعي قطعانه وأنا بعد
صغير حدث ، فسكبرت كما كبرت ، وتضاعف عددها ... ولكنني
وا أسفاه لا أفرح بسمنها ووفرة عددها ، بل إن الحزن ليرزح على نفسي
لأنها تسمن فتسكون غذاء لا مباركاً ولا هنيئاً لأولئك الظالمين ... ولولا
رجائي في السماء ... وأملى الكبير في عودة مولاي أوديسيوس لست أدت
من بعيد بسيد آخر أخدمه ، لأن الصبر على خبائث هؤلاء العتاة الطغاة
لم يعد في طوفي أحد ... وا أسفاه عليك يا مولاي أين أنت اليوم ؟
ألا ليتك تعرد فتبطل البطشة الكبرى هؤلاء الجبارين ا ... واغتبط
أوديسيوس بما سمع من كلام الراعي فقال له : « الله ما أشجعك أيها
الصديق ا ولكنني أبشرك وأطمئنك ، وأقسم لك أن مولاك عائد ما في
هذا شك ، وهو عائد عما قريب ، وستشهد عينك هاتان مصارع البغاة
الطغاة ا ... وبينما هما يتحدثان إذا بالخطاب يقبلون أفواجاً فيملأون
الهبوط ، ويجلسون إلى ولينهم ، ويشير تليماك إلى أبيه فيجلسه معهم . ويعد
له مائدة ومقعداً ، ويحضّر له من الشواء والخبز والشراب ما هو حسبه
ويقول له بمسمع من الجميع : « اجلس أيها السيد ولا تخش رهقاً ..
إني أمقت أن أسمع شخياً اليوم ، فالبيت بيت أوديسيوس وإني
لصاحبه ا ، وغيظ أنطيوخس فقال : « دعوه فقد حق له أن يقول

ما يشاء ، فتالله لولا أن حال جوف بيننا وبينه لأسكنتنا إلى الأبد
 أنفاسه ا ، وقال سفيه آخر : « طب نفساً يا تليماخوس وقرّة عيناً ،
 فهاك منحة منى لضيفك ، مضغة مشتهاة ا » ثم تناول عظمة من السلة
 القرية فقذف بها أوديسيوس الذي انحرف عنها فلم تصبه . وعندئذ
 قال تليماك مغاضباً : « تالله لو أصابته لأفصدتك برحى هذا فنغد في
 صدرك ، وخرج يلبع من ظهرك ، ولا نقلب العرس الذي تحلم به فكان
 مناحة تسوّز بيتك . . . إني لم أعد صبيّاً بعد فلا ترهبوني ا سترون
 كيف أستطيع أن أضع لكل ذلك حداً بعد إذ طفح الكيل ا ، وهنا
 هب لئيم آخر خبيذ في سخرية مقالة تليماك . . . « لأن من حقه أن
 يحمي ضيفه . . . » ولكن اسمع يا تليماخوس . . . لم لا تمضي إلى أمك
 وقد يئست من عودة أبيك فتطلب إليها أن تحضر فتختار البعل الذي
 يروقها من بيننا ؟ فتعمّل تليماك الكلام وقال : « هي حرة مطلقة
 الحرية . إني لا أقف في طريقها ولا أقصرها على شيء ا » وما كاد
 يفرغ حتى انفجر المناكيد يضحكون ويضحجون

ثم حدثت المعجزة ا

لقد تضربت وجوه القوم بحمرة الدم . . . ولقد تحركت قطع اللحم
 فوق الخوان فهي تقطر دماً أحمر كأنه يذيق من غلاصم قتلى ا ثم امتلات
 عيونهم بدموع غزار حرار . . . ثم طفقت دموعهم تسيل وتبهط
 وتنشق عن تهدات تصعد من سويداءات القلوب . . . ثم هذا
 نيوكليموس - الكاهن الابق - يشهد المعجزة ويرى النذير ، فينهض

غيرهم قائلا : « تعساً لكم أيها الأحماس لقد رسيء بكم ! ماذا نخبأ لكم المقادير يا ترى ؟ ما هذه الظلمات كأنها قطع الليل تغطش رؤوسكم وتزلزل أقدامكم ؟ وما هذه الدموع تتصبب من عيونكم فنشوى خدودكم ؟ أنظروا إن استطعتم ! ما هذه الدماء التي تخرج جدران القصر ؟ ما هذه الأشباح التي تكبظ البهو الخالد ؟ إنها تنهاوى إلى عالم الفناء فويل لكم ! أوه ! وتلك آية أخرى لقد كسفت الشمس فجأة وتوارت بالحجاب ! الضباب الضباب ! ما أروع الضباب ينتشر فيملاً ما بين الأرض والسماء ! ، وبالرغم مما أُنذر الكاهن فقد أغرق القوم في الضحك ، ولم يزدادوا إلا خبالاً ... وقال قائلهم ، وإنه ليور بما خوس : « ما أحسب إلا أن به رجئة ! خذوه فغلوه ثم في السوق صلوه ^(١) ، عسى أن يجد ثمت ضياء يمشى فيه ، إنه لا يجد ضياء هنا ! ! » .

وتلبت الكاهن فقال : « اربع عليك يا يور بما خوس وإن لي عينين وأذنين وإني لأرى وأسمع ... وإني نذير لكم من بلاء يحل بكم فلا يبق ولا يذر ... أيها الأفاكون المفسدون ! ، وانطلق الكاهن من القصر ... ولمز أحد الخطاب تليماك فقال : « ألا ما أتعسك في كل من ضيقت من ضيف يا فتى ! أما كان بحسبك هذا الفقير الشحاذ القدر الذي تطعمه ، ما عليه من سبيل ، حتى تجلب هذا المتفريق الذي يدعى النبوة ويرجم بالغيب ؟ » .

وصمت تليماك فلم ينبس ، وظل ينظر إلى أبيه ، ويرقب ساعة الجدد.

وما رميت إذ رميت ...

وكانت بنلوب جالسة في الحريم تسمع إلى ضجيج القوم وعجيجهم ،
فبدأ لها أن تضع حداً لهذا العبث العقيم الذي استمر كل هذه السنين
الطوال فأمرت بعض وصيفاتها فتبعتها إلى الخبأ الذي حفظت به أذخار
المالك وعتاده ، والسلاح الذي فرقت^(١) منه قلوب وارتعدت فرائص
وزاغت من هوله أبصار ...

لله ما كان أشجأها ذكريات حافلة بأروع ضروب المجد الهاهي ذى
تلك الرماح التي طالما لاعب بها أوديسيوس الأسنة ، والسيوف التي
طالما انتزع بها الأرواح ، والدروع السابغات التي كانت تدرأ عنه
وتحميه ، وتحفظه وتفتديه ... ثم ها هي ذى تلك القوس العظيمة معلقة
فوق الحائط تلعب وترقص من حولها المنايا ... القوس ذات الذكر التي
أهداها إلى أوديسيوس أحد المعجبين به ... ها هي ذى بعد هذه السنين
الطوال لم يحملها أحد غير أوديسيوس ، لأن أحداً غير أوديسيوس
لا يستطيع أن يثنى قوس أوديسيوس ، وفيها الوتر العرمد^(٢) ، الذي
لا يلين ولا يمين ولا يرمد ، إلا إذا كلبه أوديسيوس أو تناولت
بنلوب كنانة^(٣) السهام التي طالما قذفت المنون في قلوب الأعداء ،
وجلست تهزها في حجرها ، وتنتقي منها . وتبكي أحر البكاء ... لأن كل
سهم منها كان يهيج في قلبها ذكريات زوجها البطل .

وأشارت إلى وصيفاتها فحملن القوس العظيمة ، وحمالن (الدناجل) ،

(٣) بخلة

(٢) الصلب

(١) انزعجت ورجفت

ثم حملت هي السهام وسارت أمامهن ، وعلى وجهها نقابها السادر الحزين ؛
حتى إذا كانت عند الأمراء هتفت بهم فصمتوا ، ثم قالت لهم وفي صوتها
نبرة الحزن ، وموسيقى الآلام : « ها هي ذى قوس أوديسيوس وتلك
هي سهامه أيها السادة الأمراء فمن استطاع أن يثنيها فيرسل عنها سهماً
يخترق الدناجل الاثني عشر فإن له ، وهو صاحبي .. وعسى أن تمطل
السماء حجتم اليوم .. فقد طالما ذهبتم بخير هذا القصر ، وأرَعتم^(١)
من زاده بحجة أنكم خطابي ، كما استبحتم أن تسموا أنفسكم ، فإليك
القوس فانظروا ماذا تصنعون » وأشارت إلى الراعي يومايوس فسلم
القوس العظيمة ، وحملها معه زميله راعي الضأن فيلوتيوس ... ثم إن
الراعيين لم يطبقا ذكريات سيدهما التي حاجتها فيهما القوس فذرفا
دموعهما ثم استخرطا^(٢) في البكاء ... وانتهرهما أنطونيوس فقال :
« تباً لكما أيها الفلاحان القذران فيم هذا البكاء ! ألتهيجان الشجوة في
فؤاد سيدتكما؟ إنطلقا أيها المسخنان فابكيا بعيداً فتأله ما أحسب بكاء كما
إلا يزيد في صلاية القوس ، وتأله ما أحسب أحداً منا يبلغ منها
مأرباً ... » و«ى ! من مناله بأس أوديسيوس ! لقد كنت طفلاً ، بل
كنت وليداً ، حينما رأيت رجلاً ذا صولة وفتوة يهديها إلى البطل ...
أجل .. رأيت هذا بعيني هاتين .. وكان في كل ما قال ساخراً ... فقد
هياً له الغرور أنه بقليل من العناية سيثني القوس ويرسل السهم ويحظى
ببئلوب !

ونفض تليماك فقال إنه سيسهم في الرماية فإذا استطاع فإنه سيسبق أمه

لديه ولا يتركها تغادر. منزل أبيه أبداً... ثم حفر حُفَرَاً على خط
مستقيم فجعل في كل منها دنجلاً ونبت حولها بالحجارة والتراب... ثم إنه
تناول القوس العظيمة وألقمها السهم، وجمع قواه وطفق يشد. لكنه
فشل مشى وثلاث، وكانت القوس تشمخ عليه فلا تكاد تنثنى. حتى
إذا حاول الرابعة وأوشك أن يظفر، أو ما إليه والده ففهم ما يريد
وقال: «أوه! إنه لا يقدر على هذه القوس إلا من هو أقوى مني
وأكمل جسمانياً وأتم بنية... فليتقدم لها من شاء منكم حتى نرى!». ^(١)
وقال أنطونيوس: إنهم جميعاً مشتركون في التجربة حسب مقاعدكم،
حتى الكاهن.. فنهض هذا ويمشط الوصيد ^(٢) وحمل القوس الرهيبة
وحاول مائة مرة أن يثنيها فلم يستطع، فألقاها وقال: «أيها الرفاق...
ما أحسب هذه القوس إلا مؤسفة للجميع... لقد أوهنتي وذهبت
يُمْنَتِي ^(٣)... ألا فلتحملوا بامرأة أخرى غير بنلوب، فوالله ثم والله
إنها للرجل الذي كتبته المقادير له.. الذي يحضر إليها بما ليس في
وسعكم من كنوز ومن أذخار.

وغضب أنطونيوس وتجهم للكاهن ثم قال: «ألا ساء ما تقول
أيها الرفيق! أحسبت أننا نياس من هذه القوس لأنك لم تقدر عليها؟
ومتى كنت رجلاً جلاذ وجهاً، ومتى ثنيت قوساً أو أرسلت سهماً
أربع عليك ففينا الكثيرون الذين يستطيعونها بالقبائل الأقل من
الجهده ثم أمر راعي الضأن ملائتيوس أن يحفر حفرة ويوقد فيها ناراً
يجعل بها وعاء من شحم ليعالجوا به القوس عسى أن تلين قبل أن يُدُلُّوا

(١) الفناء والمقصود المكان الذي أعد للقوس والدناجل (٢) قوتي

دلوهم .. فلما كان هذا أخذ الأبطال كل بدوره يحاول أن يثني القوس ،
ولسكنها استعصت عليهم جميعاً ، ولم يبق إلا أنطونيوس ويوريماخوس ،
وهما أكثر هذا الجمع قوة وأوفرهم فتوة .

ثم نهض راعي الخنازير ، يومايوس ، ونهض في إثره صديقه الراعي
الآخر ، فخذا الخطى خارج البهو لما شاهدوا من يأس القوم ... وقد
تبعهما أوديسيوس ... فلما كانوا بعيداً قال لهما : « أيها الحبيبان . إذا
أرسلت العناية أوديسيوس في هذه اللحظة ليمطش بهؤلاء المناكيد
أفتحاربونهم معه ، أم تحاربونه معهم ؟ » ... فرمقه فيلوتيوس وقال :
« ديا للسماء اتالله لو صحت أحلامك لرأيت كيف أفتديدهم منهم بنفسى ومهجتى
وتالله لرأيت كيف يهتز سلاحى فيحصل رؤوسهم ويبعثر أشلاءهم » وقال
يومايوس مثل هذه المقالة .. ولما وثق من إخلاصهما كشف لهما عن
حقيقته فقال . « إذن فاعلموا أنى أنا أوديسيوس ، وهذه هى الندوب
التي أحدثها الخنزير فى ساقى ، وقد أثبت إلى وطى فجأة فلقيتكما أول من
لقيت ، وأكرمت مثنواى يا يومايوس وأنت لا تعرفنى ، ولم أشأ أن
أبدو للقوم حتى أعرف عدوى من صديقى ، ولم يكذب يفرغ من قوله حتى
انحنى الرجلان يشهدان الندوب ، فلما استيقناهما ، ذهلا عن نفسيهما ،
وجشوا عند قدمى مولاهما ، وطفقا يقبلانهما ويغسلانهما بدموعهما ،
ثم نهضا فألقيا سلاحهما عليه ، بيد أنه أمرهما أن يصمتا حتى لا يفضح
أمرهم أحد ... وقال لهما : « لا بد أن نعود أدر اجنا إلى البهو ، وسأطلق
أنا قبلكما ، وسأطلب منك يا يومايوس أن تعطينى القوس لأقوم بنصيبى
فى التجربة وسيرفض القوم أن أفعل ، ولسكنك يجب ألا تبالى ، بل تناولنى

القوس ثم تسرع بعد هذا إلى الحرم فتخبر النساء فيه ألا يُدْعَرْنَ
إذا سمعن ضجة أو عويلاً في البهو، أو شهدن حرباً وقتالاً. أما أنت
يا فيلوتيوس فتسرع إلى باب البهو فتوصده وتحكم إغلاقه حتى لا يفلت
منهم أحد أبداً. ثم مضى فجلس مكانه لدى الباب، وتبعه الراعيان...
وفي هذا الوقت كان يوريماخوس يحاول محاولته، وكان من وقت إلى
آخر يذهب بالقوس العظيمة فيعرضها للنار عسى أن يسهل عليه ثقبها،
لكن القوس أثبت مع ذلك أن تلين، فلما بلغ من يوريماخوس الجهد^(١)
ألقي بها يائساً وقال:

«تبدأ لها من قوس عبيدة، والعار الأبدى لما جميعاً يرافق أماننا
ولهذا؟ إن في إيثاكا حسناً، وإن فيهن أزواجاً ثراً أبكاراً لمن
يشاء! أوه! يا للخزي! أواه! لو لم تقل الأجيال المقبلة إننا كنا دون
أوديسيوس قوة وأقل منه فتوة حين عجزنا أن نثني قوسه!!
يا للخزي... يا للخزي!»

ورُوع أنطونيوس! وذهل عن أمره، ولم يشأ أن يخزي نفسه
بأن يحاول كما حاول غيره.. فوقف فقال: «ما أحسب القوس عبيدة
ولا مستعصية كما تزعمون... ولكن اليوم يوم عيداً بوللرب القوس
العظيم، فأني لنا أن نحمل قوساً اليوم! دعوها، واتركوا الأهداف
مكشاة، فلن يجسر أحد أن يدخل بهو أوديسيوس فيمضى بها، وفي
بكرة الغد يحضر ميلانيوس من قطعانه عنزات سماً فأنضحي بها لبوللو،
ثم تتم محاولتنا،

ولكن أوديسيوس هب من مجلسه فقال : « يا سادة ! ما دمتم لن تحاولوا الرماية اليوم فأرجو أن تدفعوا إلى هذه القوس لأجرب أنا أيضاً ، ولأرى هل لا تزال بقيمة من مُنَّة السباب مخبوءة في أعصاب ! أم أنها ذهبت بها جميعاً متاعب الحياة وكثرة التجوال في أطراف الدنيا ... » وجسَّ جنون القوم لما قال أوديسيوس هذا ، وعجبوا كيف يجسر شحاذ فقير مثله أن يطلب أن يشارك السادات في مهاراتهم ... ومن يدري ؟ لعلمهم ذعروا أن ينجح هذا الفقير فيما فشلوا هم فيه ... قال أنطونيوس : « أأخزن عليك لسانك أيها السليط الوقح ألا يكفيك أن يسمح لك بوجودك بين هؤلاء السادة الأحيار من أقيال ^(١) البلاد حتى تطلب أن تباريهم ! ، وكانت بنلوب تطلع فلم تحتمل أن تؤذى ضيف ولدها هكذا ، فقالت : « أنطونيوس ، أي لك أن تؤذى تلميذك في ضيفه ؟ بل ينبغي أن يحاول الرجل كما حاولتم ، فأما أنك تخشى أن يظفر فيما فشلتم فيه ... فلا ضير ... إنه لا جرم لبس يحلم مثلكم بأن أكون زوجة له ، فليفرخ روعك إذن ، ولتطمئنوا جميعاً ، وقال يوربماخوس : « يا ابنة إيكاريوس ما دار بخلدنا قط أن تكون زوجة له إذا ظفر ، ولسكننا خشيتنا أن يفضحننا في الناس فيقول : « عجباً لساتات إيثاكا وما حولها ؟ يطمعون أن يتزوج أحدهم امرأة البطل العظيم أوديسيوس ثم لا يستطيعون رمي سهم عن قوسه ، ويأتى رجل شحاذ فقير فيثني القوس ويرمى السهم وهم مع هذا لا يستحيون ! ، هذا ما خفنا أن يكون يا ابنة إيكاريوس وهذا ما خشينا أن يذهب

(١) أمراؤها و-كها .

بشر فنا ! » فقالت بنلوب : « لتعلمن يا يوريماخوس فليس في مثل هذا
يضيع شرفكم . . . ولكن الرجل ذو جسم طُوال ومظهر جبار ، وقد
ذكر آباءه فعلم أنه كريم العنصر طيب الأرومة ^(١) عريق الختد ^(٢) .
فلم لا يعطى القوس انرى ما يكون ؟ وإنه إذا ظفر فساخلع عليه
وأدفع له سلاحاً وأرسله أنى شاء ؟ ! » . ثم نهض تليماك فقال : « أماء !
إن القوس قوسى وإنى لصاحبها ، أعطيها لمن أشاء وأصونها سمى
أشاء ، ولن ينازعنى حتى أحد من العالمين ، ولو شئت لأعطيها الرجل
فتكون حتماً خالصة له ، وما سمحت لأحد أن يمنعنى . . . تفضلى أنت
فغلق عليك ابواب الحرم ، وانظرى فى أعمال البيت ، وصرى شئون
الخدم ، وخذى فى غزلك ونسجك ، وسننظر نحن فى أمر القوس ،
وسأرى أنا لمن تكون النوبة ، فإنى هنا سيد لامسود ! » . وشدهت
بنلوب قليلاً ، إلا أنها عرفت أن ابنها قال حقاً ، فانسحبت ، وغلقت
عليها أبوابها ، وانطرحت فى فراشها حيث واقفا مينرفا فسكبت فى
عينها غفوة هادئة لذيذة . فاستسلمت لسبات عميق .

وتقدم يوم ما يوس فحمل القوس وأوشك أن يذهب بها إلى أوسيسوس
لكن الأمراء زأروا مغاضبين ، فخشى الراعى ، وألقى القوس ثانية ،
فصاح به تليماك : « هات القوس هنا أيها الرعيد ^(٣) ، لئلا أود أن
أخلص منك ومن هؤلاء السادة الذين ترهبهم . . . » وسخر الأمراء
وضجوا ضاحكين . . . ولكن الراعى تقدم إلى القوس فاحتلمها .
وذهب بها قدماً إلى مولاه . . . وانطلق بعد هذا إلى الداخل فنادى

(١) الأمل والثناء (٢) اللبث (٣) الجبان

المرضع يوريكليا وقال لها : « إن مولاي يأمرك أن تغلقى جميع الأبواب ، ويقول لك إنه إذا سمع النساء ضجة في الهو أو قتالا فليجلسن حيث هن ولا يزعجن ، وإياخذن في عملهن ، أسمعين ؟ » .

وغلقت المرضع الأبواب وبلغت رسالة مولاه . . . ثم هم فيلوتيوس ففلق باب الهو وأحكم إقفاله وربطه بسحاب^(١) طويل كان لسفينة وألقى لدى الباب ، وعاد جلس مكانه وعيناه لا تريمأن عن مولاه . . . وتناول أوديسيوس القوس فجعل يفحصها ويبحث في أجزائها ، عتافة أن يكون السوس قد نخرها إذ هو ناء عن بلاده . . . وزاغت أبصار القوم ، وجعلوا يُبرقون في الشحاذ الفقير ويقولون : « الهيلزوف^(٢) الزنيم ! إن له لسميئاً فاحصة كأن لها عهداً بالرامية ؛ وإنه ليبحث القوس . كأنه يقتنى أمثالها ! » ثم قبض أوديسيوس على القوس ، وشد طرفها في سهولة وفي بسر ، كما يشد الموسيقى وترأ من أوتارقيثاره ، ونظر إلى الأهداف المتراصة أمامه ، وأرسل سهماً اخترقها جميعاً ، وسمع له صوت كستقسفة العصافير . . .

يا عجباً ! ! لقد أراش أوديسيوس السهم ، وأرسل زيوس العلى زلولة ورعداً مدوياً وثب له فؤاد البطل ، وطارت منه ألوان القوم ، وانقذف الرعب في قلوبهم . . .

(١) في القاموس السلب لحاء شجر باليمن تعمل منه الحبال ونحسب أن منه إطلاق السلب على الحبال الفليظة في مصر فلم نر بأساً من استعماله بهذا المعنى .

(٢) الهلوف بتشديد اللام وزان فردوس الثقيل الجاني البطين ونحسب أن منه نحت المصريين كلمة هلقوت وقد استعمالها لظرفها ومناسبتها كثيراً للمقام .

ثم أخذ أوديسيوس سهماً آخر فنبثته ، ثم أراشه فاخترق
الأهداف مرة أخرى ...

قال أوديسيوس : « تليماخوس أيها العزيز ! إن ضيفك لم يخب
رجاءك ولا أضاع عشمك ^(١) ، ولقد أصبت الأهداف كلها على حداثة
عهدي بالرمية .. والآن ، هلم فإن النهار يوشك أن يولي ، وإنه لينبغى
أن نعد وليمة المساء للسادة الأمراء ، ولن يعدموا بعدها ما دأبوا عليه
من رقص وعزف ، وقصص وغناء ... »

وهم تليماك فالتى حمائل سيفه على كاهله ، وتناول ربحه العظيم ...
وسنرى !

(١) في القاموس العشم الطمع .

الانتقام المصالح

وَأَلْقَى أوديسيوس أسناله، وأطرح مزقه، وبرز للملأ أوديسيوس
القوى الحديدى الجبار، وتناول كمثانة الأسهم التى تمسهم فيها المنيا
وتغمخهم، والقوس العتيقة العتيقة، ووقف عند الوصيد حتى لا يفر أحد
من أعدائه فينجو من الموت الذى هو ملاقيه، ثم نشر الكمثانة عند
قدميه وهتف بالعشاق يقول: « وهكذا يا سادة تتم فصول المأساة،
وهكذا أيضاً تنتهى المباراة التى لم يقز فيها واحد منكم .. والآن ..
أنظروا إلى أن أسدد سهامى إلى هذه الأهداف بعد، بل إلى مسدها إلى
غرض آخر... » وشد الوتر العرود، وأرسل إلى حلقوم أنطونيوس
سهماً مبرأشاً عجلاً به إلى هيدز. وكان العليج^(١) يوشك أن يحتسى كأساً
ذبية من أعتق الخمر، فسقطت الكأس من يده الذاهلة. وسقط هو
يتشخط فى دمه،^(٢) ويلفظ أنفاسه. وذعر الآخرون حينما رأوا أخاهم
يسقط إلى الأرض رمة لا تنفس فيها ولا حراك، فهاجوا وماجوا، وهبوا
يبحثون عن أسلحتهم. ولكن، هيهات! لقد أخفاها أوديسيوس وولده
ليلة أمس.. فأنى لهم بها!! وصاحوا بأوديسيوس: « أيها المجنون لقد
أخطأت المرمى! ماذا أصابك؟ إنك تسدد إلينا؟ لقد قتلت أنبل شباب
إيثاكا، ثكلتك^(٣) أمك! لن تحمل بعد هذه قوساً أبداً.
وليكشف الستر، وعاد إلى الشحاذ الفقير عنفوانه، وانقذت من

(١) العليج الحمار والعير والبيد القلب الفاقد الشعور

(٣) قدتك

(٢) بتقلب

فنه الخُمَمَ فقال : « أيها السكّاب ا فال (١) ما زعتم أن أوديسيوس
 لن يثوب ! هاأنذا أيها العميد ! لقد استبحتم حتى يلقى وأذلتم قدسه
 الحرام ، وأوضعتم (٢) في الفتنة واعتديتم على نسائي ، ولن تبالوا أن
 تتعشقوا زوجي ، بينما رجاها حتى يسعى على قدميه ، غير عابئين بمن
 يطالع عليكم في السماء وهو بكم محيط ، ولا مهالين بما تضح به الرفات
 السكرية في ثرى هذه الأرض من فعالكم ، فويل لكم ، لقد حار حينكم . . .

وارتعدت فرائص السكّاب كما دعاهم أوديسيوس ، وطارت حمرة الخمر
 من خدودهم ، ووقف يوريماخوس متخاذلاً وهو يقول : « إن كنت
 حتماً ما سكتنا أوديسيوس فكلنا نعتذر عما ارتكبناه من الإثم في بيتك .
 ولقد تسكمت فقلت الحق كل الحق ، ولكيك قد أردت أنطونيوس
 الذي دعانا إلى كل ذلك والذي أن يطمح أن يتربع على عرشك ويملك
 كما سكت ، فاعف عنا واصفح عن خطايانا ، فنحن بالرغم من كل
 ما حصل شعبك الأمين . ورعاياك الأوفياء الأولياء . . . على أننا
 سنحضر ضحك مما استبحنا مالا بمال وعتاداً بعتاد ، . فقال أوديسيوس :
 « يوريماخوس أيها النذل ! إنكم مهما ملأتم يدي بالذهب فلن تشفوا
 سحردي (٣) وإن تذهبوا غلتي (٤) حتى أتقيم منكم جميعاً لما صدر عنكم
 من إفك ، وما ارتكبتم من أوزار ! فاخترأوا لكم ! الحرب التي جدت
 بكم فجدوا بها ، والقتال الذي لا يحصى منه ولا يحمد عنه ، أو . فالفرار
 الفرار . . ولن نجدوا إلى الفرار سبيلاً . . . وزلزل الجميع زلزالاً شديداً ،

(١) خاب (٢) أسرع (٣) غيظي (٤) ظمئي

وجفت ألسنتهم في حلوقهم فما عرفوا ماذا يحبرون ، ثم هتف فيهم
يوريماخوس فجأة يقول : «أيها الإخوان، لقد تحجر قلب هذا الرجل فلن
يعرف سبيلا إلى الرحمة . وقد قبض على القوس بكلتا يديه ، ووقف
عند الوصيد يذودنا عن الباب ، وإن يفلت أحد منا من سهامه قط ، بل
إنه سيقنصنا واحداً بعد واحد .. ولا أرى إلا أن تفرروا إلى سيوفكم
فتخترطوها^(١)، وإلى المناضد فتدّرعو^(٢) بها ، ثم نهجم عليه كرجل واحد
عسى أن نزعزعه عن الباب فننجو بأنفسنا ونلوذ بالفرار فإذا ، بلغنا المدينة
فإننا سالمون » ثم فرغ من صيحته واستل سيفه ، وهجم على أوديسيوس .
مرعداً مزجراً ، ولكن أوديسيوس أصماه بسهم في صدره فصرعه ، وخر
اللثيم يعالج سكرات الموت ، وانتشرت ضبابة الفناء الأبدى على وجهه .
المقبوح فأطبقت عينيه ... وهنا .. هاج الأمير أمفينوم وماج وهجم على
أوديسيوس بسيفه الذي تقطر من حده المنيايا ... وكاد اللثيم ينال من
خصمه منالاً لولا أن ففز تليماك برمحه العظيم فأغمدته في صدره وردده عن .
أبيه وعاد مكانه دون أن ينتزع الرمح مخافة أن يتكاثر عليه الأعداء .
وقال تليماك لأبيه : «أبتاه إنه يجب أن نستعد بسلاح أكثر . . . وإني
ذاهب فمحضّر ما نحتاج إليه وعائد بسرعة البرق » فقسال أبوه وهو
يقصّد^(٣) القوم بسهامه : هلم يا ولدي وهات ما استطعت ، فلشد ما أخشى
أن تفرغ هذه السهام فلا أستطيع أن أدفعهم عن الباب ... ، وانطلق
تليماك إلى غرفة السلاح ، فأحضّر ما مست إليه الحاجة من رماح وسيوف
وخوذات ، وادسرع بما هو حسبه منها ، ثم ألبس الراعيين الأيمنين

(١) آستلوها (٢) تغذوها دروعا (٣) أقصده بسهمه أى إصابة

درعين سابختين^(١) وزودهما بسيوفين بشّارين ، ووقف الثلاثة إلى جنب البطل العظيم يمنعون تكاثر العشاق عليه ، بينما دو يرسل سهامهم فتخترقهم وتستأصل شأفتهم واحداً واحداً ، حتى إذا فرغت سهامه ، وقف الأبطال الثلاثة يذودون من دين الباب حتى لبس أوديسيوس دروعه ووضع على رأسه خوذه ، وأخذ يحين عظيمين في كاتبا يديه ، وعاد إلى كفاحه ، وكانت في الجانب الآخر من البهو بوابة صغيرة لم يفتن العشاق إليها . فأرسل أوديسيوس راعي الخنازير ليحرسها وليحول بين العشاق وبينها .. وضاعت الدنيا حتى غدت كيكفة الحابل في أعين القوم ، وتجهمت لهم حتى غدت كالليل البهيم التي غواشيه فوق رؤوسهم . وناء بكلب كاه على صدورهم .. فقال قائلهم : « ألا يستطيع أحد أن يمرق من البوابة فيصيح بأهلنا ويستنجد لنا ؟ » ..

فانبرى له ميلاتيوس^(٢) يجيبه : « هذا عبث لن يكون وراء طائل فإن رجلاً واحداً يستطيع أن يفتحنا جميعاً لو فعلنا ، دون أن نبلغ الباب ... بل لدى فكرة ... إنى أعرف أين حباً أوديسيوس وابنه أسلحتنا ، وسأطلق فأحضر لكم منها ما يقيمكم منها ... ، ثم تعلق بحبال مدلاة من كوة في السقف وتسلق عليها حتى نفذ ثمت ، وانطلق إلى غرفة السلاح فأحضر اثنتي عشرة درعاً ورمحاً كثيرة وخوذات ، وظل يلقى بها من الكوة فيتلقاها رفاقه ويدرعون بها .. ولو كان مع أوديسيوس سهم واحد يرسله إلى هذا العليج قبل أن يتعلق بالحبال لما استطاع أن يحضر

(١) ضافيتين .

(٢) هو الراعي الخائن الذي أصبح ضلعه مع العشاق ضد مولاه أوديسيوس .

هذه العُدد. قال أوديسيوس : « أى بنى لقد خاننا ! بعضهم ودل القوم على غرفة السلاح ، فانظر كيف يتضاعف عناؤنا وين يد بلاؤنا ، فقال تليماك : « كلا يا أبتاه ، إنه لم يخنا أحد ، والذنب ذنبى ، فقد تركت باب الغرفة دون أن أوصده... يوم ما يوس انطلق فغاصت باب غرفة السلاح وأحضر مفتاحها ، وانظر هل خاننا أحد ، أو أن هذا من فعل ميلانتيوس كما كما أحدىس ! » وانطلق يوم ما يوس فرأى ميلانتيوس ذاهباً إلى غرفة السلاح ليسحضر معدداً آخر ورماحاً ، فقال الراعى : « ها هو ميلانتيوس الوغد منطلق إلى الغرفة كما حدس مولاي ، وهتف بتليماك : « ها هو ذا ! ها هو ذا ! هل أحضره حياً ليلقى جزاءه أم أقتله حيث هو ؟ » فقال أوديسيوس : « بل اذهب أنت وأخوك الراعى فشدوا وثاقه واحبساه فى الغرفة حتى يلقي جزاءه ، وسأبقى أنا وتليماك لنذود دون الباب ، وانطلق الراعيان فوقف كل منهما خلف مصراع من باب الغرفة حتى إذا برز ميلانتيوس انقضا عليه وكبلاه ودفعاه داخل الغرفة ، ثم ربطاه فى عمود هناك . وقال له يوم ما يوس « اهنا يا صاح وارقد هنا إلى الصباح ، وأكبر ظنى أن الشمس لن تشرف عليك إلا وروحك فى عالم الظلال والأشباح ، فلا تراك قطعاً بعد اليوم ، وأغلقا الباب وعادا أدرجهما إلى مولاها وولده ، ووقف الأربعة يناضلون جحفاً بأكمله . ثم بدت مينرفا الحكيمة فى زى منطور وطيلسانه فعرفها أوديسيوس وفرح بها قلبه ، وهتف بها قائلاً . « منطور أيها العزيز ، معونتك وتأيدك ، فبحن صديقان منذ التدم ا » وهتف العشاق ينادون : « احذر يا منطور وإلا فتلقى

حتفك بعد أن نظفر هذا الوغد . ولحظت مينرفا ذعر أوديسيوس
بما رأى من تسليح القوم فقالت تؤذيه وتحته : ما هذا التماسع عن
الحلبة يا أوديسيوس ؟ هل قدمت شجاعتك وعنفوانك ؟ إنك ما أحجمت
مثل ما تحبهم اليوم طوال عشر سنوات حاربتها في طروادة من أجل
هيلين ، فهل يشق عليك أن تلقي هذه الحفنة من عتاق بنلوب في بيتك .
بل في عقر دارك ؟ هلم اقف إلى جانبي وانظر إذا كان منطور قد عق
الصداقة القديمة ا » .

وحاربت معه ساعة ، ولمكنها تركته ليعمل للنصر بمفرده .
وانسحرت فكانت عصفوراً من عصافير الجنة جعل يرف ويرف في
سماء الهو ، حتى وقف على إحدى خشباته ... وفرح الدشاق لمارأوا
من مفارقة منطور ، وعادت إليهم بعض شجاعته لمارأوا المحاربين
الأربعة يقفون وحدهم في مدخل الباب الكبير ...

وقال أحدهم يخاطب الباقين : هلموا فليقذف ستة رماحهم قذوة
واحدة إلى صدر أوديسيوس ، فإنه إن سقط استرحنا منه ، فلن نلقى
عناء من الباقين ، وليأه أصحابه ، فقفزوا برماحهم في صدر أوديسيوس ،
ولكن ... هيات ... إن واحداً منهم لم يصب غرضاً من الصدر العظيم ...
وهنا ... هتف أوديسيوس برفاقه ، فانقض الأربعة على أربعة من المهاجمين
فجعلوا في صدورهم رماحهم ، ورد الله كيدهم في نحورهم ، فقتل كل
مهاجمه ... ووسع الآخرون فارتدوا على أعقابهم ، وانزوا في الركن
السحيق من الهو ، وبهذا استطاع أوديسيوس ورفاقه انتزاع الرماح من

صدور المقتولين... ولم يهتم الراعيان بما أصابهما من جراح بالغة ، بل وقفا
 يناضلان ويفديان سيديهما .. ولما رأت ميرا فاما يلقي المحاربون الأربعة
 من تسكائر الأعداء رففت في الهواء ، ثم كشفت عن درعها الهائلة التي
 تجلب الموت إلى كل من يراها ، ووضعت خوذةها الرائعة ثم انبرت للقوم ؛
 وهم المحاربون الأربعة يطاردون الأعداء ، والأعداء يحربون من ههنا
 وههنا مذعورين ذاهلين مما رأوا من درع ميرا فاما... وجعل أوديسيوس
 ورفاقه يصطلحونهم^(١) أربعة بعد أربعة... حتى لم يبق إلا المنشد المسكين
 فيميوس ، الذي قسسه العشاق على الإنشاد لهم ؛ وتطريههم تطرياً لم
 يؤثره ، ولم يؤجر عليه... لقد فزع المنشد المسكين من هول المجزرة...
 وانطرح تحت قدمي أوديسيوس يقول : «مولاي أوديسيوس العظيم !
 ارحمني واغفرني فقد قهرني القوم على ما رأيت ! اصفح عن المنشد البائس
 الذي يدخل السرور على أفئدة الآلهة ، ويذهب الحزن عن قلوب الناس ،
 وهتف تليماك بأبيه يقول : «اصفح عنه يا أفي ، فإنه لا تريب عليه ولا
 لوم... وهلم تنقذ المنادي إن كان لا يزال به رمق ، فلقد كان يعني بي إذ أنا صبي
 في المهد ! ، وكان المنادي قد فزع مما رأى ، وخبأ نفسه تحت مقعد كبير ،
 ثم طرح عليه جلد ثور ، فلما سمع تليماك يقول لأبيه هذا القول ، برز
 من مكانه ، وتعلق برجلي تليماك ، وأنشأ يتوسل ويتضرع ، ويبي
 ويتصدع فقال له أوديسيوس : لا تجزع أيها الرجل ، فلقد أنقذك ولدي
 كما أنقذ المنشد... اذهباً فانتظرا في الرحبة ، فعندى ما يشغلني عنكما
 الآن... وانطلق الرجلان وهما لا يصدقان أنهما نجاوا ، وجلسا عند المذبح

(١) يستأملونهم

يَنتظران قتلتهما في كل لحظة... ثم مضى أوديسيوس يبحث في البهو
وتحت المناضد عن يكون به رمق من الحياة فيجهز عليه ، بيد أنهم
خروا جميعاً مضرجين بدمائهم في التراب ، وقد تككبوا فوق بعضهم
كالسمك فوق الساحل يقذف به الصياد في يوم صائف... ثم قال
لأبنة أن يدعو الموضع العجوز يوربكليا ، فأقبلت ورأت أوديسيوس
واقفاً كالمارد بين القتلى وقد لطخت الدماء يديه ورجليه وصدره ،
فكادت المرأة تجن من الفرح لهذا النصر المبين الحاسم ، وأوشكت
أن تصيح وتزغرد ، لولا أن ردعها أوديسيوس عن ذلك : أبنتها
الموضع العجوز اكتسب فرحتك ، فإنه ينبغي ألا تكون شماعة فوق
جثث القتلى ، وألا يكون صياح ، لأنها إرادة السماء قد نفذت فيهم
بما أسرفوا من قبل وكانوا من المفسدين ! ثم أمر بالبحث أن تحمل
خارج القصر . وبالدماء أن تغسل ، فتم ذلك في أقصر وقت ، والتفت
إلى الموضع يحدثها ويقول : « رأيت ؟ اذهبي الآن فأحضري ناراً
وكبريتاً كيما نطهر الحجرة ، ثم أخبري بنلوب أن تلقاني هنا ، .
فقال العجوز « سمعاً وطاعة لك يا بني ! سأفعل ما أمرت ، ولكني
سأحضر لك ثوباً تلبسه قبل كل شيء فإنه لا ينبغي أن تظل واقفاً هكذا
في أسماك هذه » بيد أن أوديسيوس أمرها أن تفعل ما أخبرها من
فورها ، فانطلقت العجوز ، وعادت بالنار والكبريت ، وأخذ
أوديسيوس في تطهير البهو الكبير .

بنلوب... وأخيراً... بنلوب !

وهرولت الموضع العجوز فصعدت إلى الطابق العلوى ، حيث

كانت سيدتها المحزونة تتقلب على فراش الهموم والأحزان فتهتفت بها وهي تضحك ، وتسكاد تجن من الفرح : « هلمى يا بنيتى فاشهدى بعينيك كيف حققت الآلهة أحلامك واستجابات لصلواتك ... هلمى .. لقد عاد أوديسيوس وبطش البطشة الكبرى بأعدائه فتمتلهم عن بكرة أبيهم بعد ما كان من خباياهم ، وبعد ما استباحوا من حرمانه وما أراغوا من خيريه وهزئوا بولده ... إنهضى ا » .

ولم تصدقها بنلوب ، وقالت مستهزئة بها : « لشد ما عدوت طورك وغبت عن صوابك أيتها المروضع العزيزة حين توقظيني بمثل هذا العبث وذلك الحديث الملفق ا لقد حرمتنى من غفوة يالها من غفوة لم تكبجل عيناى بأهدأ منها ولا أروح منذ أن فارقتنا أوديسيوس إلى الأرض المشعومة ... تالله لو حصل مثل هذا بمن هن دونك سناً ومنزلة من الخدم لكان لى معهن شأن آخر ... ولكن ... لا عليك يا يوريكليا . » فتبسمت المروضع ثم قالت : « وى ا تالله إنه للحق ، ولا مريّة فيما أقول .. إنه هو الشحاذا الفقير الذى كلمك ، والذى عيث به القوم وقد كان يعرف تلميأك كل ذلك ، ولكنّه جعله سرّاً بينه وبين أبيه حتى يثار من الأمراء ويستأصل شأفتهم ا » فوثبت بنلوب من سريره مسبوحة^(١) ذاهلة ، وطوقت بذراعها عنق يوريكليا ، وأنشأت تقول : « خبرينى بالله عليك أيتها العزيزة .. خبرينى بالله عليك .. إذا كان ما تقولين حقاً فأنى لأوديسيوس أن يلقى وحده كل هؤلاء ؟ وأنى لواحد أن يهزم فيلقاً من مائة أو يزيدون ؟ » فقالت المروضع : « لعمرك

ما رأيت كيف حدث هذا الأمر . ولكنني سمعت بأذني هاتين أنين القتلى ... لقد كنا جميعاً جالسات داخل القصر ، وفرائصنا ترتعد من الفسّر^(١) ، وكانت النوافذ كلها مغلقة بأمر سيدي ، حتى أقبل تلياك فدعانا إلى البهو ، حيث رأينا أوديسيوس واقفاً بين الرمم ، وهو الآن يظهر البهو من أدرانهم بالنار والكبريت ؛ والمدفأ يتأجج بلظى كاللجيم ، ولقد أرسلني لأدعوك إليه حتى يفرح بك ، ويطمئن قلبك ، بعد طول العذاب » وكانت العجوز تتكلم وهي ما تنقطع عن الضحك والمرح ، فقالت لها بنلوب : « أيتها الموضع العزيزة لا يقتلك الفرح والصخب ... تألقه إنه لن يفرح بأوديسيوس اليوم أحد كما أفرح به أنا وولدي تلياك ... هذا إن كان ما قلت حقاً ... على أني لا أصدق ... لا جرم إنه إله كريم أقبل لينتقم لنا من هؤلاء العرايب جزاء ما أزلوا بنا من هوان فأبادهم جميعاً .. أما أوديسيوس فلا ! لقد قضى أوديسيوس وقضى أوديسيوس إلى الأبد ! » فقالت يوريكليا : « ألا تزالين غير مصدقة يا طفلي (١) العزيزة ؟ ألا فاسمعي ! هاك دليلاً آخر ؛ بينما كنت أغسل قدمي الرجل الفقير اللاجئ تحسست يداي ندبة في ساقه ذكرتني بالندوب التي أحدثها الخنزير البري في ساق سيدي أوديسيوس ، فلما كشفت عنها تبينتها ، وتأكدت أنه هو ، وأردت أن أصبح بك لأخبرك ، وأزف إليك البشرى . لكنه أطبق يده على فمي فلم أستطع أن أنبس ... تعالى ! هلي معي الآن وانظري بعينيك لترى ! إن كنت كاذبة ، تعالى جئكِ فداك ! » وانطلقتامعاً ، وأطافت المذكرات برأس بنلوب ، ولم تدر ماذا عساها فاعلة إذا كان ما أنبأت

به الموضع حقاً... فلما دخلتا البهو جلست بنلوب على مقعد كبير قريب من المدفأة، ثم طفقت تُحدِّثُ بصرها في أوديسيوس، وكان جالساً وظهره إلى عمود من عماد البهو، وعيناه ينحشان في الأرض، وكأنه كان ينتظر أن تتكلم بنلوب قبل أن يفوه هو بكلمة... بيد أنها لم تنبس، بل كانت ذاهلة شارد، تنظر إليه مرة فتوشك أن تعرف فيه بعلمها الحبيب ولسكنها كانت إذ انظرت إلى مرقه وخرقه، والأثمال التي لا تستر بعض جسمه الهائل عجبت، وتولاها الدهش، وانعقد لسانها فما يكاد يبين.

وقال تليماك آخر الأمر: «أما انشد ما تحجر قلبك وغلظت كبديك! لم لا تهضين فتعانق أبي! أية زوجة ينحبس لسانها كما انحبس لسانك، فما تكلم زوجها الذي آب من سفر سنين كلها أشجان وكلها أحزان، وكلها آلام متصلة ومتاعب تنوء بحملها الجبال!»، فقالت أمه تجيبه: «تالله يا بني لقد ذهلت عن نفسي وإني لفي تيهٍ فما أكاد أبين... ولكن إذا كان حقاً أوديسيوس، فإن لنا علامات هي سر ذاتِ يميننا، ولا يعرفها أحد سوانا، فتبسّم أوديسيوس وقال: «لا عليك يا بني ادعها فستستبين حقيقتي حين أخلع هذه الأسمال، ثم انتحي وولده ناحية، وأسر إليه أنهما ينبغي أن يتهايا لما عسى أن يكون من تألب الإيثاكيين عليهما وشغبهم لما كان من قتل ساداتهم، وما يتوقع من قيامهم بشورة عامة لا تبقى ولا تذر للانتقام من القاتل... وذكر أوديسيوس أنهما يجب أن يقيما في البهو فيأخذنا في مثل ما كان العشاق يأخذون فيه من قصف وعبث ومجانة...»

وحسب المارة أن بنلوب قد اختارت بعلمها من بين الأمراء... دفي لم تعد تطيق الوحدة ، ولا تحتمل الترمثل ، ولا تقوى على حياة الآمال الكواذب التي تجرعت غصصها مدى عشرين عاماً ، أما أوديسيوس فقد مضى فاستحجم وتضمخ بأحسن الطيوب ، وأضفى عليه من كل سابري وفوف^(١) موشى ، ثم نزلت مينيرفا فنفخت فيه من روح الشباب . وسكبت في عروقه من دماء الفتوة ، ومسحت بيديها السكريمتين على وجهه المجمع ذى الأسارير ، فأشرق وتألق ، وهذلت شعره على كتفيه غداير فاحمة كقطع من الليل البهيم . ثم إنه انطلق إلى البهو فجلس تلقاء بنلوب وأنشأ يقول : أيتها الزوجة المعجبة ! أما والله لقد ركبت الآلهة بين جنبيك قلباً ليس كقلوب النساء . . . وأى امرأة تنتبذ من زوجها مكاناً قصياً كما تنتبذين يا بنلوب . . . بعد إذ عاد إليك من تجوال عشرين سنة كمن قلاقل وأهوال . . . يوريكليا ! هلى فامهدى لى فراشاً بيديك الضعيفتين ، ما دام الحديد البارد الذى خلق منه قلبها لا يلين ! ، ومع كل هذا فقد كان الريب يرين على فؤاد بنلوب . فقالت تحتبره : « مولاي ! إني وأيم الحق لا معجبة ولا فى خيلاء ، ولكنى أذكر أحسن الذكر كيف كنت يوم همت بك سفينتك الجبارة إلى طروادة . . . يوريكليا ! إذ هبى أيتها الموضع فأحضرى سرير زواجنا من الخدع ، واجعلى عليه الوسائد والحُسابات^(٢) ليسترخ عليه مولاك كما أمرك » وعجب أوديسيوس لما تكلمت به زوجته ، فقال : « إنك يا زوجتى

(١) السابري الثوب الرقيق الجيد — والفوف مثله .

(٢) الحُبانة الوسادة الصغيرة .

تمزقين نياط قلبي بما تقولين ! أنى لأحد ما من العالمين أن يحرك سريري
بله أن يحمله ، إن لم تسكوني قد أطلعتك على سره ؟ لقد صنعت مخدعي
واتخذت سريري في جذع الزيتون الهائلة ... فهل لا يزال سريري في
موضعه ثمت . أم أن أحداً قطع الجذع العتيد واحتمل السرير إلى
مكان بعيد ؟ ، وهنا ، مادت الدنيا برأس بنلوب ، وتأكدت
أن الرجل زوجها من غير شك ، يخفق قلبها خفقاناً شديداً ، وانطلقت
تعدو نحوه ، ثم طرقت عنقه بذراعيها ، وراحت تبكي وتنتحب ،
وتقول له : « لا تنقم عليّ إذآ يا أوديسيوس . ولا يحركك أننى لم
أعرفك منذ أول نظرة ... أو اه أيها العزيز ! لقد قضت الآلهة أن
نفترق وأن نتعذب كل هذه السنين ، وما كان من شكى فهو أثر من
احتراسى خشية أن يخدعنى أحد فيدعى أنه أنت ، أوزيرخرف على
ويهرج حتى ينالى بالخداع والحب . . ولكن مادمت ذكرت لى سر
المخدع والسرير والزيتونة ، وهو ما لا يعلمه أحد غيرى وغيرك وغير
يوريكيا ، فالآن فاهنأ ، ولأهنأ أنا ، وليطمئن قلبي ... قلبي الوفي
الذى أردته إليك كآخر عهدك به ، لا ينطوى إلا على حبك . ولا يضم
غير الوفاء لك ... » وعانقها أوديسيوس ... وضم إلى صدره صدرها ...
والتف حول عنقه ذراعاها البضتان البيضاءوان — وجمد عاجهما
الناعم الأملس حول كاهله ، ووقف أوديسيوس على شاطئ الذكري
كما يقف السباح المتعب المنهوك على شاطئ البحر وقد بلغه بعد جهده ،
فأعضاؤه مترامية ، وأعصابه موهنة ، وقلبه خفق ، وروحه نشوى
وذراعه مع ذلك معلقتان بالشاطئ وقد سمّرتا فيه ... وقال بعد لآى :

« والله يا زوجتى العززة إنا ما بلغنا بعد نهاية أُنجاننا وأحزاننا ، وإن
أمامنا لأمدأ بعيداً وهموماً آخر تنهأ لى عنها المكاهن تيريزياس حيسا
رحلت إليه فى همدز . وإنى لا أدرى ماذا يكون من أمرى ... ولكن
... لا ... لننطلق الآن إلى مخدعنا العزيز الطاهر فإن فى حاجة إلى
الراحة والاستجمام ... »

فقلت بنلوب : « المخدع الطاهر النقى معسد فى أيما خطة أردت
يا أوديسيرسى العزيز ... بيد أنك أثرت شجنى وفزعت شجنوى مما
ذكرت عما يتربص بنا من هم جديد ، فهلا ذكرت لى ماذا زعم لك
تيريزياس فى العالم الآخر ؟ إنى مشوقة إلى ما قال ، فاذكره بحق الآلهة
عليك ، فأجاب أوديسيرسوس « عمرك الله لم تسألين عن أمر إن بيد
لك يسؤك ؟ ! ولكن لا ضير ... سأذكر لك ما نهأتى به تيريزياس ،
ثم وجم قليلا وقال : « لقد أشار أن أحمل مجدافا عظيما على كاهلى ، ثم
أنطلق مهاجرا إلى ممالك نائية وأصقاع سحيقة ، حتى أكون فى قوم
لم يسمعوأ عن البحر قط ، ولم يروأ فى حياتهم مجدافاً ولا سارية ، فإذا
لقيت أول من يسألنى عما أحمل ، فبهل هو منذرة مما ينسف به القمع ،
غرسست المجداف فى الأرض ، ثم تقربت إلى إله البحار نبتيون الجبار
بقرايين تمحو ما بينى وبينه ، وتعقد بيننا أواصر السلام والوئام . كما
تقربنى إلى أعوانه الآخرين من آلهة الماء ، فإذا فعلت استرحت من
لأواء الحياة ، ونأت عنى أرزاؤها ، وعدت إلى شعبي وإليك ، وإلى
ولدى وقصرى فعشت بينكم بسلام ، حتى يأتينى الموت ، هادم اللذات ،
من أعماق البحر ؛ ولكنه سيكون موتاً طيباً لا مخوفاً ولا مرهوباً ،

بل سكرة بين أَمْنَةٍ ونعاس . بعد إذِ الجسم موهون ، والقلب فارغ ،
والرأس مشتعل والروح سالية قالية . .

وهكذا ظل الحبيبان المشوقان يتحدثان قِطْعاً من الليل ، بينما
كانت الممرض وعادمة أخرى تمهدان الفراش على ضوء المشاعل . . .
ثم أقبلت الرصيفة فذهبت تمشي بين أيديهما إلى المخدع ، وفي يديها
المشعل المقدس يفيض نوراً ولألاء كما أفاض منذ عشرين سنة . . .
ولفهما ظلام الليل ، وسِترُ الهوى . . . وسكن اليهو بعد ماضج
بالعزف والقصف ، وهذا القصر في سدول السعادة .

أوديسيوس يصل إلى إيتاكا

وهتف هرمن بأرواح القتلى فهمهمت ، ثم أشار إليها بعصاه فسحرت
السكرى منقلها ، ثم أشار كره أخرى فأهرعت في إثره كما تهرع الخفافيش
في إثر دليلها .

وانطلق حبيب الآلهة فعبّر عباب البحر المحيط ، وعبرت الأرواح
الهائمة في إثره ، وجاز صخرة لوكيديا ، وبوابة الشمس الخالدة ، ثم
انطلق . والأرواح الهائمة من خلفه ، في تيه الأحلام ، وعبر بها في
مروج آسفوديل ذات الأشباح ، حيث لقي القتلى أرواح ذويهم وأبطالهم
من رجال هيلاس الذين سقطوا تحت أسوار طروادة ... وهناك ...
وقفوا طويلاً يتناجون ، وكلم ابن بليوس قائد الهيلانيين أجاممنون
ورثى له ، فكلمه أجاممنون وتحسر عليه ، ورأوا روح بتركوس حبيب
أخيل زعيم الميرميدون ، وروح أخيل نفسه . وروح أجاكس^(١)
العظيم ... وعرف أجاممنون روح أمفيدويون العاشق المحروب الذي
قتله أوديسيوس فيمن قتل من عشاق بنلوب ، فكلمه ، وكلبه أمفيدويون
فقص عليه ما كان من مأساتهم الغرامية وما كان من أوبة أوديسيوس .
المفاجئة واختلاطه بهم في صورة فقير شحاذ ... إلى آخر القصة
الدائمة المشجية التي انتهت بقتلهم جميعاً ... وما كاد يفرغ حتى بدا

(١) هو اياس أيضا .

العجب في محيا القائد أجاممنون ، وطفق يثني على وفاء بنلوب ، وشجاعة صديقه أوديسيوس ، ثم راح ينعي على زوجته الآثمة كليتمنسترا ما كان من غدرها ، وتدير غيلته مع حبيبها الفاسق إيجستوس
وهكذا انتهت الأشباح الآثمة إلى ظلمات هيدز . . . إلى مملكة بلوتو . . . حيث تلقى جزاءها العادل من مخالب سيربيروس الحادة وأظفاره القواطع .

هذا ما كان من أمر تلك الفئة الباغية .

أما ما كان من أمر أوديسيوس فقد استيقظ في بكرة اليوم التالي ، واستيقظت معه بنلوب السعيدة ، وهب من فراشه فارتدى ملابسه ، ووضع عليه سلاحه . ثم أمر زوجه ألا تخاطب من الناس إنسياً حتى يعود ، وأن تغلق عليها أبواب القصر ، لأنه منطلق إلى أبيه ليزف إليه الهشري بنفسه . ودعا إليه تليماخوس ليصحبه ، وليصحبه الراعيان المخلصان الوفيان ، بعد إذ يسبغ كل منهما عليه دروعه ، ويستعد بسلاحه

وانطلق الأربعة يطوون شوارع المدينة التي ختم عليها البسمت دون أن يشعر بهم أحد من أهلها ، حتى بلغوا الحلاء ، ومازوا يذرعونها حتى كانوا عند المزرعة المصون الناضرة ، وهناك ، نظر أوديسيوس بعينين مشوقتين ، وقلب ملتاح خفيق ، إلى البيت الصغير الذي يؤوى أباه الضعيف الشيخ ، حيث يقضى أيامه في أسى ليس بعده أسى ، ويحتر همومه في صمت كصمت الموتى ، ويذرف دموعه في قنوط وسكون . . . لا يراه أحد ، ولا يشكو بته إلى مخلوق . إلا هذه المرأة

العجوز الحيزبون التي تخدمه في رضى ، وتسهر عليه في حب له ، وإشفاق من أجله . . . وكان ليرتس ، الأب المحزون ، يتلمس بالعمل في بستان قريب يشذب شجيرات ، ويمسذب زهيرات ، فأمر أوديسيوس ولده وراعيه أن يبقوا في المنزل ليعدوا غداء فاحراً . وشواء سمينا ، لأنه يحب أن يلتقي أباه في البستان وحده . . .

وانطلق أوديسيوس إلى البستان ، فوجد الفلاحين قد انصرفوا إلى أعمالهم ، ووجد أباه يحوس خلال الأشجار كالشبح ، ويهوى بفأسه فيحتفر حرطن ، وهو بين الفينة والفينة يصلح من لباسه الخشن الذي اتخذته من جلد عنز ، كما اتخذته قفازيه وجوريه . . . ووقف أوديسيوس تحت كثرة باسقة وطفق ينظر إليه ، ويقلب في السنين الطوال التي يطوى تحت عيني ، ثم يتعجب للقلب الكبير الذي صمد لحداث الزمان ولأواء الأيام فلم يصدع ولم يمين ، وإن كان بعض حزنه لتنوءه الجبال .

وانبجس الدمع من عيني أوديسيوس ، وانهمر على خديه الحزينين ، وأوشك أن يمضى نحو أبيه فيأخذه في حضنه ، ويفجأه بالبشرى القاتلة ، لولا خيفته على تلك الشيخوخة المتداعية أن تنقض حين لا تحتمل النبأ العظيم . . . نبأ عودة قطعة القلب والكبد بعد يأس دام عشرين عاماً . . . لهذا آثر أوديسيوس ألا يفعل ، وآثر أن يلتقي أباه كرجل غريب جواب آفاق ، ويحدثه ، ليعلم ما في قلبه . فذهب إليه ، ووقف عن كسب بكلمه :

— « أيها الشيخ : ويكأنك لا علم لك بأمور هذا الزرع ، وإن أثمر
ببستانك وآتى أكله أحقاً ، إنى لا أرى عشباً فى الأرض ، ولا شجرة
إلا وهى مشمرة ، ولا زهرة إلا وهى مسفرة نامية ، وما ذاك إلا لسهرك
عليها .. بيد أنه لن يسوءك إن لاحظت أنك تُعنى بهذا البستان أكثر
مما تعنى بنفسك ، مع ما أنت فيه من تقادم السن ولهجة الشمس ووطأة
المرض ... وما أحسب مولاك إلا قاسى القلب عليك ، قليل الاحتفاء
بك والتوجع من أجلك ، مع ما لك من سماء النبل ، ومظاهر الملوك ؛
فما كان أحجى بك — وأنت فى هذه السن — أن تستجهم وتتضمنخ
وتنام ملء عينيك ، لا يزعجك عمل ، ولا تتوذك أكلاف الحياة !
ولكن قل لى بالله عليك أيها الشيخ ، لمن تنصّب كل هذا النصب ،
وبستان من هذا ؟ خبرنى لا تخف على أيها الأب ، فلقد لقيت من
سألته فلم يأبه بى ولم يُعنَ بمسألتى ... ولقد ذرعت الرحب حتى
وصلت إلى هذه الأرض ، إيثاكا ، لأنى كنت أقدم فيما مضى من الزمان
فأحل ضيفاً على أمير عزيز فيها ، وما أعرف إن كان لا يزال حياً يرزق
أو مضى لا قدر الله إلى هيدز ! ولقد كان هذا الصديق يزورنى فى وطنى
فأكرم مشواه ، ولقد كان يحدثنى الأحاديث عن أبيه ليرتس ابن
آزير ياس ... وما أنس لانس أيام كان يحمل إلى الهدايا فأردها إليه
أضعافاً مضاعفة ، فمن ذاك أنى نفحته مرة بسبع بدر من خالص
الذهب ، وبحالة من فضة مزدانة بأفواف الزهر ، واثنى عشر صداراً ،
واثنى عشر دثاراً ، ومثلهن من أكرم البسط ، وشيء كثير من ثياب
القاقم والسنجاب ، تم أهديت إليه أربع جوار كنس أبكار اختارهن

بنفسه ، مثقفات مهذبات ، يتخايلان في الخبز . ويرفلن في الديباج . .

وازدحمت الدموع الحرار بكل الذكريات المشجية في عيني الرجل الشيخ ، وقال يحيب أوديسيوس : « أيها الأخ لقد بلغت هناك ، فهذه هي إيثاكا . . . بيد أنها — والأسفاه ! — نهب مقسم بين فئة باغية ظالمة لا تخضع لقانون ولا تعرف شريعة . . . أما صديقك فوا أسفى عليه . . . ويا ألف أسى على هداياك ! من لك به اليوم ليردها عليك أضعافاً مضاعفة يا صاح ! ولكن قل لي بربك واصدقني : منذ كم سعت لقيت صديقك التعس ، الذي هو ابني ؟ ! إيه . . . له الله ! ما أحسب إلا أن السمك قد اغتذى به ، أو أنه غدا يوماً جزر السباع وكل نسر قشعم ! أو اه عليك يا أوديسيوس يا ولدي ! هكذا قضيت ولم أذرف على ثراك عبرة ، ولم تكتحل عيناً أملك قبل أن تموت برؤياك . . . ولا بنلوب ! ولا بنلوب أيضاً كانت إلى جانبك لتغمض بيدها أجفانك . . . ولكن . . . ولكن قل لي أيها الأخ من أنت ، ومن أي البلاد قدمت ؟ وابن من من الكرام الأكبر ؟ وفي أي الرفاق وصلت إلى إيثاكا وفي أي السفائن ؟ أم وصلت بك إحدى الجوارى المنشئات ثم غادرتك في إيثاكا ؟ . . »

وقال أوديسيوس وهو يلفق ما يقول : « أما من أنا . . . فـ . . . أنا إيريتوس بن أفيداس بن بوليمون من أمراء أليباس ، من أعمال صقلية ، ولقد هبت على سفيتي عاصفة هوجاء فدفعتنا نحو بلادكم وألقينا المراسي في مينائكم . . . ولقد لقيت أوديسيوس آخر مرة

منذ خمس سنوات ، وقد افترقنا وكنا أمل أن المتيق لتبادل تذكارات المحبة وهدايا الصداقة والوفاء والود .

وانعقدت سحابة مظلمة من مرارة الحزن فحجبت الضوء عن عيني .
ايرتس ؛ ثم إنه أهوى إلى الأرض فقيض قبضات من التراب وراح يحثرها على رأسه ، ويئن أنينا مؤلما . ولم يحتمل أوديسيوس أن يرى أباه في هذه الحال ، بل كاد صدره ينشق من حسرة عليه ، فهرول وأخذه ملء ذراعيه وجعل يضمه إلى صدره ويقبله ويقول : « أبتاه ! أبتاه ! هو أنا ذا ! أنا أوديسيوس عدت إليك بعد عشرين عاما فافرح وهدئ روعك ، ولتنته آلامك ، وإليك أحسن البشريات ! لقد قتلت أعدائي العشاق جميعا . فتاتهم في بيتي ، وانتقمتم لك ولي ولبلوب ! » .

بيد أن ليرتس وقف ذاهلا عن نفسه ، ثم نظر إلى ولده وقال :
« إن كنت حقاً ولدي أوديسيوس ، فهات برهائك الذي يقطع شكي ! »
فقال أوديسيوس : « ألا تصدق ! إذن فانظر إلى الندوب الخالدة التي احدثها في ساقى خنزير الفلاة إذ أنا أحدث يا أبي ! ألا تذكر يوم كنا على جبل برناسوس ، وكان جدي أوتوليكوس معنا ثمة ، وكان يتحفني بالهدايا واللهي ؟ وهاك دليلا آخر يوم مشيت معك في هذه الحديقة ورجوتك أن تجعل بعض هذه الأشجار اسمي ، فشيت معك ، ورحت أنت تسميها لي بأسمائها ، فجعلت لي ثلاث عشرة كثرة ، وعشر تفاحات ، وثلاثين تينة ، وخمسين صفا من الكروم الناضرة التي كان يزرع القمح بين عرائشها والتي كانت تتدلى منها العناقيد من كل لون ! » .

٣٠٣

وانجباب الشك عن فؤاد ليرتس ، فأخذ ولده بيزذراعيه المرتجفتين
وراح يضمه ويقبله ، ويضعده في صدره الرحب القوي أنفاسه ، حتى
إذا وهنت قواه أرسله ، وأخذ يحدثه فيقول . « يا للآلهة ! يا أرباب
السموات الخالدة في شعاف الأولمب ! أهكذا قضيت آخر الأمر أن
ينصب جام غضبك ومهمم نغمته على هؤلاء الكافرين الفجرة ! ولكن
أشد ما أخشى أن يتألب الجمهور علينا ، فيهرعوا إلى هنا . ويطلبوا
نار ذوبهم .

فتبسّم أوديسيوس وقال له يطمئنه : « لا عليك يا أبى... هلم الآن
فلنذهب إلى بيتك الجميل ، فلقد أرسلت تليماك ثمة ومعه الراعى ،
ويومايوس الوفي ، ليمدوا لنا طعاماً سريعاً خفيفاً .

وأعد الطعام ، ومزجت الخمر ، وذهبت الخادم العجوز فأعدت
حماماً لسيدھا الشميخ ، ثم ضمخته وأضفت عليه ملابس نظيفة . . .
وتنزلت مینرفا الكريمة فمشت بيديها الإلهيتين على جسم ليرتس فتدقق
الشباب في عروقه ، وعاد إليه زواؤه وحسن سمته ، فلما خرج من
الحمام تعجب أوديسيوس وقال له . « تالله يا أبت إنى لا أشك في أن
بعض الآلهة قد رد إليك صباك . وخلع عليك برودة الشباب من جديد ! »
ولم يكن عجب ليرتس بأقل من عجب ولده ... « تعاليت يا جوف !
وتقدست يامينفا ! وسماجدك يا أبوللو ! لقد كسرتى نضرة الشباب
التي كانت لی يوم ملاكت مدينة تريكرس بمعونة السيفالين الشجعان !
أواه لو قد رى أن أقف إلى جنبك أمس يا بنى ، سيكون لى شرف مجالدة
الأوغاد الذين قتلتم ، إذن ، لحظيت بكوكبة منهم أخرج أديم الأرض

بنماها ، فأشفي منهم حرّداً في صدرى ، وغلاً في حشاشتى ا . .

وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، ثم جاسروا على الأرائك متقابلين . . .
وكانت الخادم العجوز قد انطلقت إلى المزارع فدعت كبير الفلاحين
دوليوس ، فأقبل في رجاله الذين كدّهم العمل وأهكّتهم المشاورة . . .
فلما رأوا ما ارتد إلى سيدهم من شبابه ، وهذا الرجل الغريب الذى يجلس
بين العائلة المقدسة ، وقفوا مسبوّهين مشدوهين ، لا يعرفون ماذا
يقولون . . . وحدّتهم أوديسيوس ، ثم بدأ يكلمهم فى لطف وخبث
ويقول : « اجلس أيها العجوز دوليوس فكل أنت ورجالك . . .
فليس ثمة متسع لدش أو عجب .. اجلس قبل كل شيء فاملاً بطنك
وبطون رجالك ... لقد انتظرنا كم طويلاً ، لكنكم استأنيتم ا ، ولكن
سرعان ما عرف دوليوس مولاة حين سمع صوته ، فأقبل عليه ، وتناول
يديه ، وطفق يغمرهما بالقبل الياكية ويقول : « أوه يا مولاي ا
هكذا والله تستجيب السماء ! لقد طالما جأرنا ولقد طالما دعونا فلها
الثناء إذ ردتك إلينا ! فعش واسلم وُسّر وابتهج . . . ولكن . . . هل
علت الملكة بقدم مولاي ؟ ألا ننطلق من فورنا فنزف إليها البشرى ؟ »
وظمأته أوديسيوس ، فجلس الرجل مبهتجاً مسروراً ، وجلس
أبناءؤه معه ، وأخذوا فى أكلهم وشربهم ، وأخذ أوديسيوس يلاطفهم
ويداعبهم . . . وهكذا عاد الحبور مرة أخرى إلى بيت ليرتيس !

وقرع آذان الناس فى المدينة ما كان من قدوم أوديسيوس ،

وما حاق بالأمراء المعاميد من نكبة على يديه الجبارتين ، فأهرعت
 جموعهم إلى قصره صاحبة ناعبة ، ثم انطلقوا إلى حيث كدست أجساد
 القتلى فحرق كل قتيله ، وأرسلت جثث الغرباء إلى ذويهم في أوطانهم
 في سفن الصيادين من كل فج لتُحرق ثمّة ... واجتمعوا بعد ليتشاوروا
 بينهم فيما ينبغي أن يكون ... فنهض يوبيتيس والأسى يزلزل جوانحه
 وأنشأ يقول : أيها الرفاق ! لقد كان هذا الرجل الطاغية حرباً دائماً
 عليكم فلم يصحبكم منه إلا الشر ، ولم تثمر لكم فعاله إلا الندامة ! فلقد
 ساق شبابكم وخيرة أبطالكم إلى طرودة المشئومة حيث قتلوا أجمعين ،
 وهاهو ذا ينقلب اليكم اليوم ليذبح ساداتكم وذوى الصولة فيكم ...
 فهلوا إذا وروا رأيكم فيه قبل أن ينطلق إلى بيلوس فيطلب العون
 عليكم ، وتصبحوا على ما قصرتم نادمين ! إنا إن لم نثار لضحايانا فأى
 عار يسمنا وأى خزي يصمنا يا قوم ! وأية حياة هذه التى تحيونها
 بعد ما حل بكم من هوان ومذلة ... لخير لكم أن تذبجوا أنفسكم فترحلوا
 إلى هيدز مع أرواح قتلاكم ولن تكونوا على ذلك من الأسفين ! ،
 ثم جلس وهو يتصدع من الحزن على صاحبه ألتينوس الذى كان أول
 ضحايا أوديسيوس ... وقام ميدون المنشد التعس فقال : أيها المواطنون
 أعيروني آذانكم ! تالله إن أوديسيوس لم يرم سهامه إذ رمى ، ولكن
 بعض الآلهة كان يرسم له وينافح عنه ، ولقد رأيتُه بعينى هاتين فى
 صورة منظور ، ووالله ما هو منظور ، ووالله لقد كان يشى بين يديه
 همنا وهمنا فسيراع العشاق وتفرع قلوبهم ويسقط بعضهم فوق بعض
 فتأخذهم سهام أوديسيوس ويروى من دماهم سيفه ! ، وما كاد يفرغ

ميدون ، وكان فيهم أميناً صادقا ، حتى طارت ألو انهم وامتقعت وجوههم
ونظر بعضهم إلى بعض ، وادّاروا^(١) طويلا ، ثم وقف هاليتير
بطلهم القديم بن مسطور ، وكانت له دراية بكشف أستار الماسي
والحاضر والمستقبل ، فصعّر^(٢) خده وقال : « أيها الإخوان !
يا أبناء إيشاكا ! اسمعوا وعوا ؟ تالله لقد طالما مهدتم للفتنة ، وإنما ثمرة
أتم غارسو شجرتها وأنتم اليوم جشاشها ... أتذكرون يوم رجوتكم
فألحقت عليكم في الرجاء أنا وصاحبي ميدون هذا ، أن نذهب فتمنع
القصر من شبابكم ، ونصون عرض أوديسيوس من أبنائكم ، ونصرفهم
عن ولده وزوجه ومتاع هذه الحياة الدنيا ، فأيتهم أكبر الإباء ، ورفضتم
أقبح الرفض ، وجعلتموها فتنة كمنت أبتعيذ بالآلهة منها ؟ فعلام
تغلي مرأجل صدوركم يا قوم ؟ وفيم ائتمركم بالرجل وقد ثار لعرضه ؟
ألا فاسمعوها كلمة مخلصه أسديها إليكم ... الرأى ألا تذهبوا ، وألا تجعلوها
فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة ، بل اقعدوا ههنا آمنين ،
ولا تكونوا كالذي سعى إلى حتفه بظلفه ، وأبطأت عليه المنايا فسعى
قدماً إليها ، وما فرغ حتى زجر القوم وتصايحوا به ، وضجوا من
كل مكان ... ثم إنهم سمعوا إلى شيطان يوبيتيس ففرعوا إلى أسلحتهم ،
وأسبغوا عليهم من دروعهم ، وانطلقوا إلى المدينة فمظموا فيها صفوفهم
وأقاموا يوبيتيس قائداً منحوساً عليهم ، وما جعلوه كذلك إلا ليلقي
حتفه بيد أوديسيوس ، وتعجل روحه إلى النار !

ومضت مينرفا إلى سيد الأولب ، جوف العلى فوقفت يبابه تقول :

(٢) أمال خده من السكب .

(١) تدافعوا واختلفوا .

« أبتاه ابن عن سريرتك ، واكشف عن مكتوم قلبك ومكنون نفسك ! هل يحل على هذه الفئة الظالمة غضبك ، أم أنك مانحها محبتك ، ومحضنها بحمايتك ؟ ، فتبسم من قولها وأنشأ يجيب : « وفيه هذا التساؤل يا ابنتي ؟ ألم تقدرى أنت أن يعود أوديسيوس إلى وطنه فيذبح بيديه أولئك العتاة الطغاة ، ويريح وجه الأرض من خبائثاتهم ؟ ليكن ما تشائين ! اصنعى ما بدا لك ... ولكن نصحى أمحضك إياه ياميرفا ! ما دام أوديسيوس قد نأر لنفسه من أعدائه ، فليكن السلام على الأرض ، وليحل الأمان في ربوعها ، وليتقاسم الملأ على الود والصفاء ، وليحكم أوديسيوس بين الناس بالعدل ... وعلينا نحن أن نزرع ما في صدورهم من غل فينسوا سخائمهم ، ويطرحوا ناراتهم ، ثم لتسكن لهم من أنفسهم أمة ، ولتجر البركات عليهم أجمعين ، وليصبجوا بحولنا أصفياء متحابين ،

وزفت ميرفا من السموات العلى إلى إيثاكا .

وفرغ أصحاب أوديسيوس من أكلهم فأمرهم أن يتحسّسوا آثار القوم ، فانطلق أحد أبناء دوليوس إلى المدينة فرأى من استعداد أهلها ما رأى ، وجاء إلى مولاه على عجل فقال له : « مولاي ! لقد تسلح الإيثاكيون وهم موشكون أن يقدموا إليك ، فنهض أوديسيوس فادّرع ، وادّرع أبوه وابنه وخادماه وأبناء دوليوس الستة ، وادّرع دوليوس كذلك ، وادّرع الفلاحون الآخرون ، وحمل كل سلاحه ، وبرزوا إلى الطريق وفي مقدمتهم أوديسيوس .

وبدت ميرفا في صورة منظور وفي طيلسانه ، فلما رآها أوديسيوس

فرح واستبشر ، والتفت إلى تليماك فقال : « أى بنى عليك أنت أن تحمينا اليوم فقد عرفت ما خاض أبوك من معامع ، وسنرى من يحارب خيراً من صاحبه اليوم ا » ، فقال تليماك بحبيبه : « اطمئن يا أبى فسترى كيف يحمى العسلوج ^(١) فرعه ، وكيف يشب الفرع على أصله . تالله لن أفضحك فيما وكلت إلى يا أبى ، ولن يخيب رأى أهلى فى ا » ، وفرح الوالد بمقالة ابنه ، وشكر للآلهة وأثنى عليها .

واقتربت مينرفا من ليرتيس ، وهى لا تزال فى صورة منطور ، فقالت له : « أوه أيها الجد الوقور ا صل لمينرفا وابتهل ، وتوصل إلى جوف ، أن يمنحك القوة والجلد ، ثم اجمع بحر بتك على يوبيتيس فروها من دمه ، فالسماء كلها معك » ، ولمسته بيدها فتدفق شهابه فى قلبه ، وكان جيش الأعداء قد اقترب منهم فطار ليرتيس إليهم برمح وأقصد يوبيتيس بضربة فى صدره ، فخرج سنان الرمح يلعب من ظهره ، ورأى أوديسيوس ذلك فطار إلى الملاء بسلاحه ورماحه ، واقبض تليماك فى إثره ، وهجم الآخرون فى إثر تليماك ، ولم يطل القسراع ، فقد فزع الأعداء واحتلظ نظامهم ، فولوا الأدبار ، واسكن هيهات ! لانساجة اليوم ، فلقد سد عليهم أوديسيوس ورفاقه الطرق ، وأخذوا عليهم المسالك ، فهم فى ضيق ، وهم ذاهلون !

وهتفت ابنة جوف العذراء بأوديسيوس ورجاله تقول : « السلام عليكم أيها المحاربون ! السلام ! السلام ! قبل أن تجرى دماؤكم أنهارا ، ثم بدت مينرفا فى صورتها الإلهية المقدسة فارتعدت فرائص القوم ،

(١) العسلوج الفرع الصغير .

٣٠٩

وتخاذلوا فيما بينهم ، حتى أصحاب أوديسيوس لقد ارتجفت أعصابهم
وعصف الذعر بسواعدهم ، وكادت سيوفهم ورماحهم تثتر على الأرض ..
ولم يعبا أوديسيوس ، بل هجم كالفر على القوم المنهزمين يودلوا بصعقهم ،
وظفق يبرق ويرعد ، ويزأر بصوته المدوى العظيم ، فغضب سيد
الأولمب ، وأرسل إحدى صواعقه نذيراً من لدنه إلى مينرفا ، فعبطت
إليه ذات العينين الزبرجديتين ، وزجرته عن الناس وهي تقول .
« لا يا أوديسيوس الا يا ابن ليرتس النبيل ، لا يجدر هذا بماضيك ا
ضع حداً لهذه المجزرة المروعة أو تجلب عليك غضب جوف العلى ، .
وتخبست أوديسيوس ، وسررت مينرفا ، وعقد منظر الصالح بين
الفر يقين ، ودخل الناس في السلم كافة . . . ا

فهرس

صفحة	
٨	بين مينرفا وتليماك
٢٠	تليماك يجادل الخطاب
٣٣	تليماك يسائل نسطور عن أبيه
٤٦	الخطاب يتآمرون
٦٨	أوديسيوس يبحر من جزيرة كالبيسو
١١٨	في أرض المردة
١٢٤	أوديسيوس يروى قصته
١٥٣	رحلة أوديسيوس إلى العالم الثاني
١٧٤	تمام قصة أوديسيوس
١٩٠	أوديسيوس يصل إلى إيثاكا
٢٠٦	مع الراعى
٢٢١	عودة تليماك
٢٣٤	أوديسيوس يلقي تليماك
٢٤١	أوديسيوس في قصره
٢٥١	أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ
٢٦٧	نذير من السماء
٢٨٢	الانتقام الهائل
٢٨٩	بنلوب... وأخيراً... بنلوب
٢٩٧	أوديسيوس يصل إلى إيثاكا

كتب أخرى للمؤلف

- ١ - أساطير الحب والجمال عند الإغريق تظهر الطبعة الثانية قريباً
- ٢ - قصة الإلياذة لهوميروس الطبعة الثانية
- ٣ - قصة الأوديسة »
- ٤ - في الفن المسرحي (١) جوردون كريج »
- ٥ - نحو عالم أفضل برتراند رسل
- ٦ - علم المسرحية أالاردس نيكول
- ٧ - فن كتابة المسرحية لاجوس إجرى
- ٨ - حياتي في الفن (جزءان) ستانيسلافسكى
- ٩ - قصة المسرح والمسرحية والتمثيل والإخراج
- في ٣٠٠٠ سنة شلدون شيني (تحت الطبع)
- ١٠ - قصة أعلام الأدب في العالم برتون راسكو (تحت الطبع)
- ١١ - فوماجورديف (قصة جوركي)
- ١٢ - العلبة الزمردية أساطير للكاتب الروسي بازاخوف
- ١٣ - قصص للكاتب الروسي كنور
- ١٤ - أشهر المذاهب المسرحية (تحت الطبع)
- ١٥ - إقرأوا معي - مجموعة أقاصيص للأطفال ظهر منها ١٢ قصة

طبعة النخبة العربية
١٣ شارع كامل صفا القاهرة

